الألف كتاب
الثاني
٢٠٣

رحلات ماركو بولو

الجزء الثالث



ترجمها إلى الإنجليزية: وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية: عبد العزيز جاويد

رحلات ماركو بولو

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

لمياء محرم

رحلات ماركو بولو

ترجمها إلى الإنجليزية

وليم مارسدن

ترجمها إلى العربية

عبد العزيز جاويد

الجزء الثالث



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة
الفصـــل الأول	١١
الفصـــل الثانى	١٥
الفصـــل الثـالث	١٩
الفصـــل الرابع	٢٠
الفصـــل الخـامس	٢٢
الفصـــل السـادس	٢٣
الفصـــل السـابع	٢٥
الفصـــل الثـامن	٢٦
الفصـــل التـاسع	٢٨
الفصـــل العـاشر	٢٩
الفصـــل الحـادى عشر	٣٠
الفصـــل الثانى عشر	٣١
الفصـــل الثـالث عشر	٣٣
الفصـــل الرابع عشر	٣٥
الفصـــل الخـامس عشر	٣٦
الفصـــل السـادس عشر	٣٧
الفصـــل السـابع عشر	٣٩
الفصـــل الثـامن عشر	٤٠
الفصـــل التـاسع عشر	٤١
الفصـــل العشرون	٤٣
الفصـــل الحـادى والعشرون	٥٧
الفصـــل الثـانى والعشرون	٥٩
الفصـــل الثـالث والعشرون	٦٢

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع والعشرون	٦٤
الفصل الخامس والعشرون	٦٦
الفصل السادس والعشرون	٦٨
الفصل السابع والعشرون	٦٩
الفصل الثامن والعشرون	٧٠
الفصل التاسع والعشرون	٧٢
الفصل الثلاثون	٧٤
الفصل الحادى والثلاثون	٧٥
الفصل الثانى والثلاثون	٧٦
الفصل الثالث والثلاثون	٧٧
الفصل الرابع والثلاثون	٧٨
الفصل الخامس والثلاثون	٨٠
الفصل السادس والثلاثون	٨٢
الفصل السابع والثلاثون	٨٥
الفصل الثامن والثلاثون	٨٧
الفصل التاسع والثلاثون	٨٨
الفصل الأربعون	٩١
الفصل الحادى والأربعون	٩٣
الفصل الثانى والأربعون	٩٥
الفصل الثالث والأربعون	٩٦
الفصل الرابع والأربعون	٩٨
الفصل الخامس والأربعون	١٠٢
الفصل السادس والأربعون	١٠٤
الفصل السابع والأربعون	١٠٥
الفصل الثامن والأربعون	١١٠
الفصل التاسع والأربعون	١١١
الفصل الخمسون	١١٤
الفصل الحادى والخمسون	١١٥

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني والخمسون	١١٦
الفصل الثالث والخمسون	١١٨
الفصل الرابع والخمسون	١٢٠
الفصل الخامس والخمسون	١٢١
الفصل السادس والخمسون	١٢٢
الفصل السابع والخمسون	١٢٤
الفصل الثامن والخمسون	١٢٦
الفصل التاسع والخمسون	١٢٧
الفصل الستون	١٢٨
الفصل الحادى والستون	١٣٠
الفصل الثانى والستون	١٣١
الفصل الثالث والستون	١٣٢
الفصل الرابع والستون	١٣٣
الفصل الخامس والستون	١٣٤
الفصل السادس والستون	١٣٥
السصل السابع والستون	١٣٧
الفصل الثامن والستون	١٣٨
الفصل التاسع والستون	١٤٠
الفصل السبعون	١٤١
الفصل الحادى والسبعون	١٤٣
تذييل	١٤٥

هوامش الجزء الثالث

هوامش الفصل الأول	١٥٣
هوامش الفصل الثانى	١٥٥
هوامش الفصل الثالث	١٥٨
هوامش الفصل الرابع	١٥٩

الموضوع	الصفحة
هوامش الفصل الخامس	١٦١
هوامش الفصل السادس	١٦٢
هوامش الفصل السابع	١٦٤
هوامش الفصل الثامن	١٦٥
هوامش الفصل التاسع	١٦٧
هوامش الفصل العاشر	١٦٨
هوامش الفصل الحادى عشر	١٦٩
هوامش الفصل الثاني عشر	١٧١
هوامش الفصل الثالث عشر	١٧٣
هوامش الفصل الرابع عشر	١٧٥
هوامش الفصل الخامس عشر	١٧٦
هوامش الفصل السادس عشر	١٧٧
هوامش الفصل السابع عشر	١٧٩
هوامش الفصل الثامن عشر	١٨٠
هوامش الفصل التاسع عشر	١٨١
هوامش الفصل العشرين	١٨٤
هوامش الفصل الحادى والعشرين	١٩٦
هوامش الفصل الثانى والعشرين	١٩٨
هوامش الفصل الثالث والعشرين	٢٠٣
هوامش الفصل الرابع والعشرين	٢٠٦
هوامش الفصل الخامس والعشرين	٢٠٨
هوامش الفصل السادس والعشرين	٢١١
هوامش الفصل السابع والعشرين	٢١٣
هوامش الفصل الثامن والعشرين	٢١٥
هوامش الفصل التاسع والعشرين	٢١٧
هوامش الفصل الثلاثين	٢١٩
هوامش الفصل الحادى والثلاثين	٢٢٠
هوامش الفصل الثاني والثلاثين	٢٢١

الموضوع	الصفحة
هوامش الفصل الثالث والثلاثين	٢٢٢
هوامش الفصل الرابع والثلاثين	٢٢٤
هوامش الفصل الخامس والثلاثين	٢٢٥
هوامش الفصل السادس والثلاثين	٢٢٧
هوامش الفصل السابع والثلاثين	٢٣٠
هوامش الفصل الثامن والثلاثين	٢٣٣
هوامش الفصل التاسع والثلاثين	٢٣٤
هوامش الفصل الأربعين	٢٣٦
هوامش الفصل الحادى والأربعين	٢٣٨
هوامش الفصل الثانى والأربعين	٢٣٩
هوامش الفصل الثالث والأربعين	٢٤٠
هوامش الفصل الرابع والأربعين	٢٤٢
هوامش الفصل الخامس والأربعين	٢٤٦
هوامش الفصل السادس والأربعين	٢٤٨
هوامش الفصل السابع والأربعين	٢٤٩
هوامش الفصل الثامن والأربيعن	
هوامش الفصل التاسع والاربعين	٢٥٠
هوامش الفصل الخمسين	٢٥١
هوامش الفصل الرابع والستين	٢٥٢
هوامش الفصل التاسع والستين	٢٥٣



الفصل الأول

عن الهنـد ، مقسمة الى الهنـد الكبرى والصغرى والوسـطى ـ عن عادات سكانها وأعرافهم وعن أشياء كثيرة عجيبة وخارقة تلاحظ هناك ، وقبـل كل شيء عن نـوع السفن المستعملة في الملاحة .

أما وقد تناولنا ، في الأجزاء السابقة من عملنا ، ولايات وأقاليم مختلفـة ، فاننا الآن سنودعها وننتقل الى حـديث الهند ، التي سنروى على مسامعكم قصة ظروفها المعجبة . وسنبدأ حديثنا بوصف للسفن التي يستخدمها التجار ، وهي سفن مصنوعة من خشب التنوب (١) .

وللسفن سطح وحيد يقسم الفراغ تحته الى حوالى ستين مقصورة صغيرة ، تقل أو تزيد تبعا لحجم السفن ، وكل منها معدة لنزول تاجر واحد (٢) . وهي مزودة بدفة جيدة . ولها أربع ساريات لكل منها شراع ، كما أن لبعضها ساريتين يمكن اقامتهما وخفضهما ثانية حسب الضرورة(٣) .

ولبعض السفن ذات الحجم الأضخم، فضلا عن (المقاصير) أو الحجيرات ، تقاسيم : (حـواجز) تصـل الى ثلاثة عشر وتقوم في مخزنها ، وهي تتكون من فلنكات غليظة ، تعشق بعضها في بعض Incastrati (أى مثبتة بالنقر واللسن أو بالافتراز حفرا وتعشيقا) . والغرض من هذه هو الاحتياط

من الحوادث التى قد تعرض السفينة لصدع يعرضها للرشح المائى ، كالاصطدام بصخرة أو تلقي ضربة من حوت ، وهى حاله كثيرة الحدوث ، وذلك لأن السفينة حين تمخر الماء ليلا ·· يحدث اختراقها للأمواج زبدا أبيض يستلفت نظر الحيوان الجائع وتوقعا للحصول على الطعام يندفع بشدة الى البقعة ، فيصدم السفينة ، وكثيرا ما يدفع نحو الداخل جزءا من قاعها ·

واذ يجرى الماء من المكان الذى حدثت فيه الاصابة ، فانه يتسرب الى بئر السفينة ، التى يحتفظون بها على الدوام خالية من كل شيء · ومتى اكتشف الملاحون موقع الثقب والتسرب يبادرون على الفور الى ازالة البضائع من القسم المتأثر بالماء ، وهنا لا يستطيع الماء نتيجة لشدة حبك الألواح بعضها مع بعض ، المرور من قسم الى آخر ·

وعندئذ يصلحون التلف ، ويعيدون البضائع الى مكانها من العنبر الذى رفعت منه · وجميع السفن مغشاة بألواح مزدوجة ، أعنى ، أن لها طبقة أخرى من الألواح الواقعة الممدودة فوق فرشة الفلنكات بكل جزء من أجزاء السفينة · ثم تقلفط هذه الألواح بالشاقة (الحبال البالية) من الداخل والخارج ، كما تثبت بالمسامير الحديدية · وهى لا تطلى بالقار ، لأن البلاد لا تنتج تلك المادة ، ولكن تكسى قيعان السفن بالتركيب التالى : فيتناول الناس الجير الحي والقنب ، فيقطعون الأخير نتفا صغيرة ، وبعد دق الجير والقنب معا ، يضيفون اليهما نوعا من الزيت يحصلون عليه من شجرة معينة مكونين من المجموع ضربا من المعجون، يحتفظ بخواصه اللزجة بشكل أثبت ، كما أنه مادة أفضل من القار(٤) ·

وتحتاج أكبر السفن حجما الى طقم ملاحين عدده ثلاثمائة رجل ، كما تحتاج غيرها الى مائتين ، وغيرها الى مائة وخمسين فقط ، حسب تفاوت حجمها كبرا وصغرا · وهى

تحمل عددا من السلال (أو زكائب الحصير المملوءة بالفلفل) يتراوح بين خمسة آلاف الى ستة ٠

وكانت السفن فى الأزمنة الخالية ذات حمولة أكبر مما هى الآن ، ولكن نظرا لأن شدة عنف البحر فى كثير من الأماكن حطمت الجزر ولا سيما الموجودة منها فى بعض المنوانى الرئيسية ، فقد حدث نقص فى عمق المياه بالنسبة لسفن من هذه الحمولة ، وبناء على هذا بنيت السفن ـ فيما بعد ذلك من الزمان ـ من حجم أصغر ٠

وتحرك السفن بالمجاديف العادية والطويلة بدرجة سواء ، ويحتاج كل منها فى تشغيله الى أربعة رجال ٠ وسفن الحجم الأكبر تصحبها اثنتان أو ثلاثة من الباركات Barks الكبيرة (أى سفن بثلاث ساريات) سعتها ألف سلة من الفلفل، وعليها ملاحون عدتهم ستون أو ثمانون أو مائة ٠ وكثيرا ما تستخدم هذه السفن الصغرى فى سحب الكبرى ، متى استخدمت مجاديفها ، أو حتى متى كانت تستخدم الشراع شريطة أن تهب الريح على جانب السفينة ، ولكن ليس من خلفها نصا ، وذلك لانه فى هذه الحالة لا مفر لقلوع السفينه الكبرى من أن تطغى على قلوع السفن الصغرى ، فتكون النتيجة أن تصطدم بها ٠ وتحمل السفن معها أيضا عددا من الزوارق الصغيرة يصل الى عشرة ، لكى تحمل المراسى الى حيث تلقى ، ولصيد السمك فضلا عن مآرب أخرى ، وهى معلقة على جوانب السفن ، وتدلى الى الماء متى دعت الحاجة الى استخدامها ٠ أما البوارك (جمع باركة) فمزودة بالمثل بقواربها الصغيرة ٠

واذا احتاجت سفينة الى اصلاح ، بعد أن تقضى فى رحلة لها سنة أو أكثر ، فقد جرت العادة بكسائها بطبقة من الخشب تعلو ألواحها الأصلية ، مكونة طبقة ثالثة ، فتقلفط وتصمد بمادة عازلة بنفس طريقة معالجة الطبقات الأخرى ، ويتكرر

ذلك كلما احتاجت إلى اصلاح جديد حتى يبلغ عدد الطبقات ستا ، وبعدها تدخل فى عداد عدم الصلاحية للخدمة وعدم الجدارة بالابحار . والآن وقد وصفنا السفن فسننتقل الى الحديث عن الهند ، على أننا سنتحدث ابتداء عن جزر معينة توجد فى هذا القسم من المحيط الذى توجد فيه فى الوقت الحاضر ونبدأ حديثنا بالجزيرة المسماة : زيباتجو .

الفصل الثانى

عن جزيرة زيبانجو (١) .

ان زيبانجو جزيرة تقع فى المحيط الشرقى ، وتبعد حوالى خمس عشرة مائة ميل عن أرض القارة ، أى عن ساحل مانجى (٢) . وهى ضخمة المساحة ، وسكانها شقر البشرة ، حسنو الخلقة ، تنم عاداتهم عن التحضر . ودينهم عبادة الأوثان . وهم مستقلون تماما عن كل سلطان أجنبى ، لا يحكمهم الا ملوكهم (٣) . ولديهم الذهب بأعظم وفرة ، لأن مصادره لديهم لا تنفد (٤) ، ولكن نظرا لأن الملك لا يسمح بتصديره ، فان عدد التجار الذين يزورون البلاد قلة قليلة ، كما أنهـا لا ترتادها سفن كثيرة قادمة من أقطار أخرى . والى ذلك الظرف يصح لنا أن ننسب ما عليه قصر العاهل من فخامة وثراء خارقين ، وذلك حسبما يروى لنا من يتاح لهم دخول ذلك المكان . فسطحه كله مكسو بصفائح الذهب ، بنفس الطريقة التى نغطى بها البيوت ، بعبارة أصح الكنائس ، بالرصاص .

وسقوف القاعات مصنوعة من نفس المعدن النفيس ، ولكثير من الأجنحة مناضد صغيرة من خالص الذهب ذى السمك الكبير ، كما أن للنوافذ أيضا حليات من الذهب(٥) . والحق أن ثراء القصر يبلغ من الوفرة العريضة ما يجعل من المستحيل نقل فكرة الى الناس عنه . وتوجد اللآلىء أيضا بهذه الجزيرة بمقادير ضخمة ، وهى ذات لون أحمر (بمبى) مستديرة الشكل ، وكبيرة الحجم وتعادل أو تفوق فى قيمتها

أثمان اللآلىء البيضاء (٦) • وجرت عادة طائفة من السكان بدفن موتاهم ، وطائفة أخرى باحراقهم (٧) •

وقد اعتادت الطائفة الأولى وضع احدى تلك اللآلىء فى فم الجثة • ويوجد بتلك البلاد ايضا عدد من الاحجار النفيسة •

وذاعت شهرة ثراء هذه الجزيرة ذيوعا عظيما جدا، حتى لقد ساورت رغبة قوية نفس الخان الأعظم قبلاى ، الذى يتولى الحكم الآن ، أن يغزوها ويلحقها بممتلكاته • ولكى ينفذ هذه الرغبة ، أعد عمارة بحرية ضخمة العدد ، أنزل بها عددا جما من الجند ، تحت قيادة اثنين من قواده العظام ، كان اسم أحدهما أبا كاتان ، واسم الآخر فونسانسين (٨) •

وأقلعت الحملة من ميناءى زاى تون وكن ساى (٩)، حتى اذا عبرت البحر الأوسط ، بلغت الجزيرة بسلام، ولكن دب دبيب الغيرة بين القائدين ، فنظر أحدهما الى خطط الآخر بازدراء ورفض تنفيذ أوامره ، فكانت عاقبة ذلك أن لم يستطيعا الاستيلاء على أية مدينة ولا أى مكان حصين ، عدا واحدا فقط ، أخذ عنوة ، بعد أن رفضت حاميته التسليم وصدرت التعليمات بعرضهم جميعا على السيف (اعدامهم) ، وطوعا لها قطعت رءوسهم جميعا ، عدا ثمانية أفراد تمكنوا بفعل سحر شيطانى ، يتكون من جوهرة أو تعويذة ، أدخلت فى الذراع اليمنى بين الجلد واللحم ، من أن يصبحوا فى أمان من أثر الحديد الذى لم يستطع لهم قتلا ولا جرحا • على أنه لما اكتشفت هذه الحقيقة ، انهالوا عليهم بهراوة خشبية غليظة ، فماتوا لساعتهم (١٠) •

وحدث بعد مدة قصيرة أن ريحا عاصفة بدأت تهب بقوة عظيمة ، ودفعت سفن التتار الراسية قرب شاطىء الجزيرة دفعا حتى تشابكت • فقرر مجلس الضباط الذى عقد عندئذ

على ظهر احدى السفن ضرورة الابتعاد عن البر ، ومن ثم فانه ما كادت الجند تعود الى اعتلاء السفن حتى انطلقت بهم الى عرض البحر .

ومع هذا فان الزوبعة اشتدت الى درجة بالغة العنف حتى أغرقت عددا من السفن . وأنقذ من فيها من الناس أنفسهم بتشبثهم بقطع من خشب السفن المحطمة ، واستقروا على جزيرة تقع على حوالى أربعة أميال من ساحل زيبانجو .

فأما السفن الأخرى التى نجت من قبضة الاعصار ، لأنها لم تكن بالغة القرب من البر ، والتى اعتلاها القائدان ومعهما كبار الضباط أو أولئك الذين تؤهلهم رتبهم لقيادة مائة ألف جندى أو عشرة آلاف ، فقد يممت شطر وطنهم وعادت بهم الى الخان الأعظم . فأما التتار الذين خلفوا على الجزيرة التى تحطمت عليها سفنهم ، والذين بلغت عدتهم ثلاثين ألف رجل تقريبا ، فانهم لما وجدوا أنفسهم بلا سفن ، وقد تخلى عنهم قوادهم ، وتجردوا من السلاح والميرة ، فانهم لم يتوقعوا شيئا آخر غير الأسر أو الهلاك ، سيما وأن الجزيرة لم يكن بها مساكن يلجأون اليها ويجددون نشاطهم .

وما أن هدأت العاصفة وأصبح البحر أملس ساكنا حتى أقبل عليهم أهل الجزيرة الكبرى بجيش كبير ، ملأ سفنا جمة العدد لكى يأسروا هؤلاء التتار الذين تحطمت سفنهم ، حتى اذا هبطوا الى البر ، تقدموا ليبحثوا عنهم ، ولكن فى شراذم غير منظمة .

ولكن التتار تصرفوا من جانبهم بحذر الحصيف المتدبر ، ونظرا لتواريهم عن الأنظار وراء بعض المرتفعات فى وسط الجزيرة ، بينما كان العدو يسارع مهرولا فى البحث عنهم عن طريق واحد سلكه ، فانهم قاموا بدورة بحذاء الشاطىء

عن طريق اخر ، قادهم الى المكان الذى يرسو فيه أسطول زوارقهم ٠

فلما أن وجدوا هذه السفن مهجورة من اصحابها وعليها أعلامها ترفرف فى الهواء ، أعتلوها على الفور واندفعوا بها بعيدا عن الجزيرة ، واتجهوا الى المدينة الرئيسية بزيبانجو، فسمح لهم بسبب الأعلام بدخول مرفئها بغير اعتراض أو مضايقة (١١) وهناك لم يجدوا الى جانب النساء سوى قلة من السكان ، فاحتفظوا بالنساء ليكن فى خدمتهم وطردوا كل من عداهن ٠

ولما أبلغ الملك بما حدث أصيب بغم شديد ، وأصدر تعليماته على الفور بالقاء حصار شديد على المدينة ، بلغ من قوة فاعليته أن لم يستطع انسان دخولها ولا الفرار منها ، اثناء الشهور الستة التى استمر فيها الحصار ٠ وبعد انقضاء تلك المدة ، سلم التتار ، وقد يئسوا من كل عون أو مدد ، شريطة النجاة بحياتهم ٠

حدثت كل هذه الأحداث فى عام ١٢٦٤ (١٢) ٠ وعندما علم الخان الأعظم ، بعد بضع سنوات أن النتيجة الأسيفة للحملة كانت بسبب الخلاف الذى نشب بين القائدين، امر بقطع رأس أحدهما ، فأما الثانى فقد أرسله الى جزيرة زوروزا المتوحشة (١٣) التى جرت العادة باعدام المجرمين فيها بالطريقة التالية : فهم يطوقونهم حول ذراعيهم ، فى جلد جاموسة يؤخذ طريا من البهيمة فيخاط عليهم ، ضيقا محبوكا ٠ فاذا جف الجلد ضغط على الجسم بشدة تجعل الضحية غير قادر على ابداء أى حراك ولا نجدة نفسه بأية حال من الأحوال ، وبذلك يهلك أتعس هلاك (١٤) ٠

الفصل الثالث

عن طبيعة الأوثان التي تعبد في زيبانجو ، وعن ولع الناس وادمانهم أكل اللحوم البشرية •

تصنع الأصنام بجزيرة زيبانجو هذه والجزر الاخرى القريبة منها ، على أشكال متعددة ، فلبعضها رءوس ثيران ، ولبعضها رءوس خنازير أو كلاب أو أعناز ، وكثير غيرها من الحيوانات • ويظهر بعضها برأس واحد له سحنتان ، ولبعضها ثلاثة رءوس ، أحدها بموضعه الطبيعي والآخران فوق الكتفين • ولبعضها أربع أذرع ولغيرها عشر من ثم جدير بأن يقدم له أشد أنواع العبادة دقة وتفصيلا (١) • واذا سألهم المسيحيون : لماذا يضفون على آلهتهم هذه الأشكال المنوعة ، أجابوا بأنهم وجدوا آباءهم من قبلهم كذلك يفعلون • فهم يقولون : « ان من سبقونا تركوها كذلك ، وكذلك سننقلها الى من يخلفوننا » •

والممارسات المنوعة التي تمارس أمام هذه الأوثان شريرة وشيطانية بحيث يصبح تقديم بيان عنها في كتابنا هذا ، ضربا من عدم التقوى والفحش • ومع هذا فينبغي أن يعلم القارىء أن السكان الوثنيين في هذه الجزر يبادرون متى قبضوا على شخص أحد أعدائهم ممن لا يملكون الموارد اللازمة لافتداء أنفسهم بالمال ، الى دعوة جميع أقاربهم وأصدقائهم الى منزلهم ، واذ يجهزون عليه فانهم يقطعون جسمه ويأكلونه ، بروح قصف مشترك ، مؤكدين أن اللحم البشري يفوق كل لحم آخر في نكهته وطعمه •

الفصل الرابع

حول بحر التشن ، الممتد بين هذه الجزيرة وولاية مانجي ·

وينبغي أن يكون مفهوما أن البحر الذى تقع فيه زيبانجو انما يسمى بحر الصين (١) وهذا البحر الشرقى مترام بالغ السعة ، بحيث انه طبقا لما يرويه محنكة الربابنة والملاحين الذين يرتادونه ، لابد أنهم على بينة من حقيقة الأمر ، لا يحتوى أقل من سبعة آلاف وأربعمائة وأربعين جزيرة معظمها مأهول (٢) · ويقال انه ليس من الأشجار التى تنمو بها ، شجرة واحدة لا تتضوع بأزكى الروائح (٣) · وهى تنتج كثيرا من التوابل والعقاقير ، وبخاصة خشب الصبر والفلفل الذى ينمو بوفرة عظيمة بنوعيه الأبيض والأسود (٤) · ومن المحال تقدير قيمة الذهب والأشياء الأخرى التى يعثر عليها بتلك الجزر ، بيد أن بعدها عن القارة سحيق ، كما أن الملاحة اليها محفوفة بمتاعب ومكاره شديدة بحيث ان السفن المستخدمة فى التجارة ، بين ميناءى زاى تون وكن ساى ، لا تجنى مكاسب كبيرة ، وذلك لاضطرارها الى استغراق سنة كاملة فى رحلتها ، حيث تبحر فى الشتاء وتعود فى الصيف · وذلك لأنه لا تهب فى هذه المناطق الا ريحان ، احداهما شتاء والأخرى أثناء فصل الصيف ، بحيث انهم مضطرون الى الاستفادة من الأولى فى رحلة الخروج ، ومن الثانية فى رحلة العودة الى الأوطان (٥) · وهذه الأقاليم سحيقة البعد عن قارة الهند · وينبغى لنا ،

أن ندرك تماما حين نسمى هذا البحر بحر الصين ، أنه جزء من المحيط ، وذلك لأنه كما نتحدث نحن عن البحر الانجليزى أو « بحر ايجه » ، فكذلك يتحدث أهل الشرق عن بحر الصين وعن بحر الهند ، بينما تدخل تلك البحار كلها تحت المصطلح العام وهو المحيط • وسنتوقف من الآن عن البحث فى شأن هذه الأقاليم والجزر ، بسبب شدة بعدها عن مجالنا ، فضلا عن أنى لم أزرها بشخصى ولأنها ليست تابعة لممتلكات الخان الأعظم • والآن نعود الى زاى تون •

الفصل الخامس

عن خليج كاينان وأنهاره •

اذا أنت غادرت ميناء زاى تون واتخذت اتجاها غربيا يميل نحو الجنوب ، مسافة خمس عشرة مائة ميل ، مررت على الخليج المسمى كاينان (١) ، الذى يمتد مسافة رحلة شهرين بحرا ، على امتداد شاطئه الشمالى ، الذى يؤلف حدود الجزء الجنوبى من ولاية مانجى ، ومن هناك الى حيث يقترب من أقاليم آنيا وتولومان ، وأقاليم أخرى كثيرة ورد ذكرها من قبل (٢) • ويوجد فى هذا الخليج حشد كبير من الجزر ، معظمها آهل جدا بالسكان (٣) ، ويجمع من البحر حول سواحلها قدر كبير من تبر الذهب ، فى الأماكن التى تصب فيها الأنهار مياهها • ويوجد هناك كذلك النحاس وأشياء أخرى كثيرة (٤) ، وفى هذه كلها تدور تجارة ، تزود فكيها كل جزيرة مثيلاتها بما لا تنتجه • وهم يتجرون أيضا مع أهل القارة ، مبادلين على ذهبهم ونحاسهم بما يحتاجون اليه من ضروريات • ويزرع القمح بوفرة أيضا فى معظم هذه الجزر • وهذا الخليج من شدة الاتساع ، وسكانه من الوفرة العددية ، بحيث يبدو كأنما هو عالم آخر •

الفصـــل الســادس

عن اقليم زيامبا ، وعن ملك ذلك الاقليم ، وعن تحوله الى تابع للخان الأعظم ·

الآن نعود الى الحديث عن موضوعنا السابق · عنـدما تغادر زاى تون وتبحر خمس عشرة مائة من الأميـال عبر ذلك الخليج، كما ذكر آنفا ، تصل الى بلاد تسمى زيامبا، وهي ذات أتساع عظيم وثروة (١) · ويحكمها ملوكها الوطنيون ولها لغتها الخاصة · والسـكان بها من عبدة الأوثان (٢) · وتدفع للخان الأعظم (٣) جـزية سـنوية من الفيلة وخشب الصبر ، وسنروى لكم مناسبتها وظروفهـا فيما بعـد (٤) وحوالى ١٢٢٦ صمم قبـلاى ، وقد تلقى بيانات عن عظيم ثراء هذه المملكة ، على ارسال قوة كبيرة ، تكون من الخيـالة والمشاة ، للقيام بفتحها(٥) وتم غزو البلاد وفقا لذلك بجيش جرار ، وضع تحت امرة أحد قواده يسمى صوجاتو · فلمـا أن شعرالملك، وكان اسمه أكامبال(٦)، وشيخا كبيرا علت به السنون ، بعـدم قدرته على المقاومة في ميدان القتال تلقاء قوات الخان الأعظم ، انســحب الى معـاقله الحصينة ، التى أورثته أمنا وسلامة ، وهناك دافع عن نفسه دفاع الأبطال · على أن المدن المفتوحة ، والمساكن القائمة عـلى السـهول ، اجتيحت فى نفس الوقت ودمرت تدميرا ، فلما أن أدرك الملك أن بلاده سيدمرها العدو عن آخرها أرسل السفراء الى الخان الأعظم بقصد أن يعرض عليه أنه وهو الشيخ المسن الذى ظل على الدوام محتفظا بممتلكاته فى حالة من الهدوء والسلم ،

حريص على انقاذهم من الدمار الذى يتهددهم ، وأنه راغب نظير سحب الجيش الغازى ، فى ان يدفع كل عام جزية تشريفية فخرية من الافيال والخشب الزكى الرائحة ٠ وعندما تسلم الخان الأعظم هذا الاقتراح ، أخذته الرحمة ، فأرسل من فوره الى صوجاتو يأمره بالتراجع من هناك بالقوة تحت امرته ، ووجهه الى فتح أقاليم أخرى ، وهو أمر نفذ بلا توان (٧) ٠ ومنذ تلك اللحظة داوم الملك على أن يرسل كل عام الى الخان الأعظم ، على صورة جزية ، مقدارا ضخما جدا من خشب الصبر(٨) مصحوبا بعشرين من أضخم وأجمل الأفيال التي توجد في نواحيه (٩) ٠ وعلى هذا النحو أصبح ملك زيامبا رعية للخان الأعظم ٠

والآن ، وقد قصصنا عليك ما سلف من أحداث ، فاننا سنذكر بعض الظروف المتعلقة بهذا الملك ومملكتـه ٠ ففى المقام الأول ينبغى ألا يفوت القارىء أنه لا يمكن أن تتزوج فتاة في مملكته ، حتى يبلوها الملك أولا ٠ فمن حظيت منهن بمرضاته ، احتفظ بها ردحا من الزمن ، فاذا صرفها الملك ، نفحها مبلغا من المال ، حتى تستطيع أن تحصل ، طبقا لمنزلتها الاجتماعية في الحياة على زيجة مناسبة ومجزية ٠ وزار ماركو بولو هذا المكان (١٠) فى عام ١٢٨٠ ، وكان للملك في تلك الفترة ثلاثمائة وستة وعشرون طفلا ، بين اناث وذكور ٠ فأما الذكور فقد برزوا فى ميدان القتال جندا بواسل ٠ وتكثر في البلاد الفيلة وخشب الصبر بوفرة ٠ وبها أيضا كثير من غابات الأبانوس ذات السواد الرائع ، ومنها تصنع قطع أثاث جميلة متنوعة (١١) ٠ على أنه ليس هناك طرف آخر يحتاج الى ذكر خاص ٠ واذ نغادر هذا المكان فاننا سنتحدث الآن عن الجزيرة المساة جاوة الكبرى ٠

الفصل السابع

عن جزيرة جاوة ·

اذا أنت أقلعت من زيامبا ، وأبحرت بين الجنوب والجنوب الشرقي مسافة خمس عشرة مائة من الأميال ، بلغت جزيرة ذات حجم كبير جدا تسمى جزيرة جاوة (١) ، وهي ، فيما يقرر بعض أحسن الملاحين علما ، أكبر جزيرة في العالم ، اذ يربو محيطها على ثلاثة آلاف ميل · وهي تحت سيادة ملك واحد فقط ، كما أن السكان لا يدفعون جزية لأية دولة أخرى · وهم عبدة أوثان والبلاد زاخرة بالسلع الثمينة · فالفلفل، وجوزة الطيب، وسنبل الطيب والخلنجان والكبابة الصيني والقرنفل وجميع الأنواع الأخرى الثمينة من التوابل والعقاقير هي من منتجات الجزيرة (٢) ، الأمر الذي يستدعي أن تزورها كثير من المراكب المحملة بالبضائع، التي تدر على أربابها مكاسب ضخمة · ويفوق مقدار الذهب الذي يجمع هناك كل تقدير وكل تصور · ومن هناك كان تجار زاى تون ومانجي بصفة عامة يستوردون ، ولا يزالون الى اليوم يستوردون من ذلك المعدن مقدارا ضخما ، ومن هناك ، أيضا يتم الحصول على الشطر الأكبر من التوابل التي توزع بكل أرجاء العالم (٣) · فأما عن أن الخان الأعظم لم يخضع هذه الجزيرة لسلطانه ، فهو لابد راجع الى بعد شقة الرحلة وأخطار الملاحة (٤) ·

الفصــــل الثامن

عن جزيرتي صوندور وكوندور ،
وعن اقليم لوتشاك ٠

عند رحيلك من جزيرة جاوة ، واتخــاذك في البحــر سبيلا بين الجنوب والجنوب الغربي ، مسافة سبعمائة ميل ، تلتقي بجزيرتين ، تسمى أكبرهما صوندور وتسمى الصغرى كوندور (١) ونظرا لأنهما كلتيهما خاليتان من السكان ، لم تعد هناك ضرورة لقول المزيد عنهما ٠

وبعد قطع مسافة خمسين ميلا من هذه الجزر ، في اتجاه جنوبي بشرق ، تبلغ ولاية فسيحة وغنية ، تشــكل جزءا من أرض القارة وتسمى لوتشاك (٢) ٠ وسكانها ممن يعبدون الأصنام ٠ ولديهم لغة خاصة بهم ، كما أن الذى يحــكمهم ملكهم الخاص ، الذى لا يدفع جزية لأى ملك آخــر ، اذ أن موقع البلاد يحميها من كل هجوم أجنبي ٠

ولو أمكن الهجوم عليها ، لما فات الخان الأعظم أن يضمها الى ممتلكاته ٠ وفي هذا الاقليم ينمو السابان Sappan ، أى خشب البريزيل بمقادير عظيمة ٠ والذهب موفور لدرجة لا تكاد تصدق ، والفيلة موجودة هي الأخرى كما أن قنائص الطراد بالكلاب أو الطيور موفورة ٠

ومن هنا تصدر جميع محارات (البورسلين) التى اذا حملت الى أقاليم أخرى ، تداولها الناس نقودا ، كما لوحظ

سابقا (٣) • وهم يزرعون هنا نوعا من الفواكه تسمى برتشي ، وهي تقارب الليمونة في حجمها ولها نكهة لذيذة (٤) •

وبعد هذه الظروف لا يكاد يوجد هناك شيء يستحق الذكر ، ما لم يكن ذلك مجرد القول بأن البلاد جبلية قفر ، لا يكاد الغرباء يطرقونها الا قليلا ، خاصة وأن الملك لا يشجع زيارتهم لها ، حتى تظل كنوزه وأسرار مملكته ، مجهولة من بقية العالم جهد الطاقة (٥) •

الفصــل التاســع

عن جزيرة بنتـــان ، وعن مملكة مالايور .

عند الرحيل من لوتشاك ، والمحافظة على اتجاه جنوبى على امتداد خمسمائة ميل ، تصل الى جزيرة تسمى بنتان(١) ، وهى جزيرة ساحلها غير آهل وغير منزرع ، ولــكن الغابات زاخرة بالأشجار ذات الأريج العطر . ويظل البحر بين ولاية لوتشاك وجزيرة بنتان هذه ، وهى مسافة طولها ستون ميلا ، ضحلا لا يزيد عمقه عن أربع قامات ، وهو عمق ضحل يضطر من يبحرون فيــه الى رفع دفاف ســفنهم (حتى لا تمس قعر البحر) (٢) . وبعد الابحار فى هذه الأميال الستين باتجاه جنوبى بشرق ، ثم التقدم ثلاثين ميلا بعد ذلك ، تصــل الى جزيرة هى فى ذاتها مملكة ، تســمى مالايور ، وهو أيضــا اسم مدينتها الكبرى (٣) . ويحكم هذا الشعب ملك كما أن له لغته الخاصة . والمدينة ضخمة جيدة العمارة . وتدور فيها تجارة جسيمة فى التوابل والعقاقير ، التى تزخر بهــا المنطقة بوفرة . ولم يعد يعن لنا شىء يستحق الذكر . واذا تقدمنا قدما من هناك فاننا سنتحدث الآن عن جاوة الصغرى .

الفصل العاشر

عن جزيرة جاوة الصغرى ·

اذا رحلت من جزيرة بنتان ، وأبحرت فى الاتجاه الجنوبى الشرقى مسافة مائة ميل تقريبا ، تبلغ جزيرة جاوة الصغرى (١) · ومع هذا فرغم أنها صغيرة وهو نعت يمكن أن يطلق عليها بالمقارنة الى غيرها ، فان محيطها لا يقل طوله عن ألفي ميل · وبهذه الجزيرة ثماني ممالك يحكمها ملوك بنفس العدد ، ولكل مملكة منها لغتها الخاصة ، المتميزة تماما عن لغات الممالك الأخرى جميعا · والقوم وثنيون · وهى تحتوى على كثرة موفورة من الثروات وجميع أنواع التوابل ، وخشب الصبر وخشب السابان (أو البريزيل) للصباغة وأنواع أخرى مختلفة من العقاقير (٢) ، التى لا تستورد الى بلادنا بسبب طول الرحلة وأخطار الملاحة ، ولكنها تجد طريقها الى ولايات مانجى وكاثاى ·

وسنعالج الآن على حدة كل ما يتصل بسكان كل من هاته الممالك ، ولكن لعل من الصائب ابتداء ملاحظة أن الجزيرة تقع متوغلة بشدة فى الاتجاه الجنوبى ، بحيث يصبح نجم الشمال (القطبى) غير مرئى بها (٣) · وزار ماركو بولو ستا من الممالك الثمانى ، ومن ثم فهو سيصفها ، ضاربا صفحا عن الاثنتين الأخريين ، اللتين لم تتح له فرصة مشاهدتهما ·

الفصل الحادى عشر

عن مملكة فيلتش ، بجزيرة جاوة الصغرى .

سنبدأ بمملكة فيلتش ، التى هى احدى الممالك الثمانى (١) . ومعظم سكانها وثنيون ، وان كان كثير ممن يقطنون مدن الموانى ، اعتنقوا الدين الاسلامى ، على يد تجار العرب الذين يترددون عليهم على الدوام (٢) . فأما من يسكنون الجبال منهم فيميشون عيش البهائم (٣) ، فهم يأكلون لحوم البشر ويتناولون ـ بغير تمييز بين الطاهر والنجس ـ كل أنواع اللحم الأخرى(٤) . ويوجهون عبادتهم الى أشياء متنوعة ، وذلك لأن كل فرد يعبد طوال يومه أول شيء يقع عليه ناظراه عندما ينهض من نومه فى الصباح(٥) .

الفصل الثانى عشر

عن المملكة الثانية المسماة مملكة باسمان .

عند مغادرتك المملكة الأخيرة ، تدخل مملكة باسمان(١)، وهي مملكة مستقلة عن بقية الممالك الأخرى ، كما أن لها لغتها الخاصة . ويدين الناس بالطاعة للخان الأعظم، بيد أنهم لا يدفعون له جزية ، فضلا عن أن بلادهم تبعد عنه بعدا سحيقا لا يتيسر معه ارسال قوات الى هذه المناطق . أجل ان الجزيرة بأكملها خاضعة له اسما ، وعندما تمر السفن هناك ، ينتهزون الفرصة فيرسلون اليه سلعا نادرة وتحفا عجيبة ، وبخاصة نوعا معينا من الصقور (٢) .

ويوجد بالبلاد كثير من الفيلة والخراتيت الضارية ، والأخيرة أصغر حجما بكثير من الفيل ، ولكن أقدامها متماثلة . ويشبه جلدها جلد الجاموس . ولها فى وسط الجبهة قرن وحيد ، ولكنها لا تؤذى بهذا السلاح من تهاجمه ، اذ لا تستخدم لهذا الغرض الا لسانها ، المسلح بأشواك طويلة وحادة ، كما تستخدم ركبها أو أقدامها ، وطريقة هجومها هى الدوس بأقدامها على الشخص ثم تمزيقه بلسانها (٣) ورءوسها تشابه رأس خنزير برى كما أنها تحمل الرأس منخفضا نحو الأرض . وهى تبتهج بالبرك الطينية ، وتتصف بعادات قذرة (٤) .

والحيوان ليس بذلك الوصف الشائع عنه من أنه من الحيوانات التي تستسلم للعذارى ، كما يعتقد النـاس في بلادنا • ولكن طبعه على نقيض هذا تماما (٥) •

وتوجد بتلك الناحية قرود منوعة الأصناف ، ونسـور في سواد الغربان ، وهي ذات حجم ضخم ، وتتابع طريدتها بأحسن وجه •

وينبغي أن يعلم الناس أجمعين أن ما يذاع حول الأجساد المجففة للكائنات البشرية المصغرة أو الأقزام المجلـوبة من الهند ، ان هو الا حديث خرافة وهراء ، اذ أن مثـل هـؤلاء الناس المزعومين انما يصنعون بهـذه الجزيرة صنعا عـلى الطريقة التالية : ان البلاد تنتج نوعا من القردة ، له حجـم لا بأس به ، وله سـحنة تشـبه وجه الانسـان • فيعمد من يتخذون صيدها عملا لهم ، الى حلق شعرها ، غير تاركين منه شيئا ، الا ما كان حول الذقن ، وفي المنـاطق الأخرى التي ينمو فيها الشعر بالطبيعة في الجسم البشرى •

وعندئذ يجففونها ويصبرونها بالـكافور وغـيره من عقاقير ، حتى اذا جهزوها بطريقة تكسبها مظهر رجال قصار القامة ، وضعوها في صـناديق من خشب وباعـوها لأهـل التجارة فيحملونها الى كل أرجاء العالم • ولكن الحق أن هذا انما هو مجرد خـداع ودجـل ، اذ الـواقع هـو ما شرحناه بالضبط ، ولم يحدث قط أن عثر الناس على الأقزام ـ لا ببلاد الهند ولا بأية بلاد أخرى مهما بلغ من توحشـها ، (وجهـل الناس بها) ، على مثل هذه الهيئة الحقيرة (٦) • وبحسبنا ما قيل عن هذه المملكة ، التي لم يعد فيها شيء آخر يستحق الذكر ، ونتحدث الآن عن مكان آخر يسمى سمارا •

الفصل الثالث عشر

عن المملكة الثالثة ، المسماة سمارا .

اذا غادرت باسمان ، دخلت مملكة سمارا (١) ، وهى مملكة آخرى بين الممالك التى تنقسم اليها الجزيرة . وأقام ماركو بولو بهذه المملكة خمسة أشهر ، تعطل أثناءها عن الحركة ، على غير رغبة منه تماما ، بسبب الرياح المضادة (٢) . ولا يمكن مشاهدة نجمة الشمال هنا ، ولا حتى النجوم التى فى الدب الأكبر (٣) والقوم هنا وثنيون ، ويحكمهم أمير قوى الشكيمة ، يعترف بنفسه تابعا اقطاعيا للخان الأعظم .

ولما كان من الضرورى مواصلة المكث على هذه الجزيرة زمنا طويلا ، فان ماركو بولو استقر على أرضها مع جماعة عدتها ألفا رجل تقريبا ، ودرأ لشر الأهالى المتوحشين ، الذين ينتهزون الفرصة للقبض على المشاة المنفردين وقتلهم ثم أكلهم ، أمر بأن يحفر حوله خندق عظيم وعميق من جهة البر ، بطريقة تجعل كل طرف من طرفى الخندق ينتهى فى الميناء الذى ترسو به السفن . وقوى هذا الخندق بابتناء عدة معاقل أو متاريس من الخشب ، حيث تيسر البلاد مددا ضخما من تلك المادة (الخشب) ، حتى اذا أصبح هذا الضرب من التحصين حاميا له ، تم له بذلك الاحتفاظ برجاله فى أمن مطلق أثناء الشهور الخمسة التى أقاموها . وبلغ من متانة الثقة التي امتلأت بها نفوس الأهالى أنهم زودوهم بمدد من

الأطعمة وغيرها من المواد الضرورية ، طبقا لاتفاق عقد معهم (٤) ٠

ولن تجد بأى مكان من العالم أسماكا للمائدة أبدع مما تجده هنا ٠ والقمح لا يزرع بالمملكة ، ولكن الناس يعيشون على الأرز ٠ ولا يصنعون خمرا ، على أنهم ينتجون من نوع من الشجر يشبه نخيل البلح شرابا ممتازا بالطريقة التالية : فانهم يقطعون جريدة من النخلة ويضعون مكانها وعاء يتلقى العصير وهو يتنزى من الجرح ويمتلىء الوعاء فى مدى يوم وليلة (٥) ٠

ويمتاز هذا الشراب بمزايا صحية عظيمة حتى انه ليزيل أوضار مرض الاستسقاء وكذا أوجاع الرئتين والطحال (٦) ٠ وعندما يرى الناس أن هذه الأفرع التى قطعت ، لم تعد تسح أى عصير ، يعمدون الى سقاية الأشجار، بجلب المياه الغزيرة الكافية لهذا الغرض من النهر فى أنابيب أو قنوات ، فاذا تم ذلك عادت العصارة الى النز مرة ثانية كما فعلت أولا (٧) ٠ وبعض أشجار ذلك النخيل تنتجه بالطبيعة بلون محمر وبعضها الآخر بلون باهت ٠ وينمو جوز الهند هنا أيضا ، فى حجم رأس الانسان ، ويحوى مادة صالحة للأكل حلوة لذيذة الطعم وبيضاء كاللبن ٠

وتجويف هذا القلب اللين ، مملوء بسائل فى صفاء الماء كما أنه بارد وأجمل نكهة وأرق تكوينا من النبيذ ، أو أى نوع آخر من الشراب على الأطلاق (٨) ٠ ويطعم الأهالي اللحم بجميع أنواعه ، الصالح والفاسد ، بغير تمييز ٠

الفصل الرابع عشر

عن المملكة الرابعة ، المسماة دراجويان •

ان دراجويان مملكة يحكمها أميرها الخاص ، ولها لغتها المميزة (١) ، وسكانها غير متمدينين وهم عبدة أوثان ، يدينون لسلطان الخان الأعظم بالطاعة • وهم يراعون هذه العادة الرهيبة ، متى أصيب أى فرد من أفراد العائلة بالمرض: ـ يرسل أقارب المريض فى طلب السحرة ، ويطلبون منهم ، عند قيامهم بفحص الأعراض ، أن يصرحوا اذا كان سيسترد عافيته أم لا • فيجيب هؤلاء السحرة ، حسبما توحى اليهم الأرواح الشريرة اما بأنه سيبرأ واما بضد ذلك • فاذا كان القرار انه لا يمكن أن يشفى ، دعا الأقارب رجالا معينين ، وظيفتهم التى يتمونها بغاية المهارة ، أن يطبقوا على فم المريض ويكتموا أنفاسه حتى يفطس • فاذا تم ذلك قطعوا الجسد اربا ، ليجهزوه طعاما لهم ، فاذا تم اعداده على هذا النحو ، اجتمع الأقارب والتهموه كله فى قصف وبهجة ، غير تاركين منه شيئا حتى نخاع العظام • اذ لو ترك جزىء واحد من الجسم ، لولد الهوام ، فيما يرون ، فان هذه الهوام تموت، لافتقارها الى الغذاء بعد ذلك ، ويكون موتها سببا فى انزال عقاب محزن بروح المتوفى •

وبعد هذا يتحولون الى جمع العظام ، حتى اذا أودعوها صندوقا صغيرا جميلا ، حملوها الى غار فى الجبال ، تكون فيه بمأمن من كل ازعاج من الحيوانات الضارية • واذا هم تمكنوا من القاء القبض على أى شخص لا ينتسب الى حيهم، ولا يستطيع دفع فديته ، قتلوه والتهموه •

الفصل الخامس عشر

عن المملكة الخامسة المسماة لامبرى ٠

للامبرى بالمثل أيضا ملكها الخاص ولغتها المميزة (١) : والقوم يعبدون الأصنام أيضا ، ويسمون أنفسهم تابعين اقطاعيين « Vassals » للخان الأعظم ٠ وتنتج البلاد القرزينو (وهو خشب البريزيل أو السابان) بوفرة عظيمة (٢) ، بقدر ما تنتج الكافور مع عدة أنواع أخرى من العقاقير (٣) ٠ وهم يبذرون بذور نبات يشابه السابان ، فاذا شب وشرع ينبت الأفرع ، نقلوه الى بقعة أخرى ، حيث يترك مدة ثلاث سنوات ٠ ثم ينتزع من جذوره ويستخدم صباغا (٤) وأحضر ماركو بولو بعض بذور هذا النبات الى البندقية وزرعها هناك ، ولكن نظرا لأن المناخ هناك ليس دافئا بدرجة كافية ، فان واحدة منها لم تنبت ٠

وبهذه المملكة أناس بذيول ، طولها شبر ، كذيل الكلب ، ولكنها ليست مغطاة بالشعر ٠ والغالبية العظمى منهم مخلوقون على هذا الشكل ، ولكنهم يسكنون الجبال ولا يقيمون فى مدن (٥) والخرتيت حيوان يشيع وجوده فى الغابات ، كما أن هناك أعدادا وفيرة من جميع أصناف الصيد ٠ ما بين بهائم وطير ٠

الفصل السادس عشر

عن المملكة السادسة ، المسماة مملكة فانفور ، حيث يحصل على دقيق من شجرة معينة .

ان فانفور مملكة بنفس الجزيرة (١) ، يحكمها أميرها الخاص . وهناك يعبد الناس الآصنام بالمثل أيضا ، ويدينون بالطاعة للخان الأعظم . وينتج بهذا الجزء من الاقليم ، نوع من الكافور ، يفوق كثيرا كل ما عداه من الأنواع . وهو يسمى كافور فانفور ، كما أنه يباع بما يعادل وزنه من الذهب (٢) .

وليس هناك قمح ولا أى نوع أخر من الحبوب ، وانما طعام السكان هو الأرز ، مع اللبن والخمر المستخرج من الأشجار على الطريقة التى سبق وصفها عند الحديث عن سمارا . ولديهم أيضا شجرة يستخرجون منها بطريقة فريدة ، ضربا من الدقيق (٣) وساقها باسق ويبلغ من شدة غلظه أن محيطه قد يستطيع تحويطه رجلان . فاذا نزع عن عن هذه الشجرة لحاؤها الخارجى ظهر أن المادة الخشبية تعادل فى سمكها ثلاث بوصات ، وأن الجزء الأوسط ملىء بنخاع أو لب يعطى دقيقا ، يشابه ما يستخرج من جوز البلوط (٤) .

ويوضع ذلك اللب أو النخاع فى أوان مملوءة بالماء ، ويحرك بعصى ، حى تعلو الى السطح جميع الألياف وغيرها من الشوائب ويهبط الى القاع الجزء الدقيقى النقى . فاذا

تم ذلك دلق الماء • ويعد الدقيق الذى يتبقى ، وقد تجرد من كل المواد الغريبة ، للاستخدام بتحويله الى كعك وانواع مختلفة من الفطائر (٥) •

واكل ماركو بولو مرارا عديدة من هذا الطعام ، الذى يكاد يشبه الخبز في مظهره وطعمه ، كما أحضر بعضا منه الى بلاده البندقية (٦) ان خشب الشجرة ، الذى يبلغ سمكه ثلاث بوصات تقريبا (كما سبق أن ذكرنا) ، يمكن ان يشبه بالحديد من هذه الناحية ، فانه متى آلقى فى الماء غطس فورا • وهو قابل للشق فى اتجاه متساو من طرف الى آخر ، مثل قصب الخيزران • ويصنع الأهالى من هذا حرابا قصيرة : ولو أنها صنعت ذات طول كبير أيا كان، لجعلها ثقلها مستحيلة الحمل أو الاستخدام • ثم انهم يشحذونها من أحد طرفيها ويجعلونها بالنار شديدة الصلابة ، حتى لتصبح قادرة على اختراق أى نوع من الدروع ، كما أنها تفضل الحديد من كثير من الأوجه (٧) • وبحسبنا الآن ما قلناه حول موضوع هذه المملكة (التى هى أجزاء الجزيرة) • ولن نتحدث عن الممالك الأخرى التى تؤلف الأجزاء الباقية ، لأن ماركو بولو لم يزرها • فاذا تقدمنا أماما ، انتقلنا بعد هذا الى وصف جزيرة صغيرة تسمى نوكويران •

الفصل السابع عشر

عن جزيرة نوكويران •

عند انصرافك من جاوة (الصغرى) ومملكة لامبرى ، وابحارك ما يقارب مائة وخمسين ميلا ، تلتقى بجزيرتين ، تسمى احداهما نوكويران (١) ، والثانية انجامان • وليست نوكويران تحت حكم ملك ، وشعبها لا يبعد الا قليلا عن حال البهائم ، اذ يمضون جميعا عراة الأجسام اناثا كانوا أم ذكورا ، لا يستر أى جزء من أجسامهم شيء • وهم وثنيون • تزخر غاباتهم بأبسق الأشجار وأثمنها ، مثل الصندل الأبيض والأحمر ، والأشجار الى تحمل ثمار جوز الهند والقرنفل وخشب السابان (أو البريزيل) ، هذا الى أن لديهم مجموعة متنوعة وكبيرة من العقاقير (٢) واذ نواصل المضى فى سبيلنا، فاننا سنتحدث عن أنجامان •

الفصل الثامن عشر

عن جزيرة آنجامان ·

ان انجامان جزيرة كبيرة جدا ، لا يحكمها ملك (١) · والسكان وثنيون ، كما أنهم جنس بهيمي ومتوحش الى أقصى حد ، ولهم رؤوس وعيون وأسنان تشابه ما للفصيلة الكلبية (٢) · وهم قساة بفطرتهم، وكل من أمكنهم أن يضعوا عليه أيديهم من غير بني أمتهم صرعوه وأكلوه · ولديهم مقادير وفيرة وأنواع عديدة من العقاقير · وطعامهم الأرز واللبن واللحم بجميع أوصافه وأصنافه · ولديهم من الثمار جوز الهند وتفاح الجنة (٣) ، وفواكه أخرى كثيرة تختلف عما ينمو من فاكهة بلادنا ·

الفصل التاسع عشر

عن جزيرة زيلان ٠

اذا أنت ارتحلت عن جزيرة انجامان ، واتخذت فى البحر سبيلا يتجه نحو جنوب الغرب ، طوله ألف ميل ، ظهرت لك جزيرة زيلان (١) ٠ والجزيرة ـ بسبب ما هى عليه من حجم ـ أفضل ظروفا من أية جزيرة أخرى فى العالم ٠ ويبلغ طول محيطها ألفين وأربعمائة ميل ، ولكنها كانت فى العصور القديمة أكبر من هذا ، حيث كان مقياس محيطها آنذاك ثلاثة آلاف وستمائة ميل بالتمام ، كما تقول الخريطة السالمية Mappa Mundi على أن العواصف الشمالية التى تهب بقوة وعنف عارم ، أكلت الجبال بالتحات والتعرية حتى لقد سقطت فى بعض أجزائها وغاصت فى البحر ، كما ان الجزيرة لم تعد تحتفظ لهذا السبب بحجمها الأصلى ٠

ويحكمها ملك اسمه سنبرناز (٣) ٠ والناس بها يعبدون الأوثان ويعيشون فى إستقلال عن كل دولة أخرى ٠ ويمضى الرجال والنساء كلاهما فى حالة عرى تقريبا حيث يقتصرون فقط على لف قماشة حول المنطقة الوسطى من أجسامهم (٤)٠

وليس لديهم حبوب عدا الأرز والسمسم الذى يستخرجون منه الزيت ٠ ويتألف طعامهم من اللبن والأرز واللحم ، كما أنهم يشربون الخمر المستخرجة من الأشجار ، وهى الخمر التى سبق وصفها آنفا (٥) وهنا يوجد أيضا خير ما فى العالم من أنواع خشب السابان (البريزيل) ٠ وتنتج الجزيرة

ياقوتا أجمل وأثمن مما يعثر عليه بأية جهة فى العالم ، وكذلك الصافير (اى الياقوت الازرق) والتوباز والجمشت والعقيق الاحمر ، وكذا انواعا اخرى كثيرة من الاحجار الكريمة والثمينة (٦) •

ويقال ان الملك يمتلك أعظم ياقوتة شوهدت فى العالم، وهى جوهرة طولها شبر ، فى غلظ ذراع الانسان ، وهى صقيلة براقة على نحو يتجاوز كل وصف ، وهى مبرأة من كل عيب ، وتبدو كأنما هى نار متوهجة(٧) وهى على الجملة، ثمينة جدا حتى ليتعذر تقويم قيمتها بالمال • وأرسل الخان الأعظم ، قبلاى ، السفراء الى هذا العاهل يناشده أن يمنحه ملكية هذه الياقوتة ، على أن يدفع اليه فى مقابلها ما يعادل قيمة مدينة •

فكان جوابه على النحو التالى : « انه لن يبيعها ولو دفعت اليه جميع كنوز العالم ، كما أنه لا يسمح بأية حال أن تفارق مملكته ، لأنها جوهرة سلمها اليه أسلافه فى العرش » (٨) ، وبهذا أخفق الخان الأعظم فى الحصول عليها •

وسكان هذه الجزيرة ليسوا بحال رجال حرب ، ولكنهم على نقيض ذلك أذلاء جبناء (٩) فاذا أوجبت الظروف استخدام الجند ، حصلوا عليهم من دول أخرى مجاورة من بين أفراد المسلمين • والآن ولم يعد هناك • أى شىء آخر يستحق الذكر ، فاننا سنتجاوزها للحديث عن ما أبار •

الفصل العشرون

عن ولاية ما أبار ·

ق ١ : بعد مغادرة جزيرة زيلان ، والابحار غربا ستين ميلا (١) ، تصل الى ولاية ما أبار الكبيرة (٢) التى ليست جزيرة ، بل جزء من قارة الهند الكبرى ، كما يسمونها ، وهى أعظم وأغنى أقطار العالم طرا · ويحكمها أربعة ملوك يسمى الرئيس منهم سندرباندى (٣) ·

وتقع فى ممتلكاته منطقة لصيد اللؤلؤ ، فى الخليج الذى يقع بين ما ابار (المعبر) وجزيرة زيلان (٤) ، حيث لا يزيد عمق الماء فيه عن عشر قامات الى اثنتى عشرة قامه ، كما أنه لا يزيد فى بعض الأماكن عن قامتين (٥) · وتجرى عملية صيد اللؤلؤ على الطريقة التالية : فيشكل جماعة من التجار من أنفسهم شركات منفصلة ، ويستخدمون سفنا وزوارق كثيرة مختلفة الأحجام، مزودة أحسن تزويد بالحبال والخطافات والبكرات حتى يستطاع اعتلاؤها بأمان وقد ألقت مراسيها(٦)· وهم يستخدمون ويحملون معهم أشخاصا برعوا فى فن الغوص على المحار الذى يحوى اللآلىء · فيصعدون الى سطح الماء عندما لا يستطيعون كتم أنفاسهم لمدة أطول، ثم يعودون الى الغوص ثانية بعد فترة وجيزة(٧)· ويواصلون العمل فى هذه العمليات طوال اليوم كله ، ويجمعون بما يبذلون من جهود (فى مدى الموسم) كمية من المحار كافية لتزويد جميع الأقطار بمطالبها (٨) · والنسبة العظمى من اللؤلؤ المجلوب من المصايد فى هذا الخليج

مستديرة وذات بريق جيد • والبقعة التي يؤخذ منها المحار بأعظم عدد ، تسمى بتالا ، وتقع على شاطىء القارة الهندية. ومن هناك تمتد المصايد ستين ميلا نحو الجنوب (٩) •

ونظرا لأن الخليج مملوء بنوع من السمك الكبير ، الذى كثيرا ما يهلك الغواصين ، فان التجار يحتاطون بأن يصطحبوا معهم جماعة من السحرة تنتسب الى طائفة من البراهمة ، لهم القوة بواسطة فنهم الشيطانى على كبح هذه الأسماك وتخبيلها ، وبذا يمنعونها من انزال أى أذى(١٠)•

ونظرا لأن الصيد لا يتم الا نهارا فقط فانهم يوقفون أثر السحر فى المساء ، حتى لا يقدم غير الأمناء من الأشخاص، ممن يجنحون الى انتهاز فرصة الغوص ليلا وسرقة المحار ، على الغوص لما بداخلهم من خوف من التدمير غير المحدود الذى تحدثه هذه الحيوانات (١١) •

وهؤلاء السحرة يعدون بالمثل بارعين مهرة فى فن شل حركة جميع أنواع الحيوانات والطيور وسلبها القدرة على الهرب • ويبدأ موسم الصيد فى شهر أبريل ، ويستمر حتى منتصف مايو (١٢) •

وامتياز الاشتغال بالمصايد يعطى على صورة « التزام » من الملك ، الذى لا يحصل الا على عشر الناتج فقط ، أما السحرة فيحصلون على واحد من عشرين ، وبالتالى فانهم يحتفظون لأنفسهم بربح جسيم (١٣) • حتى اذا انتهت المدة المذكورة أعلاه تكون كمية المحار استنفدت ، وعندئذ تؤخذ السفن الى مكان آخر ، يبعد ثلاثمائة ميل كاملة عن هذا الخليج ، حيث يوطن القوم أنفسهم فى شهر سبتمبر ، ويواصلون العمل حتى منتصف أكتوبر (١٤) ، وفضلا عن

عشر اللآلىء التي هى حق للملك فانه يحتم أن يكون له الاختيار في كل كبيرة الحجم منها منتظمة الشكل، ولأنه يدفع ثمنها بسخاء ، لا يكره التجار أن يحملوها اليه لذلك الغرض (١٥) ٠

ق ٢ : يسير سكان هذا الجزء من البلاد عراة لا يستر أجسامهم الا قطعة من قماش يغطون بها ما يحتم الاحتشام تغطيته من أجزاء الجسم (٦) ٠ وليس الملك بأكثر استتارا من سائر رعيته ، لولا أن له قطعة قماش أغلى ، ولكنه يتميز عن غيره بصورة فاخرة بما يتزين به من مختلف أنواع الزينة مثل ياقة مرصعة بالجواهر مثل الصفيرى (Sapphires) والزمرد والياقوت الأحمر ، ذات القيمة الطائلة ٠

كما أنه يلبس – معلقا في عنقه ومتدليا الى صدره – سمطا حريريا دقيقا يضم مائة وأربع جمانات ، والجمانة (لؤلؤة) وياقوتة كبيرة وجميلة ٠ ومرد هذا العدد المعين ، هو أنه مطالب بحكم سنن دينية أن يكرر صلاة أو يدعو دعاء ، بقدر هذا العدد كل يوم ، تزلفا لآلهته ، وهو ما لم يفت أسلافه أن يفعلوه مطلقا (١٧) ٠

ويتألف الدعاء اليومى (أى الصلاة) من هذه الكلمات باكوكا باكوكا باكوكا ، التى يكررونها أربعا ومائة مرة ٠ وهو يلبس في كل ذراع ثلاث أساور ذهبية مزينة باللؤلؤ والجواهر ، ويضع على ثلاثة أجزاء من الساق أشرطة ذهبية مرصعة بنفس الطريقة ، كما يضع فى أصابع قدميه ، فضلا عن أصابع يديه ، خواتم لا تقدر بثمن (١٨) ٠ الحق ان من أيسر الأمور على هذا الأمير اتخاذ مثل هذه الرموز والحلى الملكية الفاخرة ، وذلك لأن الجواهر واللآلىء كلها من انتاج بلاده (١٩) ٠

وله عـلى الأقل ألف من الزوجات والاماء ، ومتى رأى امرأة أعجبه جمالها ، عبر فورا عن رغبته فى احتيازها • فوضع بتلك الطريقة يده على زوجة أخيه ، ونظرا لأنه كان رجلا حكيما راجح العقل ، فانهم أقنعوه بألا يجعل من ذلك مثار خلاف ، وان أوشك عدة مرات أن يحتكم الى السلاح •

وكانت أمهما تعترض عليهما محتجة فى تلك الحالات ، وتكشف عن ثدييها قائلة : « ان أنتمـا يا ولدى ، حقرتما نفسيكما بالشقاق والعداء بينكما ، فانى سأقطع على الفور من جسمى هذين الثديين اللذين أرضعاكما » وهـكذا كان الانفعال يذهب ويهدأ •

ويحتفظ الملك حول شخصه بكثير من الفرسان ، يميزون بتسمية معناها « خدام الملك المخلصون ، فى هذه الدنيا وفى الدار الآخرة » • وهم يحيطون بشخصه فى البلاط ، ويركبون الى جانبه فى المواكب ، ويرافقونه فى كل المناسبات • ولهـم سلطان ونفوذ كبير بكل أرجاء المملكة • وعنـد وفاة الملك ، وعندما يقام حفل احراق بدنه ، يلقى جميع هؤلاء الخدام المخلصون بأنفسهم فى النار عينها ، ويحترقون مع الجثـة الملكية ، وذلك بقصد أن يكونوا فى صحبته فى حياة أخرى تالية (٢٠) •

وتنتشر بين القوم العادة التالية أيضا : فاذا مات ملك ، لم يتعرض ابنه الذى يخلفه للكنوز التى جمعها سلفه ، أخذا بفكرة : هى أن تلك الكنوز ستنعكس على قدرته فى الحكم ، اذا هو لم يظهر ــ متى تهيأ له امتلاك البلاد بأكملها ــ قدرته على ملء الخزائن كما فعل أبوه من قبل • ونتيجة لهذه الفكرة المتسلطة ، فمن المفروض أن الأجيال المتعاقبة تجمع ثروات طائلة •

واذ أن الخيل لا تربى بهذه الأقطار ، فان الملك واخوته الأمراء الملكيين الثلاثة ينفقون مبالغ كبيرة من المال كل عام

في شرائها من تجار من هرمز وديوفار (ظفار) وبتشر وأدم (عدن) ، يحملون تلك الخيل الى هناك ليبيعوها ، ويصبحون أثرياء من تلك التجارة ، وذلك لأنهم ينقلون ما تصل عدته الى خمسة آلاف حصان ، يحصلون في الواحد منها على خمسمائة ساجي من الذهب ، وهي تعادل مائة مارك من الفضة • وعند نهاية السنة ، وربما لم يظل من هذه الخيول على قيد الحياة ثلاثمائة ولعل ذلك يجيء نتيجة ــ فيما يظن ــ لعدم توفر أشخاص أوتوا أهلية للعناية بها أو لاعطائها الأدوية المناسبة ، ومن هنا تنشأ الحاجة الى تعويض ما فقد منها بغيرها كل عام (٢٢) على أنه في رأيي أن مناخ المنطقة غير مناسب لجنس الخيل، وأن ذلك هو مرد صعوبة استيلادها أو الاحتفاظ بها •

وهم يطعمونها اللحم المجهز بالأرز ، وغير ذلك من اللحوم المجهزة (٢٣) وذلك نظرا لأن البلاد لا تنتج حبوبا أخرى عدا الأرز • والفرس هنا ، وان كانت ضخمة الجسم وغشيها حصان كبير لا تنتج الا « فلوا » صغير الحجم مشوها ، بأرجل كسيحة كما أنه غير لائق للتدريب على الركوب •

وتنتشر في هذا المكان هذه العادة العجيبة : فعندما يعلن رجل ارتكب جريمة ، حوكم عليها وحكم عليه بالاعدام رغبته ، وهو يقاد الى ساحة الاعدام ، في التضحية بنفسه لصنم من الأصنام ، يضعه أقاربه وأصدقاؤه على الفور فوق ضرب من الكراسي ويسلمونه اثنتي عشرة سكينا مشحوذة من جيد الفولاذ • ثم يطوفون به على هذا الوضع في أرجاء المدينة ، معلنين بأعلى صوت ، أن هذا الرجل الشجاع على وشك التضحية بنفسه في ميتة تطوعية بدافع الحماية لعبادة الوثن •

وعند الوصول الى المكان الذي كان سينفذ فيه حكم القانون يتناول اثنتين من السكاكين واذ يصرخ قائلا : « اني

أقدم نفسى للموت تكريما لهذا الوثن » ، فانه يسارع باغماد واحدة منهما فى كل فخذ ، ثم يغمد واحدة فى كل ذراع ، واثنتين فى كرشه واثنتين فى صدره • حتى اذا تم له على هذا النحو إغماد جميع السكاكين ــ عدا واحدة ــ فى أجزاء مختلفة من جسمه ، مكررا كل جرح الكلمات التى سبق ذكرها ، أغمد الأخيرة منها فى قلبه فيفارق الحياة على الفور (٢٤) •

وما يكاد هذا المشهد يؤدى حتى يقبل ذوو قرباه ، متهللين فرحين فرحا عظيما ، ليحرقوا الجثة ، وعندئذ تقدم زوجته ، بدافع التقوى الحافلة والاعتبار لزوجها ، على القاء نفسها فى النار ولا تلبث حتى تحترق معه • والمجتمع يهلل ويكبر كثيرا للنساء اللائى يبدين هذا العزم ، كما أن من يحجمن عن اتيانه يلقين الاحتقار والذم (٢٥) •

ق ٣ : تبدى الغالبية العظمى للسكان الوثنيين بهذه البلاد اجلالا خاصا للثور ، ولن يستطاع ــ تحت أى اعتبار ــ حمل واحد منهم على تناول لحم الثيران (٢٦) • على أن هناك جماعة معينة من الناس تسمى الجاوى ، الذين لا يجرءون على ذبح الحيوان وان جاز لهم تناول لحمه ، ولكن شعب الجاوى اذا وجدوا جثة لحيوان ، سواء مات ميتة طبيعية أم غير ذلك ، أكلوا منه (٢٧) ، كما أن جميع الناس يجصصون بيوتهم بطبقة من جلة (بفتح الجيم) البقرة (٢٨) وطريقتهم فى الجلوس هى على بسط مفروشة على الأرض ، واذا هم سئلوا لماذا يجلسون على تلك الشاكلة أجابوا أن الجلوس على الأرض شرف ، وأنه كما أننا نشأنا من الارض ، فاننا كذلك عائدون اليها ، وأن أحدا لن يستطيع أن يفيها حقها من الاكرام فما بالك أن يقدم امرؤ على احتقارها • وهؤلاء « الجاوى » وجميع قبيلتهم هم أحفاد الذين ذبحوا القديس توما الرسول ، وبناء على هذا لا يستطيع فرد منهم دخول المبنى الذى يرقد فيه جسد الرسول المبارك ، ولو استخدمت قوة عشرة رجال

أولى بقية فى حمله الى الموضع ، اذ تصده القوة الخارقة للجسمان المقدس (٩٢) ٠

والبلاد لا تنتج من الحبوب الا الأرز والسمسم (٣٠) ويخرج الناس للقتال بالرماح والتروس ، ولكن بغير ثياب تسترهم ، كما انهم شعب حقير غير حربى (٣١) ٠ فهم لا يذبحون ماشية ، ولا أى نوع من أنواع الحيوان ليقاتلوا به ، ولكنهم عندما يرغبون في تناول لحم الغنم أو غيرها من الدواب ، أو الطيور ، لجأوا الى العرب الذين لا يخضعون لنفس الشرائح والعادات ـ لكي يؤدوا لهم تلك المهمة (٣٢) ويغتسل النساء والرجال جميعا ، بالماء مرتين يوميا أى فى الصباح والمساء ٠ وهم لا يأكلون ولا يشربون حتى يتم لهم هذا الاغتسال أو الوضوء ، ومن أهمل هذا الطقس ، يعد هرطيقا كافرا (٣٣) ٠

وينبغى أن يلاحظ أنهم فى تناولهم الطعام لا يستخدمون الا اليد اليمنى فقط ، كما انهم لا يمسون طعامهم باليسرى أبدا ٠ وهم يستخدمون يدهم اليمنى فى كل عمل نظيف ورقيق ، ويحتفظون بالثانية للأغراض المنحطة من التطهير البدنى وغير ذلك من الأعمال المتصلة بالوظائف الحيوانية ٠ وهم يشربون من نوع معين من الأوعية ، على أن يشرب كل فرد من انائه ، ولا يستخدم مطلقا اناء شخص آخر ولا يلصقون الاناء بأفواههم ولكن يرفعونه فوق الرأس ، بغير أن يسمحوا للاناء بأية حال أن يمس الشفتين (٣٤) واذا هم قدموا شرابا الى غريب لم يسلموه اناءهم ، ولكن ان هو لم يكن له وعاء خاص به ، صبوا الخمر أو أى شراب آخر فى يديه فيشربه منهما ، كأنما هما كأس (٣٥) ٠

والجرائم فى هذه البلاد ، تعاقب بعدالة دقيقة ، تضرب بها الأمثال ، أما فيما يتعلق بالمدنيين ، فتنتشر العادات التالية : اذا كرر دائن مطالبة مدينة بالسداد ، فسوف المدين

من وقت لآخر بالوعود الكاذبة ، أمكن للدائن ربط المدين برسم دائرة حوله ، فلا يستطيع منها خروجا حتى يرضى دائنه ، اما بالدفع أو بتقديم ضمانات كافية · فان هو حاول الفرار من الدائرة ، جعل نفسه عرضة لعقوبة الموت ، بوصفه خارقا لقواعد العدالة (٣٦) · وتصادف أنه عندما كان السير (السيد) ماركو بهذا القطر أثناء عودته الى وطنه ، شهد بعين رأسه مصافقة غريبة من هذا القبيل ·

فقد كان الملك مدينا بمبلغ من المال لأحد التجار الأجانب ، ومع أن التاجر كثيرا ما ألح عليه فى الدفع ، فانه ظل يمطله زمنا طويلا جدا بوعود وتأكيدات باطلة ·

وبينما الملك ممتط جواده ذات يوم ، انتهز التاجر الفرصة فرسم دائرة حوله هو وحصانه · وما أن أدرك الملك ما تم فعله حتى توقف فورا عن المسير ، كما أنه لم يتحرك من مكانه حتى تمت تلبية جميع مطالب التاجر · وشهد المارة المتفرجون ما جرى بكل اعجاب وأعلنوا أن الملك يستحق لقب « الأبلغ عدالة » ، عندما خضع هو نفسه لقوانين العدالة ·

ويمتنع هؤلاء القوم عن تناول الخمر المصنوع من العنب ، واذا اتهم واحد منهم بذلك ، عد من سوء السمعة ، بحيث لا تقبل شهادته فى المحاكم (٣٧) وهناك تحيز مماثل لهذا يستشعره الناس ضد الأشخاص الذين ينتابون البحر ، الذين هم ـ فيما يلاحظون ـ قوم ذوو حظوظ محفوفة بالتهور ، وينبغى ألا تقبل شهادتهم وهم على هذا الوصف (٣٨) ، وهم لا يرون فى الزنى جريمة · وحرارة البلاد مفرطة ، ولذا يسير الأهالى عراة الأجسام · وليس هناك مطر الا فى شهور يونية ويوليو وأغسطس ، فلولا البرودة التى يجلبها المطر أثناء تلك الأشهر الثلاثة لكان من المستحيل تحمل الحياة (٣٩) ·

ويوجد بهذه البلاد كثير من المهرة فى العلم المسمى « علم الفراسة Physiognomy » الذى يعلم المعرفة بطبيعة الناس وصفاتهم ، وهل هم ميالون الى الخير أو الشر • ويتم تمييز تلك الصفات فورا طبقا لمظهر وشكل الرجل أو المرأة • كما أنهم يعرفون أيضا كل ما تتكهن به الأحوال من حوادث تبعا لملاقاتهم أنواعا معينة من البهائم والطيور •

ويهتم هؤلاء الناس بطيران الطيور اهتماما يفوق اهتمام أى شعب آخر فى العالم ، ومنها يتكهنون بحظ سعيد أو سيىء (سانح أو بارح) • وفى كل يوم من أيام الاسبوع ساعة يعدونها نحسا مشئومة ،ويسمونها تشوياتش choiach (٤٠)، وعلى هذا النحو مثلا ، تكون فى يوم الاثنين ساعة (صلاة) الضحى mi-tierce ، وتكون فى يوم الثلاثاء ساعة الظهيرة Tierce وفى يوم الأربعاء ساعة العصر (None) (٤١)، وفى تلك الساعات لا يأتون شراء ولا بيعا ، ولا يقومون بأى نوع من أنواع المعاملات ، لاقتناعهم بأن النجح لن يكون حليفا لهذه الصفحات• وعلى هذا النحو يتحققون من خواص كل يوم من الأيام على مدار السنة وهى خواص يصفونها ويدونونها فى كتبهم (٤٢) •

وهم يحددون الساعة من النهار بواسطة طول ظل الرجل عندما يقف منتصب القامة (٤٣) •

وعندما يولد طفل ، ذكرا كان أو أنثى ، يدون الأب أو الأم مذكرة مكتوبة باسم اليوم من الأسبوع الذى حدثت فيه الولادة ، وكذلك بعمر القمر ، واسم الشهر وساعة النهار • ويتم هذا لأن كل عمل من أعمال حياتهم فى المستقبل انما ينظمه علم التنجيم •

وبمجرد أن يبلغ الابن الثالثة عشرة من عمره ، يطلقون له الحرية ، ولا يسمحون له بعد ذلك بأن يظل مقيما بمنزل

أبيه ، ويسنحونه مبلغا يصل ، فى عملتهم ، الى ما يتراوح بين عشرين غروتا الى أربعة وعشرين • ومتى زودوه بهذا المبلغ ، اعتبروه قادرا على اكتساب عيشه ، بالاشتغال فى أية حرفة ، يستطيع الحصول منها على كسب • ولا يكف هؤلاء الصبيان عن الجرى هنا وهناك فى كل الاتجاهات طوال اليوم كله ، حيث يشترون سلعة من مكان ويبيعونها فى آخر(٤٤)•

وفى موسم صيد اللؤلؤ ، يكثرون من ارتياد الشاطىء ، ويشترون من الصيادين أو من غيرهم ، خمس لآلىء(صغيرة) أو ستا أو أكثر ، حسب ما تسمح به مواردهم ، حيث يحملونها بعد ذلك الى التجار ، الذين يلازمون بيوتهم لشدة حرارة الشمس ، فيقولون لهم : « كلفتنا هذه اللآلىء كذا ، فاسمحوا لنا فيها بمكسب ترونه معقولا » • فيقدم اليهم التجار عندئذ شيئا يتجاوز الثمن الذى دفع فيها وتم به الحصول عليها •

وعلى هذه الشاكلة يتاجرون بالمثل فى سلع كثيرة أخرى ويصبحون متجرين ممتازين بالغى الكفاية • فاذا انتهت معاملات اليوم ، حملوا الى أمهاتهم المؤن والأطعمة اللازمة لطعامهم ، فيجهزنها لهم ، ولكنهم لا يتناولون على الاطلاق شيئا على حساب والديهم •

ق ٤ ـ : وتختلف جميع البهائم والطير ، ليس فقط فى هذه المملكة ، بل وأيضا بالهند بصفة عامة ، عن مثيلاتها ببلادنا ، فيما عدا السمانى ، التى تماثل مثيلاتها عندنا تماما ، فأما ما خلاها فكلها مختلفة(٤٥) • وبالبلاد خفافيش (وطاويط) تصل الى حجم النسور ، ونسور فاحمة كالغربان وأكبر كثيرا من نسورنا • وطيرانها سريع ، ولا يمكن أن يفوتها الامساك بقناثصها من الطيور (٤٦) •

وتوجد بمعابدهم أصنام كثير ، تمثلهم أشكالهم بصورة الذكور والاناث ، والى هؤلاء يهب الآباء والأمهات بناتهم •

فاذا تم اهداؤهن على هذا النحو ، كان المتوقع منهن ان يحضرن كلما طلبهن قساوسة الدير للاسهام فى ارضاء الوثن ، فيدلفن الى هناك فى مثل تلك المناسبات ، وهن يغنين ويلعبن على الآلات ، ويضفن البهجة بحضورهن تلك الاحتفالات • وهؤلاء الشابات كثيرات العدد جدا ويؤلفن جماعات كبيرة (٤٧) • وهن يحملن عدة مرات فى كل اسبوع قربانا من الاطعمة الى الصنم الذى يخلصن له الدين ، ومن هذا الطعام يتناول الصنم فيما يقال •

ولهذه البغية ، توضع أمامه مائدة ، وعلى هذه المائدة تترك الأطعمة مدة ساعة كاملة ، لا تكف الآوانس أثناءها عن الغناء والعزف والقيام بحركات فاحشة • وتدوم تلك الحال بقدر ما يحتاج اليه شخص له مقامه ، من الزمن ليتناول وجبة مناسبة • وعندئذ يعلن (أى الفتيات) ان روح الصنم راضية بنصيبها من الوليمة المقدمة لها ، ثم يصطففن حوله ، ويشرعن فى تناول الطعام بدورهن ، وبعد هذا تنصرف كل الى منزلها • واليكم السبب الذى قدم تعليلا لاجتماع الشابات وأداء المراسم التى رأينا وصفها : « اذ يعلن الكهنة أن الاله الذكر مستاء من الالهة الانثى ساخط عليها ، ويرفض الاتصال بها بل حتى محاورتها ، وأنه اذا لم نتخذ بعض التدابير لاعادة السلام والانسجام بينهما • ذهبت جميع مصالح الدين أدراج الدمار ، وذلك نظرا لأن نعمة الآلهة وبركاتها ستحبس كلها عنهم من أجل ذلك ، يتوقع من كل المريدات المنذورات للدير أن يظهرن فى حالة عرى ، لا يسترهن الا قماشة حول أوساطهن ، وأن يرحن وهن على هذه الحال ينشدن الأناشيد للاله والالهة • ويعتقد هؤلاء الناس أن الاله كثيرا ما يسلى نفسه بالالهة » •

ويستخدم الأهالى ضربا من السرير المعادى أو النقال الخفيف ، مصنوعا من أشغال قصب خفيفة جدا ، قد صمم بمهالة ، بحيث انهم متى رقدوا عليه وجنحوا الى النوم ،

أمنيهم اسدال الستائر حولهم بجذب فتلة خيط • وهم يفعلون هذا ابتغاء طرد العناكب (الاشبات) ، التى لها عضه اليمة ، وكذا رغبة فى تجنب مضايقة البراغيث وغيرها من الهوام الصغيرة ، وفى نفس الحين لا يطرد الهواء (٤٨) ، الشديد اللزوم لتخفيف الحرارة المفرطة • على أن متعا من هذا القبيل لا يحظى بها سوى ذوى اليسار والمكانة من الناس ، فأما من عداهم من أبناء الطبقة الدنيا فيرقدون فى الشوارع فى العراء (٤٩) .

ويرقد فى ولاية المعبر هذه (٥٠) جثمان الشهيد المجيد القديس توما الرسول ، الذى لقى الشهادة هناك • وهو موجود بمدينة صغيرة ، لا يزورها كثير من التجار ، لعدم صلاحيتها لأغراض تجارتهم ، غير أنه يؤمها لأسباب دينية ، عدد ضخم من المسيحيين والعرب (٥١) كليهما ويعده الأخيرون نبيا عظيما ، ويسمونه أنانياس ، ومعناها الشخصية المقدسة (٥٢) والمسيحيون الذين يقومون بحج هذه الكنيسة، يجمعون الثرى من البقعة التى ذبح فيها ـ وهو ثرى أحمر اللون ، ويحملونه معهم بكل اجلال ـ وكثيرا ما يستخدمونه فيما بعد ، فى عمل المعجزات ، واعطائه مذوبا فى الماء للمرضى ، فيشفى كثيرا من الأمراض (٥٣) •

وفى عام ١٢٨٨ الميلادى ، رأى أمير قوى بالبلاد (٥٤)، جمع وقت ضم المحصول (باعتباره نصيبه) مقدارا ضخما جدا من الأرز ، ولم يجد لها أجرانا تكفى لتخزينها كلها ، أن يستخدم لهذا الغرض البيت الدينى التابع لكنيسة القديس توما • ولما كان هذا مناقضا لارادة من عليهم سدانة المكان ، فانهم التمسوا منه ألا يحتل على هذا النحو مكانا خصص لراحة الحجاج ، الذين كانوا يفدون لزيارة جسد ذلك القديس المجيد • ورغم ذلك فانه أصر بعناد على رأيه ••

وفى الليلة التالية ظهر له الرسول المقدس فى المنام ، ممسكا بيده حربة صغيرة ، سددها نحو عنق الملك ، قائلا له : « اذا أنت لم تخل على الفور بيتى ، الذى احتللته ، فانى سأقتلك قتلة تعسة » • واستيقظ الأمير فى فزع شديد ، وأصدر على الفور أوامره بتنفيذ ما طلب منه ، معلنا على الملأ أنه رأى الرسول فى منامه • وتتم هناك أنواع عديدة من المعجزات ، عن طريق توسط القديس المبارك • ويملك المسيحيون المنوطون برعاية الكنيسة أحراشا من تلك الأشجار التى تنتج جوز الهند ، ومنها يحصلون على معاشهم ، ويدفعون لأحد الأخوة الملكيين ضريبة قدرها غروت واحد عن كل شجرة من (٥٥) الشجر •

ويروى أن مصرع هذا الرسول ذى القداسة العظمى ، تم على الوجه التالى : فانه بعد أن آوى الى صومعة له ، شغل فيها بالصلاة ، وحوله مجموعة من طير الطاووس ، التى تمتلىء بها البلاد هناك ، تصادف أن وثنيا من قبيلة الجاوى التى أسلفنا اليك صفتها ، كان يمر بتلك المنطقة ، ولم يلحظ وجود الرجل المقدس، فأطلق سهما على أحد الطواويس، فأصاب الرسول فى جنبه • فلما أن وجد نفسه مجروحا ، لم يمهل الا ريثما يشكر الرب على رحماته وأسلم الروح بين يديه (٥٦) •

والناس فى هذه الولايات ، وان كانوا من السود ، لا يولدون بمثل ذلك الصبغ العميق القاتم الذى يصلون اليه بوسائل صناعية • فانهم ، لبلوغ تلك الغاية يدلكون أجسام أطفالهم ثلاث مرات بالشيرج (زيت السمسم) (٥٧) وهم يجعلون تماثيل آلهتهم سوداء ، فأما الشيطان فانهم

يرسمونه أبيض ، مؤكدين أن جميع الشياطين على ذلك اللون (٥٨) ٠ فأما من كان منهم يقدم العبادة للثور ، فأنهم يأخذون معهم عندما يخرجون للقتال بعض شعرات من ثور برى ، يربطونها بأعراف خيولهم ، معتقدين أن من فضيلتها وأثرها أن كل من يحملها معه حيث ذهب ناج من كل خطر ٠ وتبعا لهذا فان شعر الثور البرى يباع بسعر مرتفع بتلك الأقطار ٠

الفصل الحادى والعشرون

عن مملكة مورفيلى أو موتصول ٠

ان مملكة مورفيلى هى تلك التى تدخلها عندما تغادر مملكة المعبر ، بعد التقدم خمسمائة ميل فى اتجاه شمالى(١) ٠ وسكانها يعبدون الأوثان ، ويعيشون فى استقلال عن كل دولة أخرى ٠ وهم يقتاتون بالأرز واللحم والسمك والفواكه ٠

وفى جبال هذه المملكة يعثر على الماس (٢) ٠ وفى أثناء فصل الأمطار تهطل المياه سيولا جارفة بين الجبال والكهوف، فاذا هدأت السيول ذهب الناس ليبحثوا عن الماس فى قيعان الأنهار ، فيجدون منه الكثير (٣) ، أخبر بعضهم السير (السيد) ماركو أنه فى الصيف عندما تكون الحرارة مفرطة ، والمطر منقطعا ، يصعد الناس الجبال بمشقة كبيرة ، وخطر جسيم لكثرة الأفاعى التى تملأ تلك الجبال ٠ ويقال انه يوجد قرب القمة أودية عميقة ، مملوءة بالكهوف ومحوطة بالمنحدرات الوعرة ، وفيها يعثر على الماس ، وهنا اعتاد كثير من النسور واللقلاق الأبيض بناء عشوشها وهى التى تجذبها الحيات لأنها تتغذى بها ٠ ويتخذ من يطلبون الماس من الأشخاص موقفهم قرب أفواه الكهوف ، ومن هناك يقذفون عدة قطع من اللحم ، تتعقبها النسور واللقلاقات حتى قاع الوادى وتحملها الى أعالى الصخور ٠ والى هناك يبادر الرجال الى الصعود ، ويبعدون الطيور واذ يستردون قطع اللحم فانهم كثيرا ما يجدون الماس ملتصقا بها ٠ فان

كان لدى الطيور الزمن الكافى لالتهام اللحم ، راقبوا مكان جثومها ليلا ، وفى الصباح يجدون الماس بين الجملة والبعر الذى يسقط منها (٤) ولكن ينبغى لك ألا تظن أن الماس الجيد يقع للمسيحيين ، لأنه انما يحمل الى الخان الأعظم، والى ملوك ورؤساء ذلك الاقليم • وهم يصنعون بتلك البلاد أرق أنسجة الأقطان ، التى يجدها المرء بأى جزء من أجزاء الهند (٥) •
ولديهم من الماشية القدر الكافى كما أن لديهم أضخم غنم فى العالم والكثير من كل أنواع الطعام •

الفصل الثاني والعشرون

عن ولاية لاك أو لوآك أو لار ·

متى غادرت المكان الذى ترقد فيه رفات الرسول المجيد ، القـديس توما ، وتقـدمت غربا ، دخلت ولاية لار ، التى يرجع اليها أصل البراهمـة ، الذين ينتشرون بكل أرجاء الهند (١) · وهؤلاء البراهمة خير وأشرف تجـار عـلى وجه البسيطة (٢) · فما من اعتبار مهما يكن ، يمكن أن يحملهم على النطق بكذبة واحدة ، وان توقفت حياتهم عـلى ذلك · ويستشعرون مقتا شـديدا للسرقة ولـكل اختـلاس لمتـاع الآخرين (٣) · ويشتهرون بالمثل بفضيلة كبح النفس عن الشهوات ، اذ يقنعون باحتياز زوجة واحدة (٤) ·

واذا تاجر أجنبى يجهل عادات البلاد ، عرف نفسـه الى أحد هؤلاء ، ووكل اليه مهمة العناية بمهام عمله ، تولى ذلك البرهمانى ادارته ، وتصرف فى البضاعة ، وقدم بيانا صادقا بما أتمه ، مراعيا بضمير حى مصالح الغريب ، دون أن يطالب بأية مكافأة على تعبه ، ان فات صاحب البضـاعة ـ فى قلة كياسة ـ أن يقدم اليه الجزاء التلقائى (٥) · وهم يأكلون اللحم ويشربون خمر البـلاد ، ومع هـذا فانهـم لا يذبحون بأنفسهم أى حيوان بل يكلفون المسلمين بذلك (٦) ·

ويتميز البراهمة بشارة معينة ، تتكون من خيط قطنى غليظ ، يمر فوق الكتف ويربط تحت الابط ، بطريقة تجعل الخيط يبدو على الصدر وخلف الظهـر (٧) · والملك طائل

الثراء فوق السلطان ، يبتهج كل الابتهاج بامتلاك اللالىء والاحجار الثمينة(٨) • وعندما يقدم اليه تجار المعبر منها ما امتاز بالجمال الفائق ، يثق بكلمتهم فيما يتعلق بتقدير قيمتها ، ويعطيهم ضعف المبلغ الذى يعلنون ان كل واحدة منها كلفتهم •

وفى ظل هذه الظروف ، تعرض عليه كثير من الجواهر البديعة • والسكان هنا على وثنية بدائية شديدو التعلق بالسحر والعرافة •

وعندما يكونون على وشك القيام بصفقة شراء بضاعة ، يشرعون على الفور فى ملاحظة سقوط ظل أجسامهم هم أنفسهم فى ضوء الشمس ، فان كان الظل فى الطول الواجب، قاموا بالشراء فى نفس اليوم (٩) • وفوق هذا ، فانهم عندما يكونون فى أى دكان بقصد شراء شىء ، فانهم ان رأوا شيئا مما يكثر وجوده هناك ، لاحظوا بامعان الجهة التى يجىء منها ، وتصرفوا فى عمليتهم على أساس ذلك •

وكذلك أيضا متى كانوا خارجين من بيوتهم ، وسمعوا امرأ يعطس ، عادوا الى بيوتهم وأقاموا عاكفين فيها • وهم شديدو الاعتدال فيما يتعلق بالطعام ، ويعيشون الى سن متقدمة • ويحتفظون بأسنانهم سليمة باستخدام نوع من النبات اعتادوا عادة مضغه • وهو فى نفس الحين يساعد على الهضم ويفضى على الجملة الى صحة الأبدان (١٠) •

وهناك بين أهالى هذا الاقليم ، طبقة شديدة الجنوح الى حياة دينية ، تسمى التنجوى Tingui ، وتعيش اكراما لآلهتها حياة شديدة التقشف (١١) • وهم يعيشون عراة تماما ، لا يسترون أى جزء من أجسامهم ، ويقولون انه لا يمكن أن يكون هناك أى عار فى حالة العرى هذه التى جاءوا فيها الى هذا العالم ، أما فيما يتعلق بما يسمى الأجزاء

المخجلة ، فانهم يلاحظون انهـا لمـا لم تكن لديهم أعضـاء للخطيئـة ، فليست ثمة سبب يدعوهم الى حمـرة الخجل من تعريضها للأنظار (١٢) ٠

وهم يعبدون التور ، ويحملون معهم تمثالا صغيرا له ، مصنوعا من النحاس الاصفر المذهب أو غـيره من المعادن ، مربوطا على جباههم (١٣) وهم يقومون أيضا بحرق عظام التيران ، ويحولونها الى مسحوق ، ويعملون من هذا مرهما بقصد وضع علامات على أجزاء مختلفة من الجسم ، وهو أمر يفعلونه بطريقة ملؤها التوقير ٠ وان هم التقوا بشـخص بينهم وبينه مودة ، ضمخوا بهرة جبينه بشيء من هذا الرماد المجهز (١٤) ٠

وهم لا يحرمون أى مخلوق من الحياة ، ولا حتى ذبابة ولا برغوثا ولا قملة ، لاعتقادهم بأن لها أرواحا تنفخ فيها الحياة ، ويعد الاغتداء بأى حيوان خطيئة شـنيعة ٠ وهم يمتنعون عن تناول الخضر أو الحشائش أو الجذور ، حتى تجف، على اعتقاد أن هذه أيضا لها أرواح٠ وهم لا يستخدمون في طعامهم الملاعق ولا الصحاف ، بل يفرشون طعامهم عـلى الأوراق الجافة لشجرة تفاحة آدم ، التى تسمى أيضا بتفاح الفردوس (١٥) ٠

وعندما يحسون بالحاجة الى قضاء الضرورة ، يذهبون الى شاطيء البحر ، حتى اذا أفرغوا ما في بطونهم فى الرمل، نثروه على الفور فى جميع الاتجاهات ، حتى لا يولد الهوام، التى سيؤدى موتها جوعا فيما بعد الى اثقال ضميرهم بأوضار اثم اليم (١٦) ٠

وهم يعيشون حتى يبلغوا سنا عالية جدا ، بل ان بعضهم ليبلغ الخمسين بعد المائة ، مستمتعا بالصحة والعافية ، وان ناموا مفترشين الأرض العارية وهذا أمر لابد أن يكون راجعا الى اعتدالهم وعفتهم (١٧) ٠ واذا ماتوا أحرقت أجسامهم ، حتى لا تولد لنفس السبب ، أية ديدان ٠

الفصل الثالث والعشرون

عن جزيرة زيلان ·

أكره أن أتجاوز عن بعض تفصيلات أسقطتها عندما تحدثت فيما سلف عن جزيرة زيلان ، وعلمتها عندما زرت ذلك القطر فى رحلة عودتي الى أرض الوطن · يوجد بهذه الجزيرة جبل شاهق الارتفاع ، يبلغ من شدة صخريته ووعورة انحداره ، أن الصعود الى قمته يعد من المحال ، فيما يقال ، الا بمساعدة السلاسل الحديدية المستخدمة لذلك الغرض · وبهذه السلاسل يبلغ بعض الأشخاص القمة ، التى يقال ان قبر آدم ، جدنا الأول ، يوجد عليها · وذلك هو ما يقوله المسلمون (١) · ولكن الوثنيين يؤكدون انه يحتوى جثمان سوجر مونباركهان ، مؤسس نظامهم الدينى ، الذى يوقرونه كشخصية مقدسة (٢) · كان ابنا لأحد ملوك الجزيرة ، كرس نفسه لحياة زهد ، رافضا قبول الممالك أو أية ممتلكات دنيوية ، وان حاول أبوه بواسطة مفاتن النساء وكل شكل آخر من أشكال الامتاع يخطر على الخيال، أن يثنيه عما عزم عليه من تصميم (٣) ·

وكانت كل محاولة لاقناعه بالعدول عن رأيه تذهب أدراج الرياح ، وفر الشاب خفية الى هذا الجبل المرتفع ، حيث ختم فى النهاية حياته الدنيوية الفانية بالاستمساك بالعزوبة والامتناع المطلق عن الشهوات ·

والوثنيون يعدونه قديسا . فأما الأب فاذ شرد لبه بألذع ضروب الحزن ، أمر فصنع لولده تمثال من الذهب والأحجار النفيسة ، يحمل صورة ابنه وشبهه ، وطالب جميع سكان المدينة بتكريمه وعبادته عبادة الرب . وذلك هو الأصل فى عبادة الأصنام بتلك البلاد ، على أن سوجومون باركهان لا يزال يعد فوق كل ما عداه . ونتيجة لهذا الاعتقاد ، يتقاطر الناس من مناطق مختلفة قاصية حاجين الى الجبل الذى دفن عليه . ولا تزال بعض بقايا من شعره وأسنانه والطست الذى كان يستخدمه ، باقية الى الآن وتعرض على الأنظار باحتفال عظيم . على أن المسلمين يرون أن هذه الأشياء انما هى للنبى آدم ولذا فان تدينهم وتقواهم تدفعانهم بالمثل الى زيارة الجبل (٥) .

وحدث فى عام ١٢٨١ ، ان الخان الأعظم سمع من بعض المسلمين العرب الذين مروا بتلك البقعة ، بشهرة هذه المخلفات الخاصة بأبينا الأول وأحس برغبة شديدة فى امتلاكها ، حملته أن يرسل سفارة لطلبها من ملك زيلان .

وبعد رحلة مديدة مضنية ، وصل سفراؤه فى النهاية الى طلبتهم المقصودة ، وحصلوا من الملك على ضرسين خلفيين كبيرين، مع بعض شعرات ووعاء أنيق من الحجر السماقى(٦) المجزع . وعندما بلغ الخان الأعظم نبأ اقتراب رسله ، أثناء عودتهم بهذه الطرف الثمينة ، أمر جميع سكان كانبالو للخروج من المدينة لاستقبالها ، ثم قدمت الى حضرته بمراسم عظيمة الأبهة والوقار (٧) والآن وقد ذكرنا هذه التفاصيل المتعلقة بجبل زيلان ، فاننا سنعود أدراجنا الى مملكة المعبر ونتحدث عن مدينة كائل .

الفصل الرابع والعشرون

عن مدينة كائل ·

ان كائل مدينة ضخمة (١) ، يحكمها استيار ، احـد الاخوة الاربعة ، ملوك اقليم المعبر ، وهو ملك غنى بما يملك من ذهب وجوهر ، ويحتفظ بمملكته في حالة من الســلام المقيم (٢) · ولهذا فانها كانت منتجعا مستحبا لدى التجـار الاجانب ، الذى يحسن الملك استقبالهم ومعاملتهم · وتبعا لهذا فان جميع السفن القادمة من الغرب ـ أى من موان مثل هرمز وكهستى ، وعدن (عون) ، وأجزاء مختلفة من بلاد العرب ـ محملة بالبضائع والخيل تتجه نحو هـذا المرفأ ، الذى له فوق هذا موقع صالح بالنسبة للتجارة · ويعـول الأمير ، على خير وجه فاخر ، مالا يقل عن ثلاثمائة امرأة ·

وجميع سكان هذه المدينة ، وكذلك جميع أهالى الهنـد بعامة ، يدمنون عادة وضع ورقة النبات المسمى « التنبــول Tembul » في أفواههـم باسـتمرار ، وهـم يفعلـون ذلك ادمانا لعادة من ناحية وطلبا للمتعة التي يحدثها ذلك النبات من ناحية أخرى (٣) · وهم عند مضغه يبصقون ما يحدثه من لعاب · على أن ذوى المـكانة فيهم يتعاطون تلك الـورقة مجهزة بالكافور وغيره من عقاقير عطرية ، فضلا عن مزيج من الجير الحى (٤) · وقد بلغنى أنه جالب للصحة الى أقصى حد · واذا قصد أى رجل أن يجـابه آخـر بأغلظ طريقـة وأشدها احتقارا وامتهانا ، بصق فى وجهه عصير هذا الورق الممضوغ ، فاذا أهين رجل على هذا النحو ، هرع الى حضرة

الملك ، وقدم ظروف ما حل به من ضيم ، وأعلن رغبته فى الفصل فى النزاع بالنزال .

وعنــدئذ يزودهما الملك بالأســلحة ، وهى تأتلف من سيف وترس صغير ، ويحتشد الناس جميعا ليكونوا شــهودا فى الصراع ، الذى يستمر بينهما حتى يقع أحدهما ميتــا فى الحلبة . ومع هذا فلا يجوز لهما أن يحدثا جرحا بسن السيف (٥) .

الفصل الخامس والعشرون

عن مملكة كولام •

عند مغادرة المعبر ، والتقدم جنوبا بغرب خمسمائة ميل تصل الى مملكة كولام (١) وهى دار اقامة لكثير من المسيحيين واليهود ، الذين يحتفظون بلغتهم الأصلية • وليس الملك تابعا لأى ملك آخر • وينمو هناك الكثير من خشب السابان ــ (أو خشب البريزيل) (٢) الجيد ، كما ينمو الفلفل بوفرة كبيرة ، حيث يوجد بكل من مناطق الغابات والمناطق المكشوفة بالبلاد • وهو يجمع فى شهور مايو ويونية ويولية والمعترشات أى التكعيبات التى تنتجه تزرع على هيئة مزارع مترامية الاتساع (٣) ، ويصنع هنا أيضا صباغ النيلج ، وهو من صنف ممتاز وبمقادير كبيرة • وهم ينتجونه من نبات عشبى ، ينزع من جذوره وينقع فى براميل ماء ، حيث يترك حتى يتعطن ، ثم تعصر منه عصارته ، فاذا عرضت هذه العصارة للشمس وتبخر ماؤها ، خلفت نوعا من العجينة ، تقطع قطعا صغيرة ، لها الشكل الذى نراه يجلب الى بلادنا (٤) •

وتشتد الحرارة فى بعض الشهور بحيث لا تكاد تطاق ، ومع هذا فان التجار يتوافدون الى هناك من مختلف أصقاع الأرض ، مثل مملكة مانجى وجزيرة العرب (٥) ، اذ تجذبهم المكاسب الضخمة التى يحصلون عليها من كل من البضائع التى يستوردونها وكذا مما يحملون أثناء العودة من بضائع• وتختلف كثير من الحيوانات الموجودة هنا عن مثيلاتها فى

الأصقاع الأخرى • فهنا يوجد ببور Tigers سوداء تماما(٦) وصنوف من الطير من جنس الببغاء ، منها ما هو أبيض ناصع كالثلج ، مع منقار وأرجل حمراء ، ومنها أخرى ألوانها خليط بين الاحمرار واللازوردى ، وأخرى ذات حجوم مصغرة • والطواويس هنا أيضا أجمل شكلا وأضخم حجما من طواويسنا ، كما أن لها شكلا مختلفا ، بل انه حتى الدجاج المنزلى العادى له شكل مختلف (٧) •

وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على الفواكه • ويقال ان السبب فى هذا الاختلاف هو الحرارة الشديدة التى تسود هذه المناطق • ويصنع الخمر من السكر الذى ينتجه نوع من النخيل • وهو مفرط الجودة ، كما أنه مسكر أسرع من الخمر المصنوع من العنب (٨) •

ويمتلك السكان مقادير وفيرة من كل ما هو ضرورى لطعام الانسان باستثناء الحبوب ، التى لا يوجد منها أى نوع آخر عدا الأرز ، على أن مقادير هذا الأرز هائلة جدا • ويقيم بينهم عدد كبير من المنجمين والأطباء ، العليمين جد العلم بفنونهم • وجميع الناس هناك ، سود ذكورا واناثا ، وفيما عدا قطعة من قماش يضعونها على مقدم أجسامهم ، فانهم يسيرون عراة تماما (٩) •

وقد جبلوا على الحسية المفرطة ، ويتخذون ذوى قرباهم فى الدم زوجات ، فيتزوجون زوجات أبيهم عند وفاة الأب ، كما يتزوجون أرامل اخوتهم المتوفين (١٠) • على أن هذا ــ فيما أبلغت ــ هو حالة الأخلاق بكل أرجاء الهند •

الفصل السادس والعشرون

عن كومارى ·

ان كومارى (١) هى ولاية ، يمكن أن تبدأ فيهـا رؤية جزء من مجموعة كواكبنا الشمالية ، التى لا يمكن رؤيتهـا فى جزيرة جاوه ــ كما أنها لا ترى أيضا الا بالكد عـلى بعد حوالى ثلاثين ميلا من هذا المكان ، وفيه تبدو مجموعة الكواكب هذه على ارتفـاع ذراع فوق الأفق (٢) · وليست بالبـلاد زراعة كثيرة ، وذلك لأن معظم أرضها مغطى بالغابات ، تأوى اليها أنواع كثيرة من الحيوانات ، وبخاصة القردة (العليا)، التى لها من الشكل ومن كبر الحجم ، ما يجعـل لهـا هيئـة انسان (٣) · وهنـاك أيضا قرود طـويلة الذيول تختلف اختلافا كبيرا عن الأولى من ناحية الحجم · ويكثر هناك الببر والنمر والوشق (وهو من فصيلة السنانير) ·

الفصل السابع والعشرون

عن مملكة ديلي ·

عند مغادرة ولاية كوماري ، والانطلاق غربا مسافة ثلاثمائة ميل ، تصل الى مملكة ديلي التي لها ملكها الخاص ولغتها المعينه (١) · وهي لا تدفع الجزية لاية دولة أخرى · يعبد الناس الاصنام ، وليست هناك ميناء لرسو السفن ، على أن هناك نهرا كبيرا له مدخل أمين (٢) · ولا تكمن قوة البلاد في كثرة عدد سكانها ، ولا في شجاعتهم، بل في وعوره المسالك والممرات التى لابد من عبورها للدخول اليها ، والتي تجعل غزوها على يد عدو شبه مستحيل (٣) · وهي تنتج مقادير ضخمة من الفلفل والزنجبيل مع أنواع أخرى كثيرة من التوابل (٤) فلو دفعت مركب بالصدفة داخل مصب نهرها، دون أن تقصد الاتجاه الى تلك الميناء ، أمسكوا بها وصادروا جميع ما تحمل من بضائع قائلين : « كنتم تنوون الذهاب الى مكان آخر ، ولكن آلهتنا اقتادتكم الينا حتى نمتلك متاعكم» · وتصل السفن القادمة من مانجي الى هنا قبل انقضاء موسم الجو الموائم وتحاول شحن حمولتها في مدى أسبوع واحد ، أو أقل من ذلك لو أمكن ، وذلك لأن المراسي غير آمنة بسبب الشطوط الرملية الممتدة على طول الساحل ، والتي كثيرا ما تعرضها للخطر ، مهما تزودت بالمراسي الخشبية الضخمة ، المعدة للتغلب على عواصف الريح العاتية (٥) ، والبلاد مليئة بالببور وكثير غيرها من الحيوان الشرس ·

الفصل الثامن والعشرون

عن مالابار ٠

تعد مالابار مملكة متسعة الأطراف بالهند الكبرى ، تقع جهة الغرب ، وهي بلاد ينبغي ألا يفوتني أن اسرد بعض التفاصيل عنها (١) ٠ ويحكم الناس ملكهم الخاص ، وهو ملك مستقل عن كل دولة أخرى ، كما أن لهم لغتهم الخاصه ٠ وفي هذه البلاد يشاهد النجم الشمالى مرتفعا حوالى قامتين فوق الأفق ٠ وهنا أيضا ، شان الحال بجزيرة جوزيرات ، التي لا تبعد كثيرا ، يكثر القراصنة ، الذين يطوفون كل عام في هذه البحار بأكثر من مائة مركب صغيرة ويستولون على جميع السفن التجارية التي تمر بذلك الطريق وينتهبونها(٢) ٠ وهم يأخذون معهم الى البحر زوجاتهم وأطفالهم من جميع الأعمار ، فيظلون في صحبتهم أثناء موسم تطوافهم الصيفي كله ٠ ولكي لا تفلت منهم سفينة واحدة ، فانهم يلقون مراسي سفنهم ، مع جعل المسافة بين الواحدة والأخرى خمسة أميال ، وبهذا تشغل عشرون سفينة متسعا مداه مائة ميل ٠ فاذا ظهرت سفينة تجارية أمام واحدة منها ، أعطيت اشارة بالنار أو الدخان ، فتقترب مراكبهم كلها بعضها من بعض ، وتستولى على السفينة وهي تحاول المرور ٠ ولا ينزل بأشخاص الملاحين أى أذى ، ولكنهم ما أن يستولوا على السفن ، حتى ينقلوهم الى الشاطىء ، ناصحين اياهم ، بالتزود بشحنة أخرى من البضائع ، وقد تكون ــ في حالة مرورهم بذلك الطريق مرة أخرى ــ وسيلة لاثراء آسريهم للمرة الثانية ٠

وتوجد بهذه المملكة وفرة هائلة من الفلفل والزنجبيل والكبابة وجوز الهند ، كما أنه يصنع بها أنعم واجمل ما يمكن أن يوجد بأى بلد آخر من بلاد العالم من أنواع القطنيات (٣) • وتجلب السفن القادمة من مانجى ، النحاس جاعلة منه صابورة تحفظ توازنها، وتحمل فوق هذا الديباج القصب بالذهب والحرائر والشاش وسبائك الذهب والفضة، فضلا عن أنواع كثيرة من العقاقير مما لا تنتجه المالابار ، فيبادلون عليها بسلع الولاية (٤) • وهناك فى نفس تلك الأماكن تجار ، (يشحنون) السفن بالبضائع الأولى الى عدن فتحمل منها الى الاسكندرية (٥) •

والآن وقد تكلمنا عن مملكة مالابار ، فاننا سننتقل الى الحديث عن مملكة جوزيرات ، التى تتاخمها • ولو أننا حاولنا أن نتناول بالحديث جميع مدن الهند ، لاجتمع لدينا بيان ضخم لا آخر له ، قد يدعو الى السأمة ، ومن ثم فاننا سنمس فحسب المدن التى لدينا حولها معلومات خاصة •

الفصل التاسع والعشرون

عن مملكة جوزيرات •

يحكم مملكة جوزيرات التى يحدها من الجانب الغربى بحر الهند ، ملكها الخاص ، كما أن لها لغتها الخاصة (١) • ويظهر نجم الشمال من هناك مرتفعا ست قامات عن الافق • ويتيح هذا القطر مثوى لقراصنة من أشد الانواع استيئاسا ومجارفة (٢) ، ممن لو وقع فى أيديهم أثناء تطوافهم تاجر مسافر ، اجبروه على الفور على احتساء جرعة من ماء البحر ، وهى جرعة تكشف بما تفعله بأمعائه عما اذا كان مبتلعا بعض اللآلىء أو الجواهر عندما أحس باقتراب أعدائه منه لكى يخفيها فى بطنه •

وهنا توجد وفرة ضخمة من الزنجبيل والفلفل والنيلج • وينتج القطن بها فى مقادير عظيمة من شجرة يبلغ ارتفاعها ست ياردات وتظل تحمل الثمار مدة عشرين عاما ، ولكن القطن المأخوذ من أشجار بلغت تلك السن ، لا يستخدم فى المغازل بل فى صنع الألحفة • وعلى عكس ذلك ، فالقطن المأخوذ من أشجار عمرها اثنا عشر عاما ، صالح للموسلين وغيره من المنسوجات ذات النعومة والرقة البالغة (٣) • وتدبغ هنا أعداد جمة من جلود الماعز والجاموس والثيران البرية والخراتيت وغيرها من البهائم ، ثم توثق بها السفن وتوجه الى مختلف أجزاء بلاد العرب • وتصنع أغطية الفراش من جلد أزرق وأحمر ، يمتاز ببالغ الرقة والنعومة ويخاط

بخيوط الذهب والفضة (٤) ، وهى فرش اعتاد المسلمون الرقاد عليها • والنمارق (الشلت) أيضا ، المحلاة بأسلاك الذهب التى تمثل أشكالا للطير والحيوان ، هى من مصنوعات هذا المكان ، وتصل قيمتها فى بعض الحالات الى درجة فاحشة الغلو اذ تباع بستة ماركات من الفضة • وأشغال التوشية والتطريز تتم هنا فى رقة تفوق كل مثيلاتها بأجزاء العالم الأخرى قاطبة (٥) • واذ نمضى فى سبيلنا ، فاننا سنتحدث الآن عن مملكة كانان •

الفصـــل الثـــلاثون

عن مملكة كانان ٠

ان كانان مملكة كبيرة وفخمــة ، تقــع في الاتجـــاه الغربى (١) ٠ ونقــول فى الاتجاه الغربى ، لأنه نظرا لأن رحلة السير ماركو كانت تمضى من الجــانب الشرقى ، فانه يتحدث عن الأقاليم فى الاتجاه الذى وجدها فيه ٠ ويحكمها أمير لا يدفع جزية لأى أمير آخر ٠ والقوم فيهــا وثنيون لهم لغتهم الخاصة ٠ ولا ينمو هنا الفلفل ولا الزنجبيل عــلى أن البلاد تنتج نوعا من البخور بمقادير وفيرة ، وهو ليس أبيض اللون ولكنه على العكس قاتم ٠ وتقصد هذا المكان كثير من السفن لتحمل وسقتها من هذا المقار ، فضلا عن أضرب منوعة من أشياء أخرى (٢) ٠ وهم يشحنون فى سفنهم بالمثل عــددا من الخيول ، لكي تباع بمختلف أرجاء الهند (٣) ٠

الفصل الحادى والثلاثون

عن مملكة كامبايا •

وهذه أيضا مملكة متسعة ، تقع فى الاتجاه الغربى ، ويحكمها ملكها الخاص ، الذى لا يدفع جزية ما لأى ملك آخر ، كما أن لها لغتها الخاصة (١) • والقوم بها من الوثنيين • وفى هذا القطر يشاهد نجم الشمال أكثر ارتفاعا منه فى أى من الأقاليم السابقة ، وذلك بسبب وقوعه الى الشمال الغربى أكثر • والتجارة المتداولة به جسيمة جدا ، كما يصنع به مقدار كبير من النيلج(٢) • ويكثر به القماش القطنى ، فضلا عن قطن الحشو (٣) • وتصدر من هناك كثير من الجلود الجيدة الدباغة ، ويقبض ثمنها ذهبا وفضة ونحاسا وتوتياء (٤) • ولما لم يبق شىء يستحق الذكر فانى سأنتقل الى الحديث عن مملكة سرفيناث •

الفصل الثاني والثلاثون

عن مملكة سرفيناث ·

وسرفيناث أيضـا مملكة تقع فى اتجـاه الغرب (١) ، وسكانها من عبدة الأوثان ، ويحكمهم ملك لا يدفع جزية ، ولهم لغتهم المميزة ، كما أنهم قوم لهم ميول كريمة وأخلاق دمثة · وهم يكسبون معاشهم بالتجارة والصناعة ، كما أن المكان ينتجعه عدد من التجار يحملون اليه بضائعهم ويأخذون بدلا منها سلع المملكة · وبلغنى مع هذا أن الـكهان الذين يخدمون فى معابد الأوثان ينطوون على أشد ما حوى العالم من الغـدر والخيانة والقسـاوة (٢) · وسـننتقل الآن الى الحديث عن المملكة المسماة كسماكوران ·

الفصل الثالث والثلاثون

عن مملكة كسماكوران ·

هذه بلاد فسيحة لها ملكها الخاص ولغتها المميزة (١) · وبعض السكان وثنيون ، ولكن غالبيتهم عرب مسلمون(٢) · وهم يعيشون على التجارة والصناعات · وطعامهم الأرز والقمح ، بالاضافة الى اللحم واللبن اللذين يوجدان لديهم بوفرة · ويتوافد عليها تجار كثيرون ، بطريق البحر فضلا عن البر · وهذه آخر مقاطعة بالهند الكبرى ، وأنت متقدم الى الشمال الغربي ، وذلك أنها كما تبدأ عند المعبر فهي كذلك تنتهي هنا (٣) · وقد اقتصرنا في وصفها على الولايات والمدن التي تقع على ساحل البحر ، وذلك انه لو أننا خصصنا بالذكر ما يقع منها داخل البلاد لتضاعف كتابنا ·

وسنتحدث الآن عن بعض جزر بعينها ، تسمى احداها جزيرة الذكور ، وتسمى الأخرى جزيرة الاناث ·

الفصل الرابع والثلاثون

عن جزيرتى ، الذكور والاناث •

وبعيدا عن كيز ماكوران وعلى بعد حوالى خمسمائة ميل فى اتجاه الجنوب ، وفى المحيط توجد جزيرتان تبعدان حوالى ثلاثين ميلا احداهما عن الأخرى ويسكن الأولى منهما رجال ، ليس بينهم امرأة واحدة ، وتسمى جزيرة الذكور ، وتسكن الأخرى نساء ، ليس بينهن رجال ، وتسمى جزيرة الاناث(١) وسكان الجزيرتين من جنس واحد ، كما أنهم يعمدون مسيحيين ، ولكنهم يتبعون شريعة العهد القديم • ويزور الرجال جزيرة الاناث ويظلون معهن ثلاثة أشهر متعاقبة ، هى مارس وأبريل ومايو ، فيحتل كل رجل مسكنا منفصلا مع زوجته • ثم يعودون الى جزيرة الذكور ، حيث يظلون سائر شهور السنة بغير تواجد أى اناث معهم • وتحتفظ الزوجات بأبنائهن معهن حتى يبلغوا سن الثانية عشرة ، فيرسلوا للانضمام وآبائهم • فأما البنات فتحتفظ الأمهات بهن حتى تبلغن سن الزواج ، ثم يمنحن لبعض رجال الجزيرة الأخرى • وتولدت طريقة العيش هذه عن طبيعة الجو الخاصة بتلك المناطق ، التى لا تسمح بوجودهم طوال العام مع زوجاتهم ، بغير التعرض لدفع ثمن ذلك • ولديهم أسقفهم الذى يتبع كرسى جزيرة سقطرى(٢) • ويزود الرجال النساء بما يلزمهن من طعام ببذر الحبوب ، ولكن النساء يجهزن

الأرض للزراعة ويحصدن المحصول • وتنتج الجزيرة أيضا أنواعا عديدة من الفواكه ويعيش الرجال على اللبن واللحم والأرز والسمك • حيث يصطادون منه مقادير هائلة لأنهم صيادو سمك مهرة • والسمك بنوعيه الطازج والمملح كليهما يباع للتجار الذين يفدون الى الجزيرة (٣) ، والذين هدفهم الأول هو شراء العنبر الذى تجمع منه هناك مقادير •

الفصل الخامس والثلاثون

عن جزيرة سقطرى ·

عند مغادرة هاتين الجزيرتين ، والتقدم خمسمائة ميل في اتجاه الجنوب ، تصل الى جزيرة سقطرى ، وهى جزيرة كبيرة جدا تزخر بلوازم الحياة (١) · ويعثر السكان على سواحلهم على كثير من العنبر الذى يفرغ من أحشاء الحيتان (٢) · ونظرا لأنه سلعة تجارية يشتد عليها الاقبال ، فانهم يجعلون حرفتهم الامساك بهذه الأسماك ، ويتوصلون الى ذلك بحربونة شائكة ، يرشقونها فى جسم الحوت رشقا قويا ثابتا بحيث لا يمكن نزعها · ويثبت فى هذه الحربونة الحديدية حبل طويل ، فى آخره « شمندورة » بقصد معرفة المكان الذى توجد به السمكة متى ماتت · وعندئذ يسحبونها الى الشاطىء ، ويشرعون فى استخراج العنبر من بطنها ، بينما يحصلون من رأسها على عدة براميل من الزيت (العنبرى) (٣) ·

وجميع الناس ، ذكرانا واناثا ، يعيشون عراة تقريبا ، لا يسترهم الا غطاء ضئيل من الأمام والخلف ، شأن الذين سبق وصفهم · وليس لديهم أى نوع من الحبوب عدا الأرز ، الذى يعيشون عليه هو واللحم واللبن · وهم يدينون بالمسيحية ، كما أنهم يعمدون على الوجه الأكمل (٤) وهم تحت الحكم الروحى والزمنى لكبير أساقفة لا يخضع لسلطان بابا روما ، بل لبطريرك يقيم بمدينة بغداد ، وهو الذى يعينه فى منصبه ، وأن هو انتخبه الناس أنفسهم تولى البطريرك اعتماد ذلك بالاختيار (٥) · ويلجأ كثير من

القراصنة الى هذه الجزيرة بما يحملونه من بضاعة اغتصبوها ، فيشتريها منهم الأهالى بغير تردد ولا وازع مبررين تصرفهم بأنها بضائع نهبت من الوثنيين والمسلمين (٦) • وجميع السفن المتجهة الى ولاية عدن ترسو هنا ، وتشترى مشتريات كثيرة من السمك والعنبر ، فضلا عن أنواع مختلفة من البضائع القطنية ، التى تصنع بالجزيرة •

على أن الأهالى يشتغلون بالشعوذة والسحر أكثر من أى شعب آخر ، وان حرم عليهم كبير أساقفتهم ذلك ، وهو الذى يصدر عليهم قرارات الحرمان واللعنة ، من أجل هذه الخطيئة • على أنهم لا يهتمون بذلك أدنى اهتمام ، واذا أوقعت احدى السفن التابعة لأحد القراصنة الضر باحدى سفنهم لم يفتهم أن ينزلوا عليه احدى تعاويذهم السحرية ، بحيث لا يستطيع مواصلة تطوافه فى البحار حتى يعوضهم عما حل بهم من أضرار ، وحتى لو أنه رزق ريحا مواتية ومساعدة له فى طريقه ، فان لديهم القدرة على تغيير اتجاهها ، وبذلك يجبرونه ــ على الرغم منه ــ الى العودة الى الجزيرة • ويمكنهم بالمثل ارغام البحر على الهدوء ، وبارادتهم يمكنهم اثارة العواصف والتسبب فى تحطيم السفن ، واحداث تأثيرات أخرى خارقة كثيرة ، لا حاجة بنا الى الافاضة فى تفاصيلها (٧) • وسنتحدث الآن عن جزيرة مدغشقر •

الفصل السادس والثلاثون

عن جزيرة مدغشقر الكبيرة ٠

متى غادرت جزيرة سقطرى ، واتخذت سبيلا وسطا بين الجنوب والجنوب الغربى الى مسافة ألف ميل ، بلغت جزيرة مدغشقر الكبيرة ، وهى من أكبر وأخصب جزر العالم ٠ ويبلغ طول محيطها ثلاثة آلاف من الأميال (١) ٠ وسكانها مسلمون أى من أتباع شريعة محمد (٢) ٠ ولهم أربعة أشياخ ، وهى كلمة يمكن أن يعبر عنها فى لغتنا الأجنبية بكلمة « الأكبرين سنا » «Elders» ـ يقتسمون الحكم فيما بينهم (٣) ٠

ويعيش السكان على التجارة والصناعة ، ويبيعون عددا لا حصر له من أنياب الفيلة ، وذلك لكثرة ما بالجزيرة من أفراد ذلك الحيوان ، شأنه فى زنزيبار أيضا التى تصدر بالمثل مقادير ضخمة من سن الفيل (٤) ٠ والطعام الرئيسى الذى يؤكل على مدار فصول السنة هو لحم الجمال ٠ على حين أن لحم أنواع الماشية الأخرى ، يستخدم أيضا طعاما لهم ، وان فضل الناس عليها لحم الجمل ، بوصفه أصح وأشهى أنواع اللحم التى توجد بهذا الجزء من العالم (٥) ٠

وتحتوى الغابات على كثير من أشجار الصندل الأحمر ٠ وبنفس نسبة كثرة وجوده يقل سعره ٠ وهناك أيضا كثير من العنبر المستخرج من الحيتان ، فاذا قذفه المد على الساحل جمع ليباع ٠

ويصيد الأهالى الوشق (*) والببر وأنواعا أخرى من الحيوان (٦) ، مثل الوعل والظبى والأيل الأسمر ، وهى تتيح لهم رياضة وقبضا كثيرا ، شأن الطيور أيضا التى تختلف عن طيور بلادنا وأجوائنا ٠

ويقبل الى الجزيرة كثير من السفن ، تقصدها من ارجاء مختلفة من العالم ، جالبة معها تشكيلات من البضائع ، تأتلف من الديباج المقصب والحراير ذات الرسومات المختلفة ، وهى تباع لتجار الجزيرة أو يبادل بها على بضائع أخرى ، وكلها تدر عليهم أرباحا طائلة ٠ وليس ثمة ملجأ آخر للسفن بالجزر الأخرى العديدة الواقعة الى الجنوب أكثر ، اذ لا تقصد السفن الا هذه وجزيرة زنزيبار وحدهما ٠

ويجىء ذلك نتيجة لجريان مياه البحر بسرعة هائلة فى ذلك الاتجاه ، تجعل عودتها مستحيلة ٠ والسفن التى تبحر من ساحل مالابار الى هذه الجزيرة ، تقوم برحلتها فى عشرين يوما أو خمسة وعشرين ، ولكنها تضطر فى رحلة العودة أن تكافح فى البحر مدة ثلاثة أشهر ، فما أشد قوة تيار الماء الذى يجرى على الدوام نحو الجنوب ! (٧) ٠

ويقرر سكان الجزيرة ، أنه فى فصل معين من السنة ، يظهر لديهم قادما من مناطق الجنوب ، نوع خارق من الطير يسمونه الرخ ٠ ويقال انه يشبه النسر شكلا ، ولكنه أضخم منه حجما بما لا مجال معه لمقارنة ، لأنه من الضخامة وشدة القوة ، بحيث يمسك بالفيل ببراثنه ويحمله فى الجو ، ثم يتركه يهوى الى الأرض ، حتى اذا مات سطا على جثته وافترسها ٠ ويؤكد من شاهدوا هذا الطائر أنه متى بسط

(★) الوشق بفتح الواو والشين : حيوان من فصيلة القط ورتبة اللواحم ، من الثدييات ، وهو بين القط والنمر ، رأسه كبير ، وعلى طرفى كل من أذنيه خصلة من الشعر ، وذيله قصير ، يقطن الغابات ، كما يوجد فى الصحارى والمناطق الزراعية (مج) ٠
(المترجم عن الوسيط)

جناحيه كان امتدادهما ست عشرة خطوة من الطرف الى الطرف ، وان طول كل ريشة ثماني خطوات ، مع ما يناسبها من الغلظ • واذ تصور السير ماركو بولو ان هذا المخلوق قد يكون من نوع الجريفين Griffin المرسوم في الصور ، والذى نصفه نسر ونصفه أسد ، فانه اهتم بوجه خاص بالاستفسار حول هذه النقطة ممن قرروا انهم رأوه ، ولكنهم اصروا على ان شكله هو شكل طائر تماما ، أو قل انه شكل النسر • ولما أن سمع الخان الأعظم بهذه القصة غير العاديه ، ارسل رسله إلى الجزيرة ، متذرعا بالرغبة في اطلاق سراح خادم له حبس هناك ، ولكن قصده كان في الحقيقة الفحص عن احوال ذلك البلد ومدى صدق الأشياء العجيبة التى رويت عنه • فلما عادوا الى حضرة جلالته ، أحضروا معهم (كما سمعت) ريشة من ريش الرخ ، التى أكدوا ايجابيا أن طولها تسعون شبرا ، وان محيط انبوبتها راحتان • وأحدث هذا المنظر المدهش لجلالته سرورا مفرطا ، وأنعم على من قدموا اليه هذه الريشة بهدايا سنية (٨) • وحملوا اليه كذلك ناب خنزير برى ، وهو حيوان ينمو هناك حتى يبلغ حجم الجاموسة ، ـ فظهر أنه يزن أربعة عشر رطلا(٩) • وتضم الجزيرة بالمثل الزراف والحمير وحيوانات ضارية أخرى ، تختلف تماما عن حيوانات بلادنا • والآن وقد قلنا ما هو ضرورى فى هذا الموضوع ، فاننا سنتحول بحديثنا الى زنزيبار •

الفصل السابع والثلاثون

عن جزيرة زنزيبار •

تقع جزيرة زنزيبار وراء جزيرة مدغشقر ، ويقال ان محيطها يبلغ ألفى ميل(١)• والسكان يعبدون الأوثان ولهم لغتهم الخاصة ، كما أنهم لا يدفعون جزية لأية دولة أجنبية• وهم ضخام الأجسام ، ولكن طولهم لا يتناسب مع ضخامة جثثهم • فلو تناسب الأمران ليدوا مردة ضخاما • ومع ذلك فانهم ذوو بنية قوية ، وان الواحد منهم لقادر على حمل ثقل ينوء به أربعة من رجالنا (فى الغرب) • ولكنه فى الحين نفسه يحتاج الى طعام خمسة من رجالنا • وهم سود البشرة ، عراة الأجسام ، لا يسترون الا الأجزاء الخاصة من أجسامهم بقطعة من قماش (٢) • وشعرهم مفلفل جدا حتى ليصعب بسطه ولو غمر بالماء • وأفواههم واسعة وأنوفهم مقلوبة لأعلى نحو الجبهة ، وآذانهم طويلة ، وأعينهم متسعة ومخيفة بحيث تضفى عليهم شكل الشياطين • ولا تقل المرأة عن الرجل نصيبا من هذه البشاعة ، فلهن الفم الواسع والأنوف الغليظة الفطساء والعيون الكبيرة • وأيديهن ورءوسهن أيضا ضخمة ضخامة تخرج عن كل تناسب (٣) • ويوجد بهذه الجزيرة أبشع نساء العالم خلقة ، بما لهن من أفواه كبيرة وأنوف غليظة ، وأثداء بشعة يبلغ حجم الواحد منها أربعة أضعاف ثدى أية امرأة أخرى • وهم يقتاتون باللحم واللبن والأرز والبلح (٤) • وليس لديهم كروم عنب • ولكنهم يصنعون من الأرز والسكر نوعا من الخمر ، مع اضافة بعض العقاقير اللاذعة ، وهى لذيذة الطعم جدا ، ولها

المفعول المسكر للأخرى • وتوجد الفيلة بأعداد هائلة فى هذه الجزيرة ، وتشكل أنيابها سلعة تجارية مهمة • وينبغى ان يلاحظ بصدد هذه الدواب أن طريقة تزاوجها ، هى بعكس المخلوقات البهيمية جملة ، وذلك نتيجة لموقع العضو الانثوى وهى تماثل طريقة النوع البشرى (٥) •

ويوجد بهذه البلاد أيضا الزراف وهو حيوان رشيق • جسمه حسن التناسب ، وقائمتاه الأماميتان طويلتان وعاليتان ، بينما الخلفيتان قصيرتان ، والعنق طويل جدا والرأس صغير ، وهو حيوان وديع • واللون الغالب فيه فاتح مع بقع مستديرة ميالة الى الحمرة • وارتفاعه (أو طول العنق) ، بما فى ذلك الرأس ، هو ثلاث خطوات (٦) • وتختلف غنم هذه البلاد عن غنمنا ، فانها بيضاء الجسم تماما فيما عدا الرءوس فانها سوداء (٧) ، وهذا هو أيضا لون الكلاب هناك • والحيوانات بعامة لها شكل مختلف عن شكل حيواناتنا • وتزور المكان كثير من السفن التجارية ، وهى تبادل على ما تجلب من بضائع بأنياب الفيلة والعنبر ، الذى يكثر وجوده على سواحل الجزيرة ، نتيجة لامتلاء البحر بالحيتان •

ويشتبك شيوخ الجزيرة فى الحرب أحيانا بعضهم مع بعض ، ويبدى قومهم بسالة كبيرة فى القتال واحتقارا للموت (٨) وليس لديهم خيول ولكنهم يقاتلون ممتطين الفيلة والجمال • وهم يضعون على ظهور الفيلة قلاعا ، تتسع لما يتراوح بين خمسة عشر الى عشرين رجلا ، مسلحين بالسيوف والحراب والحجارة ، وهى الأسلحة التى يقاتلون بها (٩) وقبل الاشتباك فى القتال يعطون فيلتهم جرعات من الخمر ، ظانين أنها تجعلهم أكثر حيوية وأشد ضراوة فى الهجوم (١٠) •

الفصـــل الثامن والثلاثون

عن مجموعة الجزر الوفيرة ببحر الهنـــد .

عنـــد معالجة ولايات الهند ، لم أصـــف منها الا أهمها وأعظمها شهرة ، وفعلت نفس الشيء ازاء الجزر ، التى تبلغ فى العدد مالا يصدقه عقل . وسمعت حقا من ملاحى هـــذه البلاد وأبرز ربابنتها، كما قرأت فى كتابات من شقوا بسفنهم عباب البحار الهندية ، أنها تبلغ مالا يقـــل عن اثنتى عشرة ألفا وسبعمائة جزيرة بما فيهـــا الآهلة بالســـكان والخالية منهم (١) . يمتد القسم المسمى بالهند الكبرى من المعبر الى كزما كوران ، ويضم ثلاث عشرة مملكة كبيرة ، عددنا منها عشرا . وتبدأ الهنـــد الصغرى عند زيامبـــا وتمتـــد حتى مورفيلى ، مشتملة على ثمانى ممالك ، عدا ما يوجـــد منهـــا بالجزر وهى كثيرة العـــدد جدا . وسنتحدث الآن عن الهنـــد الثانية أو الهند الوسطى ، التى تسمى آباسكيا (٢) .

الفصـــل التاسع والثلاثون

عن الهند الثانيـــة أو الوسطى
المسماة أباسكيا (عن الحبشة) •

ان أباسكيا قطر فسيح الأطراف، يسمى بالهند الوسطى أو الثانية • وملكها الرئيسى يدين بالمسيحية • فأما الملوك الآخرون وعددهم ستة وهم تابعون للملك الأول ، فثــلاثة منهم مسيحيون وثلاثة مسلمون (١) وقد نبئت أن المسيحيين بهذه الأصقاع يسمون أنفسهم ، لكى يعرفوا على هذا الدين، بثلاث علامات أو سمات (على الوجه) ، واحدة منهــا عــلى الجبين وواحدة على كل خد ، وهى توسم بحــديدة محماة ، ويمكن اعتبارها تعميدا ثانيا بالنار ، بعد الذى كان بالماء • فأما المسلمون فليس لديهم الا علامة واحدة ، توجد فى الجبهة وتصل الى منتصف الأنف • على أن اليهود الذين يكثر عددهم هنا أيضا لهم علامتان تجعلان على الخدين •

وتقع عاصـــمة الملك الرئيسى المســـيحى فى وســـط البلاد (٢) • فأما ممتلكات الأمراء المسلمين فتقع فى اتجاه ولاية عدن (٣) وتم تنصير هذا الشعب على يد الرسول المجيد القديس توما ، الذى ما لبث بعد أن بشر بالانجيــل بمملكة النوبة وهدى سكانها للنصرانية ، أن زار أباسكيا ، وهنـــا تمكن بفضل تأثير أحاديثه ، وقيامه بالمعجزات من بلوغ نفس الأثر • ثم انتقل بعد ذلك للاقامة بولاية المعبر ، حيث نال بعد تنصيره عددا لا حصر له من الأفراد ، تاج الشهادة كما ذكرنا آنفا ودفن بنفس المكان • وسكان آباسكيا هؤلاء قوم

شجعان ومقاتلون أشداء ، وذلك لتمرسهم دوما بالقتال مع سلطان عدن وآهالى النوبة ، وكثير غيرهم ممن تتاخم بلادهم بلادهم • ونتيجة لممارسة النزال التى لا تقف عند حد، يعدون خير جند فى هذا الجزء من العالم (٤) •

وبلغنى أنه فى عام ١٢٨٨ ، عقد ذلك الأمير الحبشى العظيم العزم على أن يزور بنفسه القبر المقدس للمسيح ببيت المقدس ، وهو حج يؤديه كل عام عدد هائل من رعاياه ، ولكن ثناه عن عزمه كبار رجال حكومته ، الذين صوروا له الأخطار التى سيتعرض لها أثناء مروره بهذا العدد الضخم من الأماكن التابعة للمسلمين أعدائه • وعندئذ صمم أن يرسل الى هناك أسقفا ليكون ممثلا له ، وهو رجل ذو شهرة عالية بالقداسة والورع ، ولما أن وصل الى بيت المقدس تلا الصلوات وقدم القرابين التى أوصى بتقريبها الملك • ومع هذا ، فانه فى أثناء عودته من تلك المدينة مخترقا ممتلكات سلطان عدن ، أمر ذلك السلطان به فقدم الى حضرته وحاول اقناعه باعتناق الاسلام • فلما أن رفض بالقدر المناسب من الحزم أن يتخلى عن دينه المسيحى ، أمر به السلطان فختن مستخفا بغضب العاهل الحبشى ، ثم أمره بالرحيل • فلما أن وصل وقدم تقريرا بما أنزل به من اهانة وعنف ، أصدر الملك أوامره على الفور بحشد جيش ، سار على رأسه ، بقصد القضاء على السلطان ، الذى دعا بدوره لمعاونته اثنين من الأمراء المسلمين من جيرانه ، فانضما اليه بقوات ضخمة جدا • ودار عقب ذلك قتال ، انتصر فيه الملك الحبشى ، حتى اذا استولى على مدينة عدن أسلمها ليد السلب والنهب، انتقاما للاهانة التى لحقته فى شخص أسقفه (٥) •

ويعيش سكان هذه المملكة على القمح والأرز واللحم واللبن • وهم يستخرجون الزيت من السمسم ، ولديهم كثرة موفورة من جميع المواد الغذائية • وتوجد بالبلاد فيلة

وأسود وزرافات وأضرب كثيرة من حيوانات أخرى ، كحمر الوحش والنسانيس التي لها شكل الناس ، فضلا عن كثير من الطيور ، البرية والمنزلية (٦) • وهي غنيــة بالذهب غني مفرطا (٧) ، ويقصدها التجار كثيرا ، فيحصلون من ورائها على مكاسب كبيرة • وسنتحدث الآن عن ولاية عدن •

الفصـــل الأربعـــون

عن ولاية عدن (١) ٠

ويحـــكم ولاية عدن ملك ، يتلقب بالســـلطان (٢) ٠ وجميع الأهالى بها مسلمون ويمقتون المسيحيين أشد المقت ٠ ويوجد بهذه المملكة كثير من المدن والقلاع ، كما أنها تمتلك مزية مهمة ، هى ميناء ممتازة تؤمها السفن القادمة من الهند محملة بالعقاقير والأفاويه ٠ والتجار الذين يشترونها بقصد نقلها الى الاسكندرية ، ينزلونها من السفن التى استوردت فيها ويوزعون الحمولات على باركات أو سفن أصغر حجما ، يمخرون بها خليجا من البحـــر مدة عشرين يوما ، تزيد أو تقل ، حسب الجو الذى يلاقونه ٠ حتى اذا بلغـــوا ميناءهم حملوا بضائعهم على ظهور الجمال ، ونقلوها برا (فى رحلة ثلاثين يوما) حتى يصلوا نهر النيل ، وهناك توضع للمرة الثانية فى سفن صغيرة ، تسمى « الجرم Jerms » فيحملها تيار ذلك النهر الى القاهرة ، ومنها تنقل فى النهاية بقناة صناعية تسمى «الكاليزى» (Kalizene) الى الاسكندرية (٣) ٠ وهذا أقل الطرق التى يسلكها التجار ببضائعهم المنتجة ببلاد الهند طولا ومشقة ، من عدن الى تلك المدينة ٠ وفى ميناء عدن هذا ، يشحن التجار أيضا عـــددا ضخما من الخيـــول العربية ، التى يحملونها للبيع بجميع جزر الهند وممالكها ، حاصلين فيها على أثمان مرتفعة ومحققين مكاسب ضخمة (٤) ٠

ويملك ســـلطان عدن كنوزا طائلة ، مما يجمعـــه من المكوس التى يفرضها كذلك على البضائع التى ترد من الهند ،

فضـــلا عن تلك التى تشحن فى موانيه بوصـــفها البضـــائع المقابلة ، وذلك نظرا لأن عدن أضخم سوق بتلك المنطقة ، لتبادل السلع ، كما أنها المكان الذى تلجأ اليه جميع السفن التجارية • وبلغنى أنه عندما قاد سلطان بابل (: القاهرة) جيشه أول مرة على مدينة عكا ، واستولى عليها ، زودته مدينة عدن هذه بثلاثين ألف حصان وأربعين ألف جمل ، بدافع من حقدها على المسيحيين (٥) • وســنتحدث الآن عن مدينـــة أسكيير •

الفصل الحادى والأربعون

عن مدينة اسكيير ٠

حاكم هذه المدينة مسلم ، يحكمها بعدل تضرب به الأمثال، تحت السيادة العليا لسلطان عدن ٠ وبعدها عنها يقارب أربعين ميلا الى الجنوب الشرقى (١) ٠ وتخضع لها كثير من المدن والقلاع وميناؤها صالحة لرسو السفن ، ويزورها كثير من السفن التجارية القادمة من الهند ، والتى تعود منها حاملة عددا من الخيول الصافنات ، التى تلقى أعظم التقدير بتلك البلاد وتباع بها بأسعار طائلة ٠

وتنتج هذه المنطقة مقدارا عظيما من اللبان الأبيض ، يعد من أجود الأنواع (٢) ٠ وهو يسيل قطرة قطرة ، من شجرة صغيرة معينة تشبه شجر التنوب Fir ويجرح الناس جسم الشجرة بين حين وآخر ، أو ينزعون لحاءها ، ومن هذا الجرح ، ينضح اللبان رويدا رويدا ثم لا يلبث بعد ذلك أن يتجمد ٠ وحتى لو لم تخدش الشجرة فقد كان يحدث النضح مع ذلك نتيجة لفرط حرارة الجو ٠ وبها أيضا كثير من النخل الذى ينتج مقادير موفورة من أجود البلح ٠ ولا يزرع بهذه البلاد من الحبوب عدا الأرز والدخن ، ومن ثم يستدعى الحال الحصول على مواد غذائية أخرى من المناطق الأخرى ٠ ولا تصنع خمرهم من العنب ، وانما يجهز الناس شرابا من الأرز والسكر والبلح ، وهو شراب لذيذ الطعم(٣) ٠ ولديهم نوع صغير الحجم من الغنم ، لا تقع أذناه بنفس موقعها مع بقية أصناف ذلك النوع ، حيث ينمو فى مكانهما قرنان

صفيران ، وهناك أسفل قليلا فى اتجاه الأنف فتحتان تقومان بعمل الأذنين ٠

وهؤلاء الناس صيادو أسماك مهرة ، يصيدون التونة بمقادير ضخمة ، حتى لقد يباع اثنان منها بفروت بندقي ٠ وهم يجففونه في الشمس (٤) ، ونظرا لأن البلاد أصبحت بسبب شدة الحر تكاد تحترق بالرمضاء ، ومن ثم لا يشاهد بها أى نوع من أنواع النبات ، فانهم يعودون ماشيتهم وأبقارهم وأغنامهم وخيولهم على الاغتذاء بالسمك المجفف ، الذى أصبحت تلك السائمة تتناوله بغير مضض، لأنه يقدم، اليها بغير انقطاع ٠ والأسماك المستخدمة لهذا الغرض من الأنواع الصغيرة ، التى يصطادونها بكميات ضخمة أثناء شهور مارس وأبريل ومايو ، فاذا تم تجفيفها خزنوها في بيوتهم طعاما لماشيتهم٠ ومع هذا فان الماشية لا تأبى الاغتذاء أيضا بالسمك الطازج ، وان تعودت بالأكثر تناوله جافا ٠ ونتيجة كذلك لندرة الحبوب يصنع الأهالى ضربا من الخشكنان (البسكوت) من مادة الأسماك الأكبر حجما على النحوالتالى : فانهم يقطعونها قطعا صغيرة جدا، ويبللونها بشراب يغلظونه ويجعلونه لزاقا بما يخلطونه به من الدقيق ، الذى يضفى على الخليط قوام العجينة ٠ ثم يشكلون العجينة أقراصا شبيهة بالخبز ، فيجففونها بعد ذلك ويجمدونها بتعريضها للشمس المحرقة ٠ وتخزن كمية من هذا الخشكنان لتستخدم فى الاستهلاك على مدار السنة ٠ ويبلغ من شدة رخص اللبان سالف الذكر بتلك البلاد أن يشتريه الحاكم بسعر عشر بيزنطيات (دوقيات ذهبية) لكل قنطار ، ثم يتولى هو بدوره بيعها ثانية للتجار بأربعين بيزنطية ٠ وهو يفعل هذا بارشاد سلطان عدن (٥) الذى يحتكر كل ما تنتجه المنطقة بالسعر السالف ، ويجمع مكسبا ضخما من اعادة بيعه ٠ واذ لم يبق شيء يستحق الذكر فى هذا المكان ، فاننا سنتحدث الآن عن مدينة دولفار ٠

الفصل الثاني والأربعون

عن مدينة دولفار •

تعد دولفار مدينة أو بلدة كبيرة وذات شأن ، وتبعد عشرين ميلا عن اسكيير (الشحر) ، في اتجاه جنوبي شرقي (١) • وسكانها مسلمون ، كما أن حاكمها خاضع لسلطان عدن (٢) • ويقع هذا المكان قرب البحر وله ميناء جيدة تقصدها كثير من السفن • وتحشد هنا أعداد من الخيول العربية التي ترد من داخلية البلاد ، والتي يشتريها التجار ويحملونها الى بلاد الهند ، وفيها يكسبون مكاسب طائلة بالتصرف فيها بالبيع • وكذلك اللبان فانه ينتج هو الآخر هنا ، ويشتريه التجار • وتقع في دائرة اختصاص دولفار (أو ظفار اليمن) مدن وقلاع أخرى • وسنتحدث الآن عن خليج قلاياتي •

الفصل الثالث والأربعون

عن مدينة قلاياتى ·

ان قلاياتى انما هى مدينة كبيرة ، تقع على خيلج يسمى خليج قلاتو ، يبعد عن مدينة ظفار بما يقارب خمسين ميسلا الى الجنوب الشرقى (١) · والناس هنا من أتبـاع شريعـة محمد ، كما أنهم خاضعون لسيادة ملك هرمز (٢) الذى يلجأ عندما تهاجمه وتضيق عليه الخناق دولة أخرى الى الاحتماء بهذه المدينة التى هى من بالغ القوة فى حد ذاتها ، ومن حسن الموقع الممتاز ، بحيث انهـا لم تقع اطلاقا حتى الآن فى يد عدو (٣) · ولما كانت المنطقة المحيطة بها لا تنتج أى نوع من أنواع الحبوب ، فانها تستورد من مناطق أخرى · وميناؤها مرفأ جيد ، وتصل اليه من الهند كثير من السفن التجارية ، التى تبيع قطع القماش والتوابل بمكاسب بالغة ، وذلك لأن الطلب عليها جسيم لتزويد المدن والقلاع الواقعة على مسافة من الشاطىء (٤) ثم تعود السفن بالمثـل فتحمـل وسقات من الخيل ، يبيعونها فى بلاد الهند بأسعار مجزية ·

وتقع القلعة فى موقع منيع عند مدخـل خليج قلاتو ، بحيث لا تستطيع مركب الدخول اليه أو الخروج منـه بغير اذن منها · ويحدث أحيانا أن يشق ملك هذه المدينة ، الذى تربطه ارتباطات معينة مع ملك كرمان كما أنه من أتباعه ، عصا الطاعة ، لأن الملك الأخير فرض عليـه دفع مبـالغ غـير عادية · فاذا هو رفض دفع المطلوب منه ، وجرد عليه مولاه جيشا لاجباره على الاذعان ، غادر هرمز ، واتخـذ قلاياتى

مركزا له ، حيث يصبح فى امكانه منع أية سفينة من الدخول أو الاقلاع • ومتى تعطلت التجارة على هذا النحو يحرم ملك كرمان من الرسوم التى يجبيها ، ومتى وقع عليه بسبب ذلك ضرر بليغ فى ايراداته ، اضطر الى تسوية نزاعه مع الملك • والواقع اذن أن الحصن المنيع القائم بهذا المكان ، لا يشكل بالفعل فقط مفتاحا للخليج بل وأيضا للبحر نفسه ، وذلك لأن المقيم بالحصن يمكنه فى كل الأوقات اكتشاف السفن التى تمر (٥) •

وعلى الاجمال يعيش سكان هذه المنطقة على البلح والسمك ، سواء منه الطازج والمملح ، وذلك لأن لديهم على طول المدى مقادير ضخمة منهما كليهما (٦) ، على أن ذوى المكانة أو القدرة المالية من الناس يحصلون على القمح ليتغذوا به من بلاد أخرى • وعند مغادرة قلاياتى ، والتقدم ثلاثمائة ميل نحو الشمال الشرقى تصل الى جزيرة هرمز •

الفصل الرابع والأربعون

عن هرمز ·

يوجد على جزيرة هرمز مدينة جميلة وكبيرة مبنية قرب الشاطىء تماما (١) · ويحكمها ملك ، وهو لقب يعادل لقب أمير الثغور (التخوم) عندنا ، ولديه كثير من المدن والقلاع الخاضعة لسلطانه · والسكان مسلمون يعتنقون جميعا عقيدة محمد ·

والحرارة التى تخيم هنا مفرطة ، ولكن القوم يتزودون بكل بيت بمراوح ، يدخلون بواسطتها الهواء الى مختلف الطوابق ، والى كل شقة من شقق المنزل حسب الارادة · فلولا هذه الوسيلة ما أمكن العيش بتلك المنطقة (٢) · ولن نزيدك الآن بيانا عن هذه المدينة ، لأننا أعطينا الكفاية فى كتاب سابق عنها ومعها كيسى وكرمان (٣) ·

الآن وقد عالجنا بالتطويل الكافى ، ولايات الهند الكبرى ومدنها ، التى تقع قرب ساحل البحر ، فضلا عن بعض أقاليم أثيوبيا ، المسماة بالهند الوسطى ، فاننى سأعود أدراجى ، قبل اختتام الكتاب، رغبة فى ملاحظة بعض الأقاليم التى تقع فى اتجاه الشمال وأغفلت الحديث عنها فى الكتب السابقة ·

ومن ثم ينبغى أن يكون معلوما ، انه يقيم فى الأجزاء الشمالية من العالم كثير من التتار تحت رئيس اسمه قايدو ،

وهو من عترة جنجيزخان ، ومن الأقرباء الأدنين لقبلاى ، الخان الأعظم (٤) • وهو ليس تابعا لأى أمير آخر (٥) •

ويرعى الناس عادات وأعراف أجدادهم ، ويعتبرون تتاراً أصلاء • وهؤلاء التتار عبدة أوثان ، ويعبدون ربا يسمونه نا آجاى (Naagai) ، أى رب الأرض ، لأنهم يظنون ويؤمنون بأن ربهم هذا له السلطان فى الأرض ، وعلى كل ما تخرجه من أشياء ، ويضعون لربهم هذا الزائف اوثانا وتماثيل من لباد، على ما أسلفنا اليك صفته من كتاب سابق • وملكهم وجيوشه لا يتحصنون فى قلاع ولا حصون ولا حتى فى مدن ، ولكنهم يظلون ، فى كل الأوقات ، فى السهول الطلقة أو الوديان أو الغابات ، التى تملأ فجاج تلك المنطقة •

وليس لديهم حبوب أيا كان نوعها ، ولكنهم يعيشون على اللبن واللحم ، ويتعايشون بعضهم مع بعض فى انسجام تام ، اذ ليس لملكهم ــ الذى يقدمون اليه طاعة مطلقة ، من هدف أعز من الاحتفاظ بحبل الوئام والسلام بين رعاياه ، وهو الواجب الجوهرى لأى عاهل • وهم يمتلكون رعلانا هائلة من الخيل ، والبقر ، والغنم ، وغيرها من الحيوانات المنزلية •

ويوجد بهذه المناطق الشمالية دببة بيضاء اللون ، هائلة الحجم ، طول الواحد منها فى أغلب الحالات عشرون شبرا (٦) • وبها أيضا ثعالب ، فراؤها سوداء فاحمة كلها (٧)، وأعداد غفيرة من حمر الوحش ، وحيوانات صغيرة معينة اسمها الروند Rondes لها فراء بالغة الرقة ويسميها الناس عندنا فراء السمور أو الزيبلين Zibelines (٨) وفضلا عن هذه ، فان هناك أنواعا أخرى من الدويبات من نوع الدلق وابن عرس ، والنوع الذى يسمونه فأرة فرعون • وأسراب هذا الحيوان الأخير • لا يصدق العقل أعدادها ،

ولكن التتار يستخدمون وسائل شديدة البراعة فى امساكها بحيث لا تستطيع واحدة منها أن تفلت من أيديهم •

ومن الضرورى لمن شاء وصولا الى وطن هذا الشعب أن يقوم برحلة أربعة عشر يوما عبر سهل فسيح وبطحاء، لا يسكنها أحد على الاطلاق ـ وهى حالة ترتبت عن كثرة ما فيه من تراكمات الماء والينابيع التى تحوله بأكمله الى مستنقع (٩) ثم لا يلبث هذا المتسع كله أن يتجمد نتيجة لطول مدة فصل البرودة ، فيما عدا بضعة أشهر من السنة تذيب فيها الشمس الثلوج ، وتحيل التربة الى طين ، يكون السفر عليه أصعب وأعسر مما لو كان جليدا كله •

ومع هذا فان هؤلاء القوم عمدوا لكى يمكنوا التجار من ارتياد بلادهم وشراء فرائهم التى هى السلعة التجارية الوحيدة لديهم ، الى أن يبذلوا الجهد لجعل عبور هذه البطحاء المستنقعية ممكنا للرحالة بتشييدهم بيتا خشبيا عند نهاية كل مرحلة يوم يرتفع قليلا عن سطح الأرض ، وبه ينزل أشخاص ، يتولون استقبال التجار ومنحهم وسائل المقام والراحة ، وارشادهم فى اليوم التالى الى المحطة التالية من هذا النوع ، وهكذا يتقدمون من مزلفة الى مزلفة ، حتى يتموا عبور البطحاء (١٠) ولكى يتمكنوا من السفر فوق سطح الأرض المتجمد ، ينشئون نوعا من المركبة لا يختلف عن مثيلتها التى يستخدمها سكان المناطق الجبلية شديدة الانحدار والتى يكاد يتعذر عبورها بالمناطق المجاورة لبلادنا ، وهى التى تسمى (تراجولا) أو زلاقة •

وهى خالية من العجلات ومسطحة القاع ولكنها تعلو من الأمام بانحناءة شبه دائرية ، وبهذا التركيب تصبح لائقة للجرى بسهولة على الجليد (١١) • وهم يحتفظون لجر هذه العربات الصغيرة بأنواع معينة من الحيوانات تشابه الكلاب، بل يمكن تسميتها بهذا الاسم ، وان بلغت حجم الحمير •

وهى قوية جدا ومتمرسة بالجر (١٢) . وتربط ستة منها فى أزواج بكل عربة ، والعربة لا تحمل الا السائق الذى يسوق الكلاب وتاجرا واحدا مع حمولته من البضائع (١٣) .

فاذا تمت رحلة النهار ، غادرها هو ومجموعة الكلاب تلك ، واذ يغيرهما التاجر كليهما ، من يوم لآخر على هـــذا النحو ، فانه يتم فى النهاية رحلته عبر البطحاء ، ثم يحمل معه بعد ذلك (فى طريق عودته) الفراء التى تأخذ طريقها لتباع فى هذا القسم الذى نسكنه من العالم .

الفصل الخامس والأربعون

عن الأقاليم التى تسمى منطقة الظلمات ·

توجد بعد أقصى أجزاء بلاد هؤلاء التتار بعدا ، وهى التى يتم فيها الحصول على الجلود التى تحدثنا عنها ، منطقة أخرى ، تمتد الى أقصى الأطراف الشمالية وتسمى منطقة الظلمات ، وذلك لأن الشمس لا ترى فيها أثناء معظم شهور الشتاء ، كما أن الجو معتم بنفس الدرجة على نحو يشبه ما نجده قبيل انبثاق فجر النهار ، حين يمكن القول عنا اننا نرى واننا لا نرى (١) ·

ورجال هذا القطر ضخام البنية طوال القامة ، ولكن بشرتهم شاحبة جدا · ولا تربطهم معا حكومة ملك أو أمير ، كما أنهم يعيشون بغير ما قوانين مستقرة وعادات مرعية ، بل وفق الخليقة البهيمية · وأذهانهم كليلة أيضا ويريم عليهم جو من الغباء (٢) · وكثيرا ما يقدم التتار على حملات نهب وسلب على هؤلاء الأقوام بغية اغتصاب ما لهم من ماشية وبضائع ·

وهم من أجل ذلك ينتهزون فرصة تلك الشهور التى تعم فيها الظلمة البلاد ، حتى لا يحس أحد باقترابهم ، ولكن لعدم قدرتهم من التحقق من الاتجاه الذى ينبغى أن يسلكوه للعودة الى ديارهم بما نهبوه من غنائم، فانهم يتخذون حيطتهم من أن يضلوا الطريق ، بركوب أفراس لها أفلاء صغيرة فى ذلك الوقت ، فيسمحون للصغار بمصاحبة أمهاتها حتى تخوم

بلادهم ، ولكنهم يتركون الصغار تحت الرعاية الواجبة عند بداية المنطقة المعتمة · ومتى أتموا عمليتهم بمناطق الظلام واشتهوا العودة الى منطقة الضياء ، وضعوا العنان على اعناق الافراس وتركوها حرة فى اتخاذ طريقها ·

وهنا تعمل غريزة الأمومة عملها فتقتادها مباشرة الى المكان الذى تركت فيها صغارها ، وبهـذه الوسـيلة يتمكن الراكبون من العودة بسلام الى محل اقامتهم ·

وينتهز سكان هذه المنطقة (القطبية) فرصـة فصـل الصيف ، حين يستمتعون بنهـار دائم الضياء ، فيمسـكون بأعـداد غفيرة من حيـوان القـائم (الارمين) ، والدلق ، والأركولين (أو العرسة الرمادية والأركولين)(٣) والثعالب ، وحيوانات أخرى من هذا القبيل ، وهى حيوانات فراؤها أنعم وأرق ، فهى من ثم أثمن كثيرا ، من الحيـوانات الموجـودة بالمناطق التى يسكنها التتار ، الذين ، يدفعهم الجشع من أجل ذلك الى القيام بحملات السلب التى سبق وصفها .(٤) · وفى أثناء الصيف أيضا يحمل هؤلاء القوم فراءهم الى الأقاليم المجاورة حيث يتصرفون فيها بالبيع بطريقة مجزية لهـم الى أقصى حد ، وطبقـا لما سمعته فان بعض ذلك الفراء يحمـل حتى يصل الى الروسيا عـلى بعـدها (٥) وهى البـلاد التى سنتحدث عنها فى هذا الجزء الختامى من عملنا ·

الفصل السادس والأربعون

عن ولاية الروسيا (١) ٠

ان ولاية الروسيا ، وهى ولاية مترامية الأطراف ، تنقسم الى أجزاء كثيرة ، وتتاخم تلك الشقة الشمالية التى وصفت بأنها منطقة الظلمات (٢) ٠ وسكانها مسيحيون يتبعون الطقوس اليونانية فى صلواتهم ومراسمهم الكنسية ٠ والرجال فيها حسان الوجوه الى آخر حد ، طوال القامة ، شقر البشرة ، فأما النساء فهن شقراوات أيضا ممتلئات الأجسام ، مع شعر فاتح ، تعودن ارساله طويلا ٠ وتدفع البلاد الجزية لملك التتار الغربيين ، الذين تتاخم حدودها الشرقية ممتلكاتهم (٣) ٠ وفيها تجمع بوفرة هائلة فروات التواقم والأركولين ، والسمور الأسود ، والدلق (العرسة الشهباء) والثعلب ، وحيوانات أخرى من هذه القبيلة مع قدر كبير من الشمع (٤) ٠ وهى تحتوى على مناجم عديدة ، يحصل منها على مقدار كبير من الفضة (٥) ٠ والروسيا اقليم مفرط البرودة ، كما أكد لى العليمون بالأمور أنها تمتد حتى تبلغ المحيط الشمالى ، حيث تصاد السناقر والبزاة الجوالة فى أعداد هائلة ، كما أسلفنا اليك فى جزء سابق من الكتاب ، وهى تحمل من هناك الى مختلف أجزاء العالم ٠

الفصل السابع والأربعون (١)

عن تركيا الكبرى ·

يوجد بتركيا الكبرى ملك اسمه قايدو ، وهو ابن أخي الخان الأعظم ، لأنه ابن ابن كياجاتاى (أو جاغتاى) شقيق الخان الأعظم (٢) · وهو يملك مدنا وقلاعا كثيرة ، كما أنه سيد عظيم جدا · وهو تترى كما أن رجاله هم أيضا من التتار وهم من خيرة المقاتلين ، ولا عجب فى هــذا ، لأنهم جميعــا رجال نشئوا على التمرس بالحرب ، وانى لأقرر لك أن قايدو هذا لم يذعن بالطاعة اطلاقا للخان الأعظم ، قبل أن يخوض معه أولا ، غمار حرب عظمى · ولا يغيبن عن بالك أن تركيا الكبرى هذه تقع الى الشمال الغربى منا ونحن نغادر هرمز ، بالطريق سالف الذكر ·

وتقع تركيا الكبرى وراء نهر ايون (٣) وتمتد منبسطة شمالا حتى ممتلكات الخان الأعظم · وخاض هذا الملك قايدو معارك كثيرة مع الشعوب التابعة للخــان الأعظم ، وســأقص عليك كيف اشتبك معه فى خلاف ·

ينبغى أن تعلم علم اليقين أن قايدو أرسل ذات يوم الى الخان الأعظم ينبئه أنه يريد نصيب فيما حصــلا عليــه معا بالفتح ، مدعيا لنفسه نصيبا فى ولاية كاثاى وولاية مانجى أيضــا · وأبلغــه الخــان الأعظم أنه راغب ملء فؤاده فى اعطائه نصيبه ، كمــا فعــل مع أبنــائه ، ان هو تردد ، من جانبه ، على بلاطه وحضر مجالسه بقدر ما يكتب اليه طالبــا ذلك ، وأبدى الخان الأعظم ارادته فوق هذا أنه ينبغى له أن

يطيعه كالآخرين : آبائه وباروناته (أعنى نبلاءه) ، وقال الخان الأعظم انه على هذا الشرط سيمنحه نصيبه من فتوحات الصين على ايديهم ٠

ولكن قايدو كان لا يطمئن الى عمه الخان الأعظم ، ومن ثم رفض هذا الشرط قائلا انه يريد أن يقدم له الطاعة وهو فى اقليمه ، ولكنه يأبى الذهاب الى بلاطه على أى اعتبار من الاعتبارات ، وذلك لخوفه من أن يلقى مصرعه ٠

وهكذا نشأ الشقاق بين قايدو والخان الأعظم ، وهو الذى أدى الى اندلاع حرب كبرى ، ونشوب معارك ضخمة ، حامية الوطيس بينهما ٠ ووضع الخان الأعظم جيشا حول مملكة قايدو ، لمنعه هو وشعبه من انزال أى ضرر بممتلكاته أو شعبه ٠

ولكن رغم كل هذه الاحتياطات التى اتخذها الخان الأعظم أغار قايدو على ممتلكاته وقاتل عدة مرات القوات التى وجهت لاعتراضه ومقاومته ٠ والآن استطاع الملك قايدو ، ببذل الجهد الشديد ، أن يحشد فى الميدان مائة ألف راكب ، وكلهم من خيرة الرجال ومن المحنكة المدربين على الحرب والقتال ٠ وفوق هذا ، كان منضما اليه عدة نبلاء (بارونات) من عترة الامبراطور ، أى من نسل جنجيز خان مؤسس الامبراطورية ٠

وسننتقل الآن للحديث عن بعض المعارك التي دارت بين قايدو وشعب الخان الأعظم ، على أننا سنبدأ بوصف طريقة قتالهم ٠ فانهم عندما يخرجون للحرب ، يكلف كل واحد منهم بحمل ستين سهما ، ثلاثون منها ذات حجم أصغر، أعد للرماية عن بعد ، على حين أن الثلاثين الأخرى أكبر حجما ، ولها نصل عريض ، فيعمدون الى استخدام هذه الأخيرة عن قرب ، ويضربون بها أعداءهم فى وجوههم وأذرعهم ، ويقطعون

أوتار قسيهم وينزلون بهم بواسطتها أضرارا فادحة • حتى اذا افرغوا كل سهامهم يستلون سيوفهم ودبابيسهم ، وينقضون بها بعضهم على بعض بضربات عنيفة •

ومن عام ١٢٦٦ ، حشد هذا الملك قايدو ومعه أبناء عمومته ، وكان اسم أحدهم جيسودار ، جشدا عرمرما من الناس ، هاجم به اثنين من نبلاء الخان الأعظم ، كانا هما أيضا من أبناء عمومة الملك قايدو ، وان توليا حكم بلادهما بتنصيب من الخان الأعظم • وكان اسم أحدهما تاباي أو كيبان • وهما من أبناء كياجانا (جاغتاى) ، الذي تلقى تعميدا مسيحيا ، وكان شقيقا للخان الأعظم قبلاى • والآن ، خاض قايدو ورهطه غمار معركة مع ابني عمه هذين ومعهما أيضا جيش عظيم ، وذلك لأنه كان هناك زهاء مائة ألف خيال فى كل جانب من الجانبين •

وحمى وطيس القتال بين الفريقين ، وقتل الكثيرون من كل من الجانبين، ولكن المعركة انتهت أخيرا بفوز الملك قايدو بالنصر ، وانزال دمار فادح بأعدائه •

ولكن الأخوين ابنى عم الملك قايدو ، فرا دون أن يصابا بأذى ، وذلك لأنهما كانا يمتطيان جوادين فارهين حملاهما بعيدا بأعظم سرعة • فلما أن أحرز قايدو النصر على ماتري، تزايد كبرياؤه وصلفه ، وعاد الى بلاده ، حيث أقام سنتين كاملتين فى سلام دون نشوب أى قتال بينه وبين الخان الاعظم ولكن قايدو عاود عند نهاية السنتين حشد جيش عظيم •

وكان يعلم أن ابن الخان الأعظم المدعو نوموجان كان في قره قورم ، وأنه كان معه جورج حفيد البريسترجون ، ومع (الأميرين) أيضا ، جيش جرار من الفرسان • فلما أن جمع الملك قايدو جموعه ، زحف من بلاده ، وبلغ ، بغير أحداث تستحق الذكر المنطقة المجاورة لقره قورم ، حيث

تجمع الأميران ، وهما ابن الخان الأعظم ، وحفيد البريسترجون ، مع جيشهما • وبدلا من أن يتسرب الخوف الى قلب الأميرين ، استعدا لملاقاتهم بكل حمية وشجاعة ، حتى اذا تم للقائدين حشد جيشهما بأكمله ، وكان مؤلفا من عدد لا يقل عن ستين ألف فارس ، زحفا وعسكرا على خير وجه وأحسن نظام وعن بعد حوالى عشرة أميال من الملك قايدو ، الذى كان معسكرا برجاله بنفس السهل •

وظل الطرفان مقيمين بمعسكريهما حتى اليوم الثالث ، وهما يعدان العدة للقتال على خير وجه ممكن ، وذلك لتعادل أعدادهما تقريبا ، حيث لم تكن عدة أى منهما لتتجاوز الستين ألف راكب ، مسلحين أجود تسليح بالقسى والنبال ، وبسيف ودبوس وترس لكل •

وكان كل جيش مكونا من ستة كراديس بكل منها عشرة آلاف رجل ، ولكل منها فائدة • فلما تراءى الجمعان محتشدين فى الميدان ، ولم تبق الا الاشارة بقرع النقرزان (٤) ، رفعا عقيرتهما بالغناء وعزف الآلات الموسيقية بطريقة معجبة بديعة • وذلك لأنه لا يسمح للتتار بالشروع فى القتال، حتى يسمعوا نقارات قائدهم وقد أخذت تقرع ولكن ما تكاد تقرع حتى يشرعوا فى القتال ، كما أن من عاداتهم ـ وهم ينتظرون على هذا النحو ـ اشارة المعركة ـ أن يغنوا ويعزفوا على آلاتهم ذات الوترين بطريقة عذبة شجية ، ويمتلئون بالشدو والبهجة •

وما كاد النقرزان يسمع حتى ابتدأت المعركة ، ووضعوا أيديهم على قسيهم وثبتوا النشاب فى الوتر • وما هى الا لحظة حتى امتلأ الجو بسهام كأنها المطر ، وحتى كنت ترى الكثير من الرجال والكثير من الخيل ، قد سقطوا صرعى ، وحتى علا الصياح والعجيج الى عنان السماء ، وأصبح من العسير على المرء أن يسمع رعد الاله • والحق انهم تقاتلوا كأنهم أعداء الداء •

والحق انه مادام لدى الفرد فيهم أية سهام فى جعبته فان من كان مستطيعا لم يكف قط عن الرماية ، ولكن اشتد القتل وكثر المصابون بجروح مصمية : (قاتلة) • بحيث ان المعركة بدأت بداية لا تبشر بالخير لأى من الطرفين • حتى اذا استنفدوا ما لديهم من سهام ، ألقوا بقسيهم فى قرابها ، وشهروا سيوفهم ودبابيسهم ، ثم اذا هما يندفعان بعضهما على بعض ويشرعان فى كيل الضربات الرهيبة •

وهكذا ابتدءا معركة بالغة الشراسة والرهبة ، وقد أعملا القتل بعضهما فى بعض حتى انه سرعان ما غطيت الأرض بأشلاء القتلى • وقام قايدو بوجه خاص بالمعجب العظيم من آيات القتال ، فلولا بسالته الشخصية ، التى أعادت الشجاعة الى أتباعه ، لأوشكت الهزيمة أن تحيق بهم عدة مرات • فأما فى الجانب الآخر ، فان ابن الخان الأعظم ، وحفيد البريسترجون ، أظهرا كذلك شجاعة عظيمة • وموجز القول ، كانت هذه واحدة من أشد المعارك الدموية التى دارت بين التتار ، وذلك لأنها استمرت حتى أرخى الليل سدوله ، ورغم الجهود العنيفة لم تتمكن أى من الطائفتين من زحزحة الأخرى من الميدان الذى غطته جثث لا عداد لها كان منظرها يثير الحسرة فى النفوس ، فكم من سيدة ترملت فى ذلك اليوم المشئوم ، وكم من ولد تيتم! • وعندما غربت الشمس توقف كل من الجانبين عن القتال ، وعادا الى معسكريهما ليستريحا فى هدأة الليل •

وفى الصباح التالى ، قام الملك قايدو ، بعد أن تلقى معلومات بأن الخان الأعظم ، جرد عليه جيشا جرارا ، بتعبئة جنده بأسلحتهم عند الفجر ، فلما امتطوا جيادهم أمرهم بالمسير نحو بلادهم • وبلغ من اعياء خصومهم من معركة اليوم السابق أن لم يبذلوا أية محاولة لتعقبهم ، بل تركوهم ينصرفون بلا أدنى مضايقة • وواصل جند قايدو تقهقرهم حتى بلغوا سمرقند بتركيا الكبرى •

الفصل الثامن والأربعون

مقالة الخان الأعظم عن الأضرار
التي ألحقها به قايدو ٠

ثارت ثائرة الخان الأعظم بدرجة كبيرة على قايدو ، الذي دأب دوما على إلحاق أضرار جسيمة بشعبه ومملكته ، وقال في نفسه ، لو لم يكن ابن أخيه لما وجب أن ينجو من شر ميتة ٠ بيد أن شعوره بروابط القربى حال بينه وبين القضاء عليه وعلى أراضيه ، وهكذا أفلت قايدو من قبضة الخان الأعظم ٠ وسنترك الآن هذه المسألة ونحدثك حديثا عجيبا عن ابنة الملك قايدو ٠

الفصل التاسع والأربعون

عن ابنة الملك قايدو ، وكم كانت قوية وباسلة ! •

ينبغى لك أن تعرف أن الملك قايدو كانت له ابنة تسمى بلغة التتار آبجيارم (١) ، ومعناها القمـــر المنـــير • وكانت هذه الآنسة من قوة البدن ، بحيث لم يوجد بالمملكة كلها شاب يستطيع التغلب عليها ، اذ كانت تصرعهم جميعا • وأراد أبوها الملك أن يزوجها ، ولكنها أبت ذلك قائلة انها لن تتخذ لنفسها زوجا ، حتى تلتقى برجل يقهرها قوة واقتـبـدارا ، فأعطاها أبوها وعدا مكتوبا بأنها تستطيع أن تتزوج بملء ارادتها • فأرسلت الى كافة أرجاء العالم رجالا يعلنون • أنه اذا جاء أى شاب لمنازلتها واختبار قوته مع قوتها ، فتغلب عليها بالقوة ، فانها ستقبله زوجا لها •

ولم يكد هذا الاعلان يذاع بين النـــاس ، حتى توافد الكثيرون من كافة أرجاء الدنيا ليجربوا حظهم معها • وتمت التجربة بجدية مهيبـــة • واتخذ الملك مقعـــده فى القـــاعة الكبرى للقصر ، مع حشد كبير من الرجال والنساء ، ثم حضرت ابنة الملك فى ثوب من السندال (: فاخر الحرير الرقيق) ، وقد زينت زينة فاخرة ، فتقدمت الى وسط القاعة ، ودخـــل فى اثرها الشاب وقد ارتدى أيضا ثوبا من السندال • وتم الاتفاق على أنه لو تمـــكن الفتى من التغلب عليهـــا بحيث يطرحها أرضا ، فانه سيحظى بها زوجة له •

ولكن لو حدث العكس وقهرته ابنة الملك ، خسر لها مائة

حصان • وبهذه الطريقة حصلت الآنسة على أكثر من عشرة آلاف حصان ، اذ أنها لم تلتق بانسان قادر على التغلب عليها، ولا عجب فى ذلك ، فانها كانت من متانة التكوين فى كل أطرافها ، ومن فارع الطول وقوة البنية ، بحيث تكاد تعد فى المردة •

وأخيرا حدث حوالى عام ١٢٨٠ ، أن وفد على القصر ابن لملك ثرى ، كان شديد الجمال صغير السن ، وكانت تصحبه حاشية فائقة ممتازة وأحضر معه ألف حصان من أجمل الجياد •

وما كاد يصل حتى أعلن أنه جاء ليجرب قوته مع الأميرة • واستقبله الملك قايدو بحفاوة عظيمة لشدة رغبته أن يكون هذا الشاب ختنا له (أى زوجا لابنته) ، لعلمه أنه ابن ملك بامار (٢)، وعلى هذا أبلغ قايدو ابنته سرا أنه يريد منها أن تسمح بأن تقهر فى هذه المرة • بيد أنها أبت قائلة ان أى شىء فى هذه الدنيا لا يمكن أن يحملها على فعل ذلك •

وعندئذ تبوأ الملك والملكة مكانيهما فى القاعة ، مع حشد عظيم من الجنسين ، وقدمت ابنة الملك نفسها على جارى العادة ، وكذلك فعل ابن الملك الذى استرعى الأنظار بجماله بقدر ما استرعاها بقوته وشدة مراسه • والآن ، فلقد اتفق عندما أحضر الطرفان الى القاعة ، بناء على سمو رتبة الخاطب، أن يكون شرط التجربة أنه اذا قهر الأمير الصغير ، وجب أن يخسر الألف حصان التى أحضرها معه للرهان • فلما أن تم هذا الاتفاق ، بدأ الصراع ، وتمنى كل من كان هناك بما فيهم الملك والملكة من كل فؤادهم ، لو كان الأمير هو الفائز ، وأصبح هو زوج الأميرة •

ولكن الأمور جرت على عكس آمالهم ، فبعد الكثير من الشد والجذب فازت ابنة الملك بالنصر ، وألقى الأمير الشاب على افريز القصر ، وخسر خيله الألف •

ولم يبق فى القـاعة انسـان لم ينتحب على ما ناله من هزيمة ٠ وبعد هذا صار الملك يأخذ ابنته معه فى معـارك قتاله العديدة ، فما كان فارس واحد فى جحفله كله ليبدى من البسالة ما كانت تبديه ، وأخيرا اندفعت الفتاة الى وسط الأعداء ، وأطبقت على أحد الفوارس وحملته الى قومها ٠
والآن نترك هذه القصة ونتحرك للحديث عن معـركة كبرى دارت بين قايدو وأرغون ، ابن أباقا سيد ديار الشرق(٣)٠

الفصل الخمسون

كيف أرسل أباقا ابنه أرغون بجيش .

والآن ، فان أباقا سيد الشرق ، كان يملك ولايات كثيرة وبلادا كثيرة ، نتاخم ممتلكات الملك قايدو فى الجانب المتجه نحو الشجرة التى تسمى فى كتاب الاسكندر : « الشجرة الجافة « Arbor Secco » (١) . واضطر أباقا نتيجة للأضرار التى أنزلها الملك قايدو ببلاده الى ارسال ابنه أرغون على رأس عدد ضخم جدا من الخيالة، الى اقليم الشجرة الجافة ، حتى نهر ايون ، حيث أقاموا ابتغاء حماية الاقليم من غارات قوم قايدو . وبهذه الطريقة ظل أرغون ورجاله مقيمين بسهل « الشجرة الجافة » وكونوا من أنفسهم حاميات لكثير من المدن والبلدان المجاورة . وعند ذلك حشد الملك قايدو عددا ضخما من الخيالة ، جعل على امرتهم أخاه براق ، وهو رجل حكيم شجاع ، وأصدر اليه الأوامر بقتال أرغون . ووعد براق بتنفيذ أوامره، وبذل قصارى جهده فى حربه لأرغون وجيشه، ثم زحف بجيشه ، وكان جيشا جرارا ، وتقدم فى زحفه عدة أيام ، دون أن يلتقى بأية حادثة تستحق الذكر ، حتى بلغ نهر ايون ، حيث أصبح على بعد عشرة أميال فقط من جيش أرغون . وعلى الفور استعد الطرفان كلاهما للنزال وبعد اشتباك شرس حامى الوطيس ، شب بعد ذلك بثلاثة أيام ، دارت الدائرة على جيش براق ، الذى لاحقه عدوه بمذبحة عظيمة فوق مياه النهر .

الفصل الحادى والخمسون

وبعد هذا النصر بفترة وجيزة ، تلقى أرغون نبأ وفاة والده أباقا ، فأصابه من ذلك حزن عظيم ، ثم انطلق بجحفله كله ، ماضيا فى طريقه نحو بلاط أبيه ، وهى مسافة رحلتها أربعون يوما ، لكى يتولى الولاية • وقد كان لأباقا أخ اسمه أكومات سلطان ، اعتنق الاسلام ، فلم يكد يسمع نبأ وفاة أخيه أباقا ، حتى دبر خطة الاستيلاء على الملك ، على اعتبار أن أرغون كان على مسافة قاصية لا يستطيع معها منعه من تنفيذ خطته • وعندئذ جمع جيشا قويا وذهب رأسا الى بلاط أخيه أباقا ، واستولى على أزمة الأمور ، وهناك وجد من الكنوز مالا يكاد يصدقه عقل لبالغ ضخامته ، فعمد الى توزيع هذا باغداق على باروتات (أمراء) أباقا وفرسانه ، وبذا ملك أعنة أفئدتهم ، فأعلنوا أنهم لن يرضوا به بديلا • وفوق هذا فان أكومات سلطان أبدى صلاحية عظيمة وأصبح محبوبا من الناس أجمعين • ولكن لم يطل الأمد بسلطانه المغتصب ، حيث ترامت الأنباء بأن أرغون يقترب بجحفل جرار • ولم يبد أكومات أدنى جزع ، بل سارع حتى كان قد جمع عددا لا حد له من الراكبة ، أعلنوا جميعا أنهم على استعداد للزحف على أرغون ، وأنهم لا يبغون شيئا سوى أسره واعدامه •

الفصل الثاني والخمسون

(كيف تقدم أكومات بجيشه لمحاربة ارغون) ٠

عندما اجتمع لأكومات سلطان ستون ألف خيال كاملة ، انطلق فى طريقه لمنازلة أرغون وملئه ، وتوقف بعد مسيرة عشرة أيام ، واذ ترامت اليه الأنباء بأن العدو كان على مسيرة خمسة أيام منه ، وأن عدده يعادل عدد جيشه ٠ وعندئذ نصب أكومات معسكره فى سهل فسيح جميل المنظر ، وآذن الناس بانتوائه انتظار عدوه هناك ، بوصف ذلك موضعا مناسبا للقتال ٠ وما كاد يرتب معسكره ، حتى جمع ملأه ، أشراف القوم وسراتهم ، وخاطبهم قائلا : « أيها الأمراء !٠٠ تعلمون جيد العلم كيف ينبغى لى أن أكون أميرا متمتعا بحق الولاء الاقطاعى على كل ما كان يملكه أخى أباقا ، لأنى كنت ابنا لأبيه واشتركت فى فتح جميع البلاد والأراضى التى نملكها ٠ أجل ان أرغون كان ابنا لأخى أباقا ، وان بعضهم يدعون أن الوراثة تذهب اليه كحق شرعى ، ولكن مع كامل احترامى لكل من يرون هذا الرأى ، فاننى أقول لهم انهم على خطأ ، وذلك لأنه ، كما أن أباه ملك زمام هذه السيادة الضخمة ، فليس الا عدلا أن أتولاها بعد موته ، وكان ينبغى لى بالحق أن يكون لى نصفها أثناء حياته ، وان أتاحت له مكارمى الاحتفاظ بالكل ٠ ولكن لما كان الأمر كما حدثتكم فهيا أرجوكم ولندافع عن حقنا ضد أرغون ، حتى تظل المملكة والسيادة فى أيدينا جميعا ٠ وذلك لأنى أؤكد لكم ان كل ما أرغبه لنفسى هو الشرف والشهرة ، بينما تكون لكم

جميع المغانم والطيبات والسيادات بكل أرجاء بلادنا
وولاياتنا • ولن أقول بعد ذلك شيئا ، وذلك لعلمي أنكم
رجال عقلاء محبون للعدالة ، وأنكم ستتصرفون من أجل
شرفنا وصالحنا جميعا » • فلما انتهى من خطابه أجابه جميع
النبلاء والفرسان وغيرهم ممن كانوا هناك في صيحة واحدة ،
انهم لن يتخلوا عنه مادام بأجسامهم رمق من الحياة ، وأنهم
مساعدوه على الناس جميعا ، وبخاصة على أرغون ، مضيفين
أنهم لا يخشون شيئا ، وأنهم لابد آسروه فسلموه الى يديه •
وبعد هذا بقي أكومات وجيشه في معسكرهم ، منتظرين
اقتراب العدو •

الفصل الثالث والخمسون

كيف عقد ارغون مجلسا مع نبلائه قبل لقاء آكومات .

ونعود الآن الى أرغون ، فانه ما يكاد يتلقى أنباء حركات آكومات ، ويعلم أنه معسكر بهذا الجيش المرمرم ، حتى اشتد به التأثر ، ولكنه رأى الحكمة تقتضيه أن يبدى الشجاعة والحمية أمام رجاله وبعد أن دعا كل نبلائه وحكماء مستشاريه للقائه فى خيمته ، لأنه كان معسكرا أيضا فى منطقة موائمة جدا ، خاطبهم على الوجه التالى : « أيها الاخوة والأصدقاء العادلون ، تعلمون علم اليقين كم كان أبى يحبكم بحنان ، وكيف أنه وهو حى كان يعاملكم كاخوة وأبناء وتعلمون كيف شهدتهم معه كثيرا من المعارك ، وكيف ساعدتموه فى فتح ما ملك من بلاد . تعلمون أيضا أنى ابن لذلك الذى أحبكم حبا جما ، وأنا نفسى أحبكم كأنكم قطعة من جسمى . فمن الحق والعدل اذن ، أن تساعدونى على من يقف ضد العدالة والحق لكى يحرمنا من ارثنا فى أرضنا . وتعلمون فوق هذا كيف انه خرج على شرعتنا ، بل لقد نبذها وتخلى عنها وأصبح مسلما يعبد محمدا ، وكم سيسوؤنا أن نسمح للمسلمين بالولاية على التتار . والآن أيها الاخوان والأصدقاء العدول ، كل هذه الأسباب ينبغى أن تبث فيكم الشجاعة والارادة لبذل قصارى جهدكم للحيلولة دون حدوث شىء كهذا ،

من أجل ذلك أتوسل الى كل فرد فيكم أن يظهر نفسه رجلا شجاعا ، وأن يبرز كل حميته حتى تكون لنا الغلبة فى المعركة ، وحتى تكون السيادة والولاية لكم وليس للمسلمين. والحق ان كل فرد فيكم ينبغى أن يعول على النصر ، ويطمئن اليه، وذلك لأن العدل فى جانبنا وأعداؤنا فى جانب الباطل. ولن أزيدكم بعد هذا شيئا الا أن أتوسل الى كل منكم للمرة الثانية أن يؤدى واجبه » .

الفصل الرابع والخمسون

كيف رد النبلاء على أرغون ·

فلما سمع النبلاء والفرسان الذين كانوا حاضرين خطاب أرغون ، عقد كل منهم عزمه على تفضيل الموت على الهزيمة ، وبينما هم وقوف صامتين متأملين فيما قال ، نهض أحد كبار الأمراء وتحدث على هذا النحو : « مولانا أرغـون العادل ! مولانا أرغون العادل ، نعلم علم اليقين أن ما قلته لنا هـو الحق والصدق ، ولذا فانى سأكون المتكلم باسم رجالك جميعا الذين يقفون معك في خوض هذه المعركة وانهى اليك على الملأ أننا لن نخذلك مادام فينا عرق ينبض بالحياة ، وأننـا نؤثر الموت على عدم ادراك النصر ، ونحن عـلى ثقة من أننا سنهزم أعـداءك ، بسـبب عدالة قضـيتنا ، والبغى الذى اقترفوه ، وبناء على هذا أشير بأن نزحف عليهم من فورنا ، وأرجو كل رفاقنا أن يبلوا فى المعـركة من البـلاء الحسن ما يجعل العالم كله يتحدث بذكرهم » · فلما انتهى هـــذا الرجل من قوله ، أعلن الآخرون جميعـا انهم عـلى رأيه ، وتصايح الجيش بأكمله بأنهم يريدون من قائدهم أن يقودهم بغير امهال ، وطبقا لهذا ، شرع أرغون ورهطه زحفهم فى بكرة صباح اليوم التالى بقلوب مكينة العزم ، فلما أن بلغوا السهل الفسيح الذى عسكر فيه أكومات ، أسسوا معسكرهم على أحسن تنظيم على مسافة عشرة أميال منه تقريبا · وما كاد أرغون يعسكر حتى أرسل رسولين ثقة برسالة الى عمه ·

الفصل الخامس والخمسون

كيف أرسل أرغون رسوليه الى اكومات ٠

عندما بلغ هذان الرسولان الثقة وهما رجلان متقدمان فى السن جدا ، معسكر العدو ، ترجلا عند خيمة أكومات ، حيث كان يحيط به حشد كبير من نبلائه ، فلما آن دخلا عليه سلما بأدب جم ٠ وكان أكومات يعرفهما جيد المعرفة فتلقاهما بنفس الأدب الجم ، وأبلغهما ترحابه بهما وأمرهما بالجلوس بين يديه ٠ وبعد أن ظلا جالسين فترة قصيرة ، نهض أحدهما واقفا على قدميه وألقى رسالته على النحو التــالى : « مولانا العادل أكومات ، يعجب ابن أخيك أرغون لسلوكك فى أخذك مملكته منه ، ومن أقدامك ، الآن كذلك على الحضور للاشتباك معه فى صراع قاتل ، والحق ان هــذا ليس حسنا كما أنك لم تتصرف كما ينبغى أن يتصرف عم نحو ابن أخيه ٠ وبناء على ذلك يبلغك على لساننا أنه يرجوك برفق ، بوصفك ذلك العم والوالد الطيب ، أن ترد اليه حقه ، حتى لا تنشب بينكما معركة ، فيغمرك بكل تكريم وتشريف وتكون مولى على كل أراضيه من دونه ٠ فهذه هى الرسالة التى يرسلها اليك ابن أخيك على يدينا » ٠

الفصل السادس والخمسون

جواب أكومات على رسالة أرغون ·

لما أن سمع أكومات سلطان (صلضان) ، رسالة ابن أخيه أرغون ، أجاب بالتالى : « سيدى الرسول ، ان ما يقوله ابن أخي ، لا يرقى الى شيء ، وذلك لأن الأرض أرضي وليست أرضه ، وقد فتحتها أنا وأبوه على حد سواء ، وبناء عليه ، أخبر ابن أخي أنه لو شاء ، جعلته أميرا عظيما ، وسأعطيه من الأرض القدر الكافي ، وسيكون مني كابني تماما ، وأعلى الأمراء مقاما بعدى · فان لم يفعل ، فلتؤكد له أني سأبذل كل ما في وسعي لأذيقه الحمام · فذلك ما أنتوى فعله بابن أخي ، ولن تحصل مني اطلاقا على أى شيء ولا أى ترتيب آخر » · فلما انتهى أكومات من حديثه سأله الرسولان ثانية : « أهذا كل الجواب الذي ستحصل عليه ؟ » · فأجابهم قائلا : « نعم ، ولن تحصلا على جواب آخر ما دمت حيا » · وانصرف الرسولان على الفور ، وسارا بأسرع ما يمكنهما الى معسكر أرغون ، ثم ترجلا عند خيمته وأبلغاه كل ما حدث · فلما سمع أرغون رسالة عمه ، ثارت ثائرته ، وصاح على مسمع من كل من كانوا قريبين منه : « مادمت تلقيت مثل هذا الاعتداء والاهانة من عمى ، فاني لن أعيش ولن أملك أرضا ما لم أثأر لنفسى بانتقام تتحدث بهوله الدنيا بأكملها ! » وبعد أن نطق هذه الكلمات خاطب نبلاءه وفرسانه قائلا :

« الآن لم يبق لنا من شيء نعمله الا أن ننطلق بأسرع مايمكننا ونذيق هؤلاء الخونة عديمي الوفاء كأس الموت ، وان ارادتي أن نهاجمهم غدا صباحا ونبذل قصارانا في القضاء عليهم» •

وظلوا تلك الليلة كلها يعدون العدة للقتال، واستعد أكومات سلطان للمعركة أيضا وقد علم على جواسيسه بخطط أرغون، ونصح رجاله بأن يتحلوا بالبسالة والاقدام •

الفصل السابع والخمسون

المعركة بين ارغون وأكومات ·

وفى اليوم التالى ، دعا أرغون رجاله الى السلاح ونظمهم بمهارة نظام المعركة ، ثم خاطبهم بنصائح مشجعة ، تقدموا من بعدها نحو الأعداء · وفعل أكومات الشيء نفسه ، والتقى الجمعان أثناء تقدمهما واشتبكا بغير مزيد من المفاوضات · وبدأت المعركة بوابل من السهام كان من الكثافة بحيث بدا كأنما هو مطر هاطل من السماء ، وكنت ترى الراكبة فى كل مكان وقد قذفوا عن صهوات جيادهم وتسمع صيحات وأنات من يرقدون على الأرض مثخنين بالجراح المصمية · فيهولك ما تسمع · حتى اذا استنفدوا ما فى جعابهم من سهام ، استلوا سيوفهم وهراواتهم ، وحمى وطيس القتال نارا متأججة واشتدت الجلبة والصياح ، حتى لم تكن لتستطيع سماع رعد الاله · واشتد الذبح وتعاظم بكل من الجانبين ، ولكن ظهر أخيرا ، وان أبدى أرغون نفسه من البسالة كل خارق وعجيب ، وضرب من نفسه مثلا لكل رجاله ، أن كل جهد عبث ، لأن الحظ قلب له ظهر المجن ، واضطر رجاله الى الفرار من الميدان ، وفى أثرهم مباشرة أكومات ورجاله ،، فشتتوهم كل مشتت · وأسر أرغون نفسه أثناء الفرار ، فتوقفت المطاردة على الفور ، وعاد الظافرون الى معسكرهم وخيامهم ، قد أسكرتهم نشوة الفرح بغير حدود ·

وأمر آكومات بحبس ابن أخيه أرغون وتضييق الحراسة عليه ، ولما كان رجلا مولعا بملذاته فانه عاد الى بلاطه ليستمتع بصحبة الغوانى الجميلات المقيمات هناك ، تاركا قيادة الجيش لملك أو رئيس كبير، مع أوامر مشددة بالاحتفاظ بأرغون فى حراسة محكمة ، وأن يتبعه به الى البلاط فى مسيرات قصيرة ، حتى يتعب رجاله •

الفصل الثامن والخمسون

كيف اخلى سبيل ارغون ·

والآن ، تصادف أن نبيلا تتريا متقدم السن جدا ، مست الشفقة قلبه على آرغون ، وقال فى نفسه ان من بالغ الشر وعدم الولاء أن يحتفظ بمولاهم على هذا النحو أسيرا ، وانه سيبذل خير ما فى وسعه ليطلق سراحه · فبـدأ باقناع كثير غيره من الأمراء بتبنى هذه المشاعر نفسها ، وبلغ من ضخامة تأثيره الشخصى ، نتيجة لعلو سنه وسمو خلقه المعروف بحبه للعدالة والحكمة ، أن ضمهم جميعا بسهولة الى جانب مغامرته فوعدوه بأن يكونوا رهن اشارته · وكان اسم زعيم هـذه المغامرة بغا ، وكان كبار شركائه فى المغامرة هم الكيداى ، وتوجان وتيغانا وتانجا وتيار أولاتاى وساماغار · وذهب بغا مع هؤلاء الى الخيمة التى كان أرغون محبوسـا فيهـا ، وأبلغه أنهم نادمون على الدور الذى قاموا به ضده ، وأنهم اصلاحا لخطئهم فى حقه جاءوا لاطـلاق سراحه واتخـاذه مولى عليهم ·

الفصل التاسع والخمسون

كيف استرد أرغون ولايته على عرشه ٠

وعندما سمع أرغون كلمات بغا ، تبادر الى ذهنه لأول وهلة أنهم جاءوا للهزء منه ، وامتلأ قلبه غضبا وحزنا ٠ وخاطبهم قائلا : « أيها السادة العدول ! انكم تأثمون أعظم الاثم اذ تتخذون مني هدفا لسخريتكم ، وكان ينبغي أن تقتنعوا بالظلم الذى أنزلتموه بى فعلا بحبسكم مولاكم الشرعى ٠ وأنتم تعلمون أنكم تسيئون التصرف ولذا فانني أرجوكم أن تذهبوا لسبيلكم وألا تسخروا مني بعد هذا » ٠ قال بغا : « مولاى العادل أرغون ! تأكد أننا لا نسخر منك على الاطلاق ، ولكن ما نقوله هو الصدق الصراح ، ونقسم بديننا على هذا » ٠ وعندئذ أقسم البارونات جميعا اليمين بأنهم سيتخذونه مولى لهم ٠ وأقسم أرغون من جانبه أنه لن يؤاخذهم عما مضى ، وأنه سيضعهم فى موضع الاعزاز الذى كانوا فيه عند أبيه أباقا ٠ وما أن تم تبادل هذه الايمان ، حتى أخرجوا أرغون من سجنه وتقبلوه سيدا ومليكا عليهم ٠ وعندئذ أمرهم أرغون أن يطلقوا سهامهم على الخيمة التى كان فيها الملك الذى بيده الامرة على الجيش ، ففعلوا ذلك وبذا لقى الملك مصرعه ٠ وكان اسم هذا الملك سلطان ، وكان أعظم سيد بعد أكومات ٠ وهكذا استرد أرغون ولايته على العرش ٠

الفصل الستون

كيف أمر أرغون بإعدام عمه آكومات ٠

وعندما وجد أرغون أنه متأكد من ولايته لعرشه ، أصدر أوامره الى الجيش بالشروع فى الزحف الى القصر ، وحدث ذات يوم أن آكومات كان فى بلاطه بقصره الرئيسى يقيم حفلا عظيما ، اذ جاءه رسول وقال : « مولاى ! أحمل اليك أنباء ليست مما أشتهيه ، اذ أنها أنباء سوء ٠ فاعلم أن النبلاء خلصوا أرغون من الأسر ورفعوه الى منزلة السيادة ، وقتلوا سلطان صديقك العزيز ، وأؤكد لك انهم يسرعون الخطى الى هنا لأسرك وقتلك ، فتدبر على الفور خير ما يمكن عمله » ٠

وعندما سمع آكومات هذا القول ، أخذته فى البداية الدهشة والخوف ، حتى لم يعرف ما يصنع أو ما يقول ، ولكنه أخيرا ، شأن الرجل الشجاع الأريب ، أمر الرسول الا يبلغ أحدا بالنبأ ، وأمر معاجلا أشد رجاله ثقة بحمل أسلحتهم وامتطاء خيولهم ، دون أن يخبر أحدا بوجهته ، ومضى فى طريقه الى سلطان بابل ، معتقدا أن حياته ستكون عنده بمأمن ٠ وعند نهاية مسيرة ستة أيام بلغ ممرا ، لم يكن من الممكن تجنبه ، وعرف حارس الممر أنه آكومات وأدرك أنه يطلب النجاة فرارا ٠ وعزم ذلك الرجل على أسره ، وهو أمر كان فى امكانه فعله بسهولة ، لقلة مع حوله من حاشية ٠ فلما تم اعتقال آكومات على هذا النحو ، توسل

ضارعا ، وعرض عليه أموالا طائلة حتى يسمح باطلاق سراحه ، ولكن حارس الممر ، وكان مشايعا متحمسا لأرغون، أجابه بأن كنوز العالم قاطبة لن تمنعه من أداء واجبه نحو مولاه الشرعى • وبناء على هذا وضع أكومات فى حراسة قوية ، ومضى به نحو القصر ، فبلغه بعد استيلاء أرغون عليه بثلاثة أيام وقد أكمده الى أقصى حد فرار أكومات • ومن ثم فعندما سلم اليه أكومات أسيرا ، ناله أعظم ما يمكن تصوره من سرور ، أصدر ارادته بحشد الجيش على الفور دون مشاورة أى انسان ، ثم أمر أحد رجاله بقتل عمه ، والقاء جثته بمكان سحيق بحيث لا يراه أحد بعد ذلك أبدا ، وهو أمر تم تنفيذه على الفور • وهكذا انتهى الأمر الذى جرى بين أرغون وعمه أكومات •

الفصل الحادى والستون

وفاة أرغون ٠

بعد ان اتم ارغون هذا كله ، واستولى على القصر الرئيسى والسيادة ، جاء جميع النبلاء الذين كانوا يدينون بالخضوع لأبيه ، لتقديم فروض ولائهم له باعتباره مولاهم وطاعتهم له على هذا الاعتبار فى كل شىء ٠ وبعد هذا أرسل أرغون ابنه قاسان ، ومعه ثلاثون ألف راكب كاملة الى « الشجرة الجافة » Arbor Secco الموجودة بذلك القطر ، بقصد حماية ارضه وقومه ٠ وهكذا استرد أرغون ولايته فى عام ١٢٨٦ لتجسد يسوع المسيح ، بعد أن احتفظ أكومات بصولجان الملك سنتين ٠ وحكم أرغون البلاد ست سنوات ، مات فى نهايتها مسموما ، على ما شاع بين الناس ٠

الفصل الثانى والستون

كيف وضع قياكاتو يده على الصولجان بعد وفاة آرغون ·

عندما مات آرغون ، أستولى على صولجان الملك عمه يدعو قياكاتو ، ومما سهل له ذلك أكثر وجود قاسان بمنطقة « الشجرة انجافة » السحيقة البعد · وغضب قاسان اشد الغضب عندما سمع بوفاة أبيه واغتصاب قياكاتو للملك . بيد أنه لم يكن يستطيع مغادرة موقعه فى تلك اللحظة لخشيته أعداءه · على أنه هدد مع ذلك بأنه لابد منتهز فرصة ينزل فيها انتقامه بنفس الصورة المتميزة التى انتقم بها أبوه من أكومات · وقبض قياكاتو على أعنة السيادة ، وقدم الكل إليه الطاعة عدا من كانوا حول قاسان ، واتخذ من زوجة أرغون ابن أخيه زوجا له وأكثر من الاخلاد الى الاستمتاع بالنساء ، لشدة ولعه بالملذات ، واحتفظ قياكاتو بالملك سنتين حتى أزيح عنه فى نهايتها بالسم ·

الفصل الثالث والستون

كيف استولى بايدو على الملك بعد وفاة قياكاتو .

عندما مات قياكاتو استولى على الصولجان بايدو وكان عما له ، كما كان مسيحيا ، فأذعن الجميع بالطاعة له عدا قاسان ومن معه من الجند . وحدث هذا فى عام ١٢٩٤ . وعندما علم قاسان بما حدث ، ازدادت ثورته احتداما على بايدو أكثر منها على قياكاتو ، واذ هدد بأن ينزل به انتقاما يتحدث به الناس جميعا ، صمم على ألا يؤخر الأمر بعد هذا لحظة واحدة ، وأن يزحف عليه فورا . وطبقا لهذا زود جيشه بما يلزمه من ميرة وبدأ زحفه . وعندما أيقن بايدو أن قاسان قادم اليه ، جمع عددا ضخما من الرجال ، وتقدم بهم الى الأمام مسيرة عشرة أيام كاملة ، ثم عسكر وانتظر منه أن يبدأ بالقتال . وظهر قاسان فى الميدان فى اليوم الثانى ، وبدأت على الفور معركة ضارية ، انتهت بهزيمة بايدو هزيمة ماحقة حيث لقى مصرعه أثناء القتال . وعندئذ قبض قاسان على زمام الملك ، وبدأ حكمه فى عام ١٢٩٤ من التجسد . وهكذا انتقلت مملكة التتار الشرقيين من أباقا الى قاسان الذى يحكم البلاد الآن .

الفصل الرابع والستون (١)

عن أمراء تتار الغرب ٠

كان أول سادة التتار في الغرب هـو ساين ، وكان ملكا عظيما وقويا ٠ فغـزا الروسيا وكومانيـا وآلانيـا ولاك ومنجيار (المجر) وترك ، وجوكيا وجزاريا ٠ وكل هـذه الولايات فتحها الملك ساين ٠ وقبل هذا الفتح كانوا جميعـا كومانيين ، ولكن لم تجمعهم حكومة واحدة تحت ظلها ، ونظرا لانعدام الاتحاد فيما بينهم فقـدوا أراضـيهم ، وتشـتتوا بمختلف أرجاء العالم ، وكل من بقى هناك تحول الى حالة العبودية للملك ساين وبعد الملك ساين حكم الملك باتـو ، وبعده الملك برقا ثم تلاه الملك منجلتيمور ، ثم الملك تـوتا مونجور وأخيرا توكتاىالذى يحكم الآن٠ والآن وقد أعطيناك قائمة بأسماء ملوك تتار الغرب ، فاننا سنحدثك عن معركة كبرى دارت رحاها بين آلاءو (هـولاكو) ، سـيد الشرق ، وبرقا (بركة) سـيد الغرب ، فضـلا عن سبب المعـركة ونتيجتها ٠

الفصل الخامس والستون

عن الحرب بين آلاءو وبـرگا
(أو بركة) والمعركة التي خاضاها .

فى عام ١٩٦١ ، نشب خلاف شديد بين الملك آلاءو ، سيد تتار الشرق ، والملك بركة سيد تتار الغرب ، بسـبب ولاية تتـاخم حـدود ممتلكاتهما كليهما ، ادعى كل منهما ملكيتها ، ونأت بهما الكبرياء عن النزول عنها كل للآخـر . فتبادلا التحديات ، وأعلن كل منهما أنه سيخرج للاستيلاء عليها ، وسيرى من يجرؤ على اعتراض سبيله . وعندما بلغت الأمور هذا الحد ، دعا كل أتباعه للالتفاف حـول رايتـه ، وبذل كل منهما قصاراه الى حد أنه فى مدى ستة أشهر كان كل منهما حشد ثلاثمائة ألف فارس ، وتزودا أجـود تزود بجميع ما يتصل بالحرب من عتاد حسبما تقتضيه عاداتهم . وعندئذ بدأ آلاءو سيد الشرق زحفه بكل جنده فساروا عدة أيام دون أن يلاقوا أية مغـامرة تسـتحق الذكر . وأخـيرا وصلوا الى سهل فسيح الأرجاء ، يقع بين «البوابات الحديدية» وبين بحر سراين ، فعسكروا على خير نظام ، وأقيمت جواسق وخيام فاخرة كثيرة . وهناك قال آلاءو انه سـينتظر حتى يرى ما سيفعله بركة ، وذلك لأن هذه البقعة كانت على حدود الاقليمين .

الفصل السادس والستون

كيف تقدم بركة وجحفله لملاقاة آلاءو •

ولما أن أعد الملك بركة كل عدته وعرف أن آلاءوا بدأ زحفه ، خرج هو أيضا فى طريقه اليه ، وبلغ فى الوقت المناسب نفس السهل ، الذى كان أعداؤه ينتظرونه فيه ، وعسكر على حوالى عشرة أميال منه • وكان معسكر بركة مزدانا بزخارف نفيسة كمعسكر آلاءو سواء بسواء ولكن عدد جيشه كان أكبر ، لأنه بلغ ثلاثمائة وخمسين ألف راكب ـ واستراح الجمعان يومين ، جمع فيهما بركة جحفله فى صعيد واحد وخاطبه على النحو التالى : « أيها السادة العدول! تعلمون علم اليقين أننى منذ وليت أمر البلاد أحببتكم كاخوة وأبناء ، كما أن كثيرين منكم خاضوا معى معارك كبيرة ، كما أنكم ساعدتمونى فى فتح شطر كبير مما فى حوزتنا من الأراضى ، وتعلمون أنى أشرككم فى كل ما أملك ، وينبغى عليكم ـ لقاء ذلك ـ أن تبذلوا كل نفيس لمساندة شرفى ، وهو الشىء الذى فعلتموه حتى الآن • وتعلمون كم آلاءو رجل قوى وعظيم ، وكيف انه فى خلافه هذا معى فى جانب الباطل وكيف أننا نحن فى جانب الحق ، وينبغى لكل منكم أن يوقن بأننا سنهزمه فى المعركة ، سيما وأن عددنا يفوق عدته ، فاننا نعلم يقينا أن ليس لديه سوى ثلاثمائة ألف خيال ، بينما لدينا ثلاثمائة وخمسون ألفا ، وكلهم مقاتل من خيرة الرجال كجنده أو أفضل • من أجل هذه الأسباب جميعا ينبغى لكم أن تروا بوضوح أننا سنفوز فى يومنا

هذا ، ولكن لما كنا ما زحفنا مثل هذه المسافة البعيدة الا لنخوض معركتنا ، فان ارادتى أن نشرع فى القتال بعد ثلاثة أيام ، ثم نتقدم بحصافة بالغة وبنظام حسن كامل ، حتى نضمن النجح ، وانى لأرجوكم جميعا أن تظهروا فى هذه المناسبة بمظهر الشجاعة ، حتى يتحدث العالم طرا بأعمالكم • ولا أزيد بعد هذا عن أنى أتوقع من كل منكم أن يكون على أحسن استعداد لليوم الموعود » •

الفصل السابع والستون

خطاب آلاءو الى رجاله ·

عندما علم آلاءو بالتأكيد أن بركة قادم بهذا الجيش اللجب ، جمع هو أيضا رؤساء رجاله وخاطبهم عـلى الوجه التالى : « أيها الاخوة والأبناء والأصـدقاء العـدول ! ·· تعلمون أني اعتززت بكم طوال حياتي وساعدتكم ، كمـا أنكم ساعدتموني حتى الساعة في الغلبة والفتح فى كثير من المعارك ، كما أنكم حتى لم تكونوا حاضرين آية معركة الا فزنا فيها بالنصر ، ومن أجل ذلك السبب جئنا هنا لقتال ذلك الرجل العظيم بركة وانى لعلى علم تام بأن لديه من الرجال أكثر منا ، ولكنهم لا يضارعونكم مقدرة فى القتال ، ولاشك عندى أننا سنوردهم جميعا موارد الفرار والهزيمة · ونعلم من جاسوسنا أنهم سيخوضون معنا المعركة بعد ثلاثة أيام ، وهو أمر ملأنى سرورا ، فأرجوكم أن تكونوا على استعداد تام فى ذلك اليوم ، وأن تسلكوا المسلك الذى تعودتموه · على أن هناك شيئا واحدا فقط أريد أن أركزه فى أذهانكم، هو أنه خير لنا الموت فى الميدان ذيادا عن شرفنـا ، من أن نلاقى الهزيمة ، فليقاتل كل منكم حتى يسلم شرفنا من كل أذى ، وحتى يتجرع أعداؤنا مرارة الهزيمة والذبح » ·

وهكذا شجع كل من الملكين رجاله ، وانتظرا حتى آن يوم الموقعة ، واستعد كل منهما لها على أحسن وجه أمكنه ·

الفصل الثامن والستون

عن المعـــركة الكبرى بين الاءو وبركة .

عندما جاء اليوم الموعود للواقعة ، استيقظ الاءو مبكرا في الصباح ، ودعا برجاله لتقلد السلاح ، ونظم صفوف جنده بأقصى درجة من المهارة . فقسمه الى ثلاثين كردوسا Squadrons يتألف كل كردوس منها من عشرة آلاف فارس ، ووضع على رأس كل واحد منها قائدا متمكنا وصاحب امرة كفئا ، فلما أن تم تنظيم هذا على الوجه المناسب ، أمر جنده بالتقدم ففعلوا زاحفين بخطى بطيئة ، حتى بلغوا منتصف المسافة بين المعسكرين ، فتوقفوا وانتظروا قدوم العدو . فأما في الجانب الآخر فان الملك بركة حشد جنده مستنفرا ونظمهم في خمسة وثلاثين كردوسا ، بالطريقة عينها بالضبط التي استخدمها الاءو ، كما أمر جنده أيضا بالتقدم ففعلوا ذلك حتى أصبحوا على نصف ميل من عدوهم . وهناك توقفوا برهة وجيزة ، ثم تحركوا الى قدام ثانية حتى أصبحوا على مسافة تقارب رميتي قوس قذوف معقوف Arbalest أحدهما من الآخر . وكان السهل منبسطا مواتيا مدهش الاتساع والرحابة كما ينبغي أن يكون الحال ، عندما يوضع ترتيب مثل هذا العدد الضخم من الرجال في جمعين متعاديين ، تحت أقوى مقاتلي العالم شكيمة وأشدهم بأسا ، كما أنهما فوق هذا قريبان أدنيان ، لأنهما كليهما من العترة الامبراطورية لجنجيزخان . وبعد أن تراءى العسكران هنيهة وجها لوجه ، ضربت النقاريات أخيرا ، فأطلق كل من الجيشين على صاحبه

وابلا منهمرا من السـهام ، غطى وجه الســماء فما تكاد تبصرها الا كدا وعم الذبح والتقتيل من الرجال والخيل ٠ حتى اذا استنفدت كل سهامهم ، اشـتبكوا بعضهم مع بعض بالسيوف والقضبان (الدبابيس) وعندئذ بلغت المعـركة من الشراسة أن عجيجها أصبح أقوى من زئير رعد السـماء وغطيت الأرض بالجثث والأشلاء وتضرجت بالدماء ٠ وأبدى الملكان كلاهما من الشجاعة كل مدهش معجب ، ولم يقصر رجالهما دون التأسي بهما ٠ واستمرت المعركة على هذا النحو حتى الغسق ، حين أخذ بركة ينهار ثم فر من الميدان ، ولاحقه رجال آلاءو ببالغ العنف وهم يصرعون ويقتلون بغير رحمة ٠ وبعد مواصلتهم التعقب مسافة قصيرة استدعاهم آلاءو اليه ، فعادوا الى خيامهم ووضعوا أسلحتهم جانبا وضمدوا جراحهم ، واشتد بهم الاعياء من القتال ، حتى التمسوا الراحة بسرور ٠ وفى الصباح التالى أمر آلاءو بدفن أجساد الموتى ، الأعداء منهم والأصدقاء ، وكانت الخسارة فادحة فى الجانبين ، بحيث تتعذر على كل وصف ٠ وبعد الفراغ من ذلك عاد آلاءو الى بلاده بكل من بقى من رجاله حيا بعد هذه المعركة ٠

الفصل التاسع والستون

كيف أصبح توتامنكو سيدا لتتار الغـــرب ٠

ينبغى لك أن تعلم أنه كان فى الغرب ملك للتتار يسمى منكو تيمور (منجو) وأن الملك انحدر منه الى تولوبغا وكان حدثا فى فروسيتد (١) ٠ وأقدم رجل قوى الشكيمة جدا ، اسمه توتا منكو على قتل تولوبغا ، بمســـاعدة ملك آخــر من ملوك التتار يسمى نوجاى ٠ وهكذا حصل توتامنكو عـــلى الملك بمساعدة نوجاى ، ثم ما لبث أن مات بعد حكم قصير ، واختير توكتاى ملكا وهو رجل بالغ الكفـــاية والحصـــافة ٠ وفى الحين نفسه شب ولدا تولوبغا وأصبحا آنئذ قادرين على حمل السلاح ، كما أنهما اتصفا بالحكمة وحسن التدبير ٠ وجمع الأخوان سرية كبيرة جدا ، وذهبا الى بلاط توكتاى ، وقدما نفسيهما ببالغ الأدب والخضوع راكعين على ركبتيهما حتى رحب بهما توكتاى وأمرهما بالوقوف ٠ وعندئذ قال أكبرهما للملك : « مولاى العادل توكتاى ! سأخبرك على خير وجه أستطيعه لماذا حضرنا هنا الى البلاط ٠ تعلم أننـــا ولدا تولوبغا(٢) ، الذى قتله توتامنكو ونوجاى ٠ وليس لدى شىء أقوله عن توتامنكو، لأنه ميت، ولكننا نطالب بالقصاص فى حق نوجاى على مصرع والدنا ، ونلتمس منك كملك قويم عادل أن تحققلنا ذلك ٠ فذاك هو هدفنا من زيارة بلاطك» ٠

الفصـــل الســـبعون

كيف أرسل توكتاى يطلب نوجاى للمثول فى قصره ٠

وعندما سمع توكتاى كلام الفتى ، علم أنه صادق فيما قال فأجابه بقوله : « أيها الصديق الكريم ، سأخضع راضيا لطلبك تطبيق العدالة على نوجاى ، ومن أجل هــذا الغرض سنستدعيه الى القصر ، ونفعل كل ما تقتضيه العدالة » ٠

ثم بعث توكتاى برسولين الى نوجاى ، وأمره بالحضور الى البلاط ليرد على ولدى تولوبغا فى شأن مقتل والدهما ، ولكن نوجاى ضحك ساخرا من الرسالة وأبلغ الرسولين أنه لن يذهب ٠

وعندما سمع توكتاى رسالة نوجاى ، استشاط غضبا ، وقال على مسمع من كل من كانوا حوله : « بمعونة الله ، اما أن يأتى نوجاى أمامى لاحقــاق حق ولدى تولوبغــا ، والا فسأذهب اليه بكل رجالى وأقضى عليه » ٠

وعندئذ أرسل رسولين آخرين ، انطلقــا بالخيــل بكل سرعة الى قصر نوجاى ، وعند وصولهما قدما نفسيهما اليه ، وسلما عليه بكل أدب ، ورحب بهما نوجاى ٠ وعندئذ قال أحد الرسولين :

« أيها السيد الكريم ! يبلغك توكتاى أنك اذا لم تحضر الى قصره لتحق ولدى تولوبغــا بالعــدل ، فانه ســـيأتيك

مهاجما بجحفله كله وينزل بك كل ما يستطيع من الأذى ، بكل من ممتلكاتك وشخصك ، فاختر ما يحلو لك ، وأعطه جوابك على لساننا » •

فعندما سمع نوجاى رسالة توكتاى ، ثارت نائرته ، وأجاب الرسول بالتالى : « أيها السيد الرسول ! ، الآن عد الى مولاك ، وأخبره عن لساني ، أنى قليل المبالاة بعداوته ، وأخبره فوق هذا أنه ان هاجمنى ، فاننى سأنتظره عند مدخل بلادى • وذلك لأننى سألتقى به فى منتصف الطريق • فهذه هى الرسالة التى ستحملها الى مولاك » •

وعاد الرسول مسرعا ، وعندما تلقى توكتاى هذه الاجابة ، أرسل رسله على الفور الى جميع الأرجاء التى كانت تحت حكمه ودعا قومه للاستعداد للذهاب معه على الملك نوجاى ، ولم يلبث حتى جمع جيشا عظيما •

وعندما علم نوجاى علما أكيدا أن توكتاى يجهز عليه ذلك الجحفل الكثير ، قام هو أيضا باعداد عدة عظيمة ، ولكنها لم تبلغ ضخامة عدة توكتاى ، وذلك لأنه ، وان كان ملكا عظيما وقويا ، الا أنه لم يكن فى العظمة والقوة كفؤا للآخر •

الفصل الحادى والسبعون

كيف زحف توكتاى على نوجاى •

وعندما تجهز جيش توكتاى للحملة بدأ زحفه على راس مئتى ألف خيال ، ووصل فى الوقت المناسب الى سهل نرغى المترامى الجميل ، حيث عسكر فى انتظار خصمه • وكان معه ولدا تولوبغا ، اللذان جاءا بصحبة سرية كبيرة من الفرسان لينتقما لمصرع والدهما •

وكان نوجاى أيضا يتقدم فى طريقه ومعه مئة وخمسون ألف راكب ، وكلهم فتيان شجعان وجند أفضل كثيرا من جند توكتاى • فبلغ السهل الذى عسكر فيه توكتاى بعده بيومين ، وضرب معسكره على مسافة عشرة أميال منه •

وعندئذ جمع الملك توكتاى رؤساء جنده وقال لهم : « أيها السادة ! •• جئنا هنا لقتال الملك نوجاى ورجاله . ولدينا أقوى ما يبرر هذا من سبب ، وذلك لأنكم تعلمون أن كل هذا الحقد والضغينة نشأ عن رفض نوجاى احقاق حق ولدى تولوبغا ، ولما كانت قضيتنا عادلة ، فان لدينا كل سبب للأمل فى احراز النصر • فاملأوا اذن قلوبكم بأطيب الرجاء . ومهما يكن الأمر ، فانني لأعلم أنكم جميعا رجال صناديد وأنكم ستبذلون أقصى الجهد للقضاء على أعدائكم » •

وخاطب نوجاى أيضا رجاله بالأسلوب التالى : « أيها الاخوة والأصدقاء الأكرمون ، تعلمون أننا كسبنا كثيرا من

المعارك الضخمة والضارية ، وأننا تغلبنا على رجال خير من هؤلاء • ولذا فانشرحوا وقروا عينا ! فالحق فى جانبنا ، وذلك أنكم تعلمون جيدا أن توكتاى لم يكن رئيسا لى حتى يدعونى لحضرته لاحقاق حق الآخرين بالقسطاس • وكل ما سأفعله ، أنى سأحثكم على سلوك نفس المسلك فى هــذه الواقعة ، حتى تتحدث بنا الركبان بكل مكان ، وحتى يلقى ورثتنا وأنفسنا مزيدا من الاحترام من أجله » •

وفى اليوم التالى استعد الجميع لخوض المعركة • ونظم توكتاى جيشه فى عشرين كردوسا ، لكل منها زعيمه وقائده المحنك ، وشكل جيش نوجاى فى خمسة عشر كردوسا •

وبعد معركة طويلة مستيئسة ، أبرز فيها الملكان وكذا ابنا تولوبغا أنفسهم ببســالة المستهين بالمــوت ، هزم جيش توكتاى هزيمة تامة ، وتعقبه رجال نوجاى خارج الميــدان معملين فيهم الذبح الشديد ، وهم جند أكفأ كثيرا فى القتال من أعدائهم وان كانوا أقل منهم عددا • وقتل فى هذه المعركة ستون ألف جندى بالتمام، ولكن نجا الملك توكتاى وكذا ولدا تولوبغا •

تذييـــــل

١ ـ ملاحظة على الفصل ٥٤ من الكتاب الأول ، ص ١٤٠

هنا نجد أيضا تكرارا تفصيليا للقول بأن أنج خان ، لم يكن هو وحده يعتنق المسيحية ، بل وأيضا جميع أحفاده حتى أيام مؤلفنا ، ومع أنه شاع بين النـاس الشـك فى هــذه الحقيقة ، لم تستخدم أية حجج مستخلصــة من الشـــواهد التاريخية لتفنيدها • على أنها يؤيدها من ناحية أخرى شهادة كل من الرحالين كاربينى وروبروكيز (مع بعض تنويعات فى الظروف) ، فضلا عن تصديقها بسند المؤرخ أبو الفرج، الذى لم يشك أحد فى أمانته وسداد رأيه كمؤرخ ، فى آية مسألة أخرى • فان أحدا من هــؤلاء لم يتحدث عن وجـــود شخصية ببلاد التتار كشخصية بريسترجون على اعتبار أنه اكتشاف جديد يلحظ لأول مرة ، بل على أنه شىء معــروف معرفة سابقة ، وبخاصــــة لدى من اشتركوا فى الحــروب الصليبية •

وربما جاز التساؤل لماذا يبدى الناس مثل هــذا التردد الشديد فى تصديق ، أن العقيدة المسيحية انتشرت انتشارا واسعا ، فى هذا الوقت المبكر (على طقوس الكنيسة اليونانية) ، بكل من بلاد التتار وتغلغلت حتى بلاد الصــين ، كأنما ذلك شىء غير محتمل • فبهذه الواقعة لا تقوم على شهادة الرهبان الكاثوليك وحدهم (وهم مع ذلك قوم كانوا أميــل الى الحط من قدر نجـاحات منافسـيهم وأهميتهم السـياسية منهم الى المبالغة فيها) ، وانما تؤيد ذلك حوليات الكنيسة النسطورية •

ويلاحظ رئيس الدير رينودوه : « يوجد بين هذه الشعوب ، التى يجمعها الاسم العام وهو الترك والتتار ، عدد لا بأس بضخامته من المسيحيين ، ليس فقط عندما أسس جينجزخان امبراطوريته الضخمه ، بل قبل ذلك العهد بزمن طويل • وذلك لاننا نجد فى تاريخ النساطرة ، أن تيموني جاثاليقهم ، الذى خلف حنا نيشع Hananjechiia ، الذى ورد ذكره فى النقوش الصينية والسريانية والذى رسم حوالى عام ٧٨٨ للميلاد ، كتب الى سلطان (خاقان) التتار (أى امبراطورهم) والى بعض أمراء آخرين للتركستان بقصد حثهم على اعتناق العقيدة المسيحية ، وهو أمر نفذه مع متتى ألف من رعاياه •

ولا يستطيع المرء أن يشك فى أن هذا الشعب لم يكونوا من التتار او الترك الأقحاح ، لأن الجاثاليق نفسه كان يستشار بواسطة القسيس الذى أرسله الى البلاد ، حول الطريقة التى ينبغى أن يتبعوها فى الصيام ، وكيفية أداء الصلوات : وذلك لأنه متعود على العيش على اللبن واللحم وليس لديه قمح ولا خمر •• ومنذ ذلك العهد ، يجد المرء بين الأخبار الكهنوتية للكنيسة النسطورية ، مطرانا للتركستان ، وآخر لتنجات وثالثا لكمباليك أو كمبالو ، وآخر لقشغر ونوياكات » • انظر : « Anciennes Relat. » ص ٣١٩ • انظر أيضا : Dissentatio de Syris Nest. تأليف ج•س• اسمانوس •

فلو سلمنا اذن أنه حدث فى زمن مبكر أن اعتنق النصرانية بعض قبائل التتار ومعهم رؤساؤهم • (ولماذا يكون اعتناقهم ذلك الدين أمرا غير موثوق به بعكس اعتناق الأمم الأخرى بشمال وغرب أوربا ذلك ما لا ندريه)، لم يكن هناك سبب خاص فى استثناء الأمير المدعو أنج خان ، الذى ربما جاز ملاحظة أن قبيلته التى اليها ينتمى ، كانت تحمل اسم كريت أو كيرائيت أو كرريت ، وهى طريقة مألوفة فى الشرق لنطق كلمتى كرايست وكريستيان : أى المسيح

والمسيحى • وربما جاز الظن بأنه يوم تعميده تلقى ، من معلميه الروحيين ، اسما تعميديا سريانيا وليس هنـاك اسم أقرب الى الاحتمال من اسم يوحنا (أو جون) الانجيلى• واذا ظننا أكثر من هذا ، وهو ظـرف ليس اسـتثنائيا فى تاريخ هؤلاء الناس ، أن رئيسهم كان فى نفس الوقت « لاما » ، فانه ربما لم يرغب في تجريد نفسه من الطابع الكهنوتى ، كمـا ان المبشرين النسطوريين ، فى تقاريرهم الى الجـاثاليق أو المطران المقيم ببغداد او أنطاكية ، ربما ذكروه تبعا لذلك مسمى بلقب معادل للقب يوحانس برسبيتيروس Presbuteros بمعنى الأب أو القسيس •

ويستمد الاعتقاد بانتشار الانجيل فى زمن مبكر بتلك المناطق قوة اضافية تدعمه ، من رأى أخذ به بعض من أوسع المبشرين علما بالأمور ، وهو أن ديانة اللاما ذاتها ليست الا نوعا محرفا من المسيحية ومع أن هذا ربما كان استنتاجا غلب عليه التعجل وصلوا اليه مما أتيحت لهم مشاهدته بتلك البلاد ، فانه لن يصبح بعد الفحص والامتحان بعيد الاحتمال بالدرجة الشديدة التى ربما بدا عليها ابتداء • وتمكننـا معرفتنا العصرية بمجموعة الأساطير (الميثولوجيا) الهندوكية، وبخاصة بطقوس وشـعائر وتماثيـل بوذا ، الذى انتشرت طائفته المنشقة بالأقطار الواقعـة شـمال بلاد الهندسـتان والبنغـال وشرقيهما ، أن نقـول بملء الثقـة انه من حيث مبادؤها الجوهرية كانت ديانة البلاد التى تحمل اسم بوتان والتبت وتانجوت ، هى ديانة بوذيى الهند ، ولكن فى الحين نفسه كانت المشابهة تستخدم أى حجج مستخلصة من الشواهد قوية بين كثير من مراسمها ومراسم الكنائس المسيحية ، على اختلاف أنواعها بين شرقية وغربية ، مما أوضحه وأشـار اليه كل رحالة زار بلادالتتار، ابتداء من كاربيى وروبروكيز اللذين لاحظاها لأول مرة ، الى أبناء وطننا (الانجليزى) ومعاصرينا : بوجل وترنر اللذين عاشا فى بلاط أحد اللامات الكبار •

ونجد المشابهة نفسها معترفا بها حتى من رجال الارساليات التبشيرية اليسوعية ، الذين لا يمكن أن يظن فيهم أنهم تأثروا فى مشاهداتهم بأى هوى أو تحيز لا ضرورة له ، (وهى تهمة اتهموا بها فى بعض الأحوال) ، وذلك لأنه لا غرورهم الشخصى كان يمكن اشباعه بذلك ، ولا مصالح عقيدتهم كان يمكن أن تتحقق باقامة هذه الموازنة المثيرة للاستياء ·

فليس مدهشا أن بعض الناس ، وقد وقع تحت تأثيرات وانطباعات من هذا النوع من المشابهة ، يتبنى رأيا بأن الأمير الذى تسمى بين نصارى الشرق باسم البريسترجون ، لم يكن سوى اللاما الأعلى للتتار ·

٢ ـ ملحوظة اضافية على ص ٢٣٢ هامشة ٢ :

٧٧٦ ـ يقول البروفسور مارتينى : «ان مدينة سى جان التى هى البلد الرئيسى ، لا تكاد ـ تبزها مدن أخرى ، اذا اعتبرنا موقعها وسط اقليم بالغ الجمال والترويح عن الأنفس ، وضخامتها ، وشدة قدمها ، وقوة متانة أسوارها ، وجمال منظرها وعظيم تجارتها ·· ويمكنك أن تحكم على قدم عهدها فى التاريخ ، من أن الأسر الامبراطورية الثلاث ، تشيو وسن وهان ، كانت تتولى الحكم فيها » · انظر Thevenot تفنوه ج ٣ ص ٥٨ ·

وكان أن اكتشف قرب هذه العاصمة نقش قديم على حجر ، سجل بحروف سريانية وصينية حالة المسيحية بتلك الولاية أو المملكة ، وأوضح الحماية والتسامحات التى كانت تنعم بها من أباطرة مختلفين ، وحوى قائمة بأساقفتها· يقول البروفسور مارتينى : « ان هذه الولاية ، مشهورة أيضا بحجر عريق القدم ، نقشت عليه شريعة الرب بحروف سريانية وصينية ، وقد نقلها الى الأحرف الصينية خلفاء الرسل :

وقد دونت عليه قائمة أسماء الأساقفة والقسوس فى ذلك الزمان ، وأسماء الأباطرة الصينيين الذين أحسنوا معاملتهم ومنحوهم امتيازات : ويحـوى الحجر أيضـا شرحا موجزا للشريعة المسيحية ، ولكنه على ايجازه مثير للاعجاب حقـا ، ومكتوب بلغة صينية شديدة البلاغة ٠٠ وقد عثر عليه فى عام ١٦٢٥ م بمدينة سان يوين ، اثنـاء حفر أسـاس احـد الجدران : ولما ابلغ حاكم المدينة على الفور بهذا الاثر الذى تم العثور عليه ، تامل بتمعن ما فيه من نقوش ، ولمـا كان القوم من كبار هواة الآثار القديمة ، فانه أمر بطبعـه ، ثم بعد ذلك أصدر مكتوبا يتغنى بالثناء على هذا الأثر ، ثم بعد ذلك حفروه على حجر آخر بنفس الحجم منشئين نسخة من الذى عثر عليه مع مراعاة نفس السمات والحروف مع كامل الدقة والأمانة اللازمة ٠ وقد حمل كبار الآباء فى جمعيتنا منـه الى روما نموذجا مطابقا للأصل ، مع الترجمة ، وهو محفوظ فى الوقت الحاضر مع ترجمته بمكتبـة دار رهبان يسـوع الجزويت : وقد طبع فى روما ١٦٤١ » ٠ انظر Thevenot ص ٥٧ ٠ ثارت بطبيعة الحـال بعض الشـبهات بالبـلاد الأوروبية ، حول صحة أثر كهذا له مثل هذه الطبيعة العجيبة ، كما أنه دارت حوله مناقشات كثيرة ، ولكن من بلغت بهم الجرأة أن يعدوه وثيقة مزيفة ، يبدو أن دافعهم روح العداء لهيئة الجزويت ، التى أتيح لأعضائها وضـع تلك الوثيقة أمام الأنظار ، لا مجرد الحب الصافى للصدق والحقيقة ولا لميـل الى البحث غير المتحيز ، ونظرا لأن هذا الشعور العدائى هدأ كثيرا ، فانه يبدو أن صحته لم تعد موضوع منازعة من أولئك الذين تؤهلهم قدراتهم لاصدار حكم صحيح فى الأمر ٠

يقول ده جنى الابن : « أفادت هيئة النسـاطرة ، عام ٦٣٥ بعد ميلاد يسوع المسيح أن شخصا معينا اسمه أولوبين جاء الى الصين فى عهد الامبراطور تايسونج من أسرة تانج : وهـذا تم اثباته فى الأثر الذى استكشـف فى سـينجان فو (١٦٢٥) ، فى عهد هى تسونج من أسرة منج » ٠ (مج ٢

ص ٣٣٤) ٠ وعن معلومات أدق حول هذا الأثر الشـــهير ، انظر الاعمال التالية : Athanasii Kircheri China illustrata (١٦٦٧) ، حيث يجد القارىء صورة طبق الأصـــل من النقــوش ، مع ترجمة حرفية لكل الرموز الكتابية الصينية وانظر :

« Andrae Mulleri Opuscula ; De monumento sinico commentarius (1695) : Laurentii Moshemii, ad Historiam Ecclesiasticam Tartarorum Appendix, monumenta et epistolas exhibens (1741) ;

وكذا :

« Mémoires de l'Académie des Inscriptions,

الجزء الثلاثون ص ٨٠٢ » ٠

هوامش الجزء الثالث



● هوامش الفصل الأول

(١) لما كانت المنتجات النباتية ، وبخاصة الأخشاب ، بجنوب الهند او الهند البحرية ، مختلفة عن الأنواع المعروفة بأوربا ، فان من الخطأ (ان كان مؤلفنا يتحدث عن السفن الهندية) أن يقال ان خشب السفن هو التنوب والسنوبر Abete and Zapino وذلك نظرا لأنه لا التنوب ولا السنوبر يوجد (بأى موقع يمكن الوصول اليه) بالمناطق الاستوائية ٠ ولكن مهما يبد الأمر شاذا ، فان فى سياق الكتاب أسبابا تدعو الى استخلاص أنه انما يصف سفنا بنيت ببلاد الصين ، وان كان ذلك لأغراض التجارة الهندية ٠

(٢) تذكر طبعة بال اللاتينية أن عدد هذه المقاصير أربعون ، كما تقول انها فوق السطح العلوى لا تحته ، ومعلوماتنا عن السفن الهندية قبل الاختلاط بأوربا ضئيلة ، ولكن الكابينات فى الأزمنة الحديثة موضوعة عادة فوق الجزء الخلفى من سطح مؤخرة السفينة ٠

(٣) لم يشر أى وصف حديث لسفن الجنك Junk الصينية الى الدقل المتوسط (الجزء الثانى من الصارى) كما أنه غير واضح أنه هو المقصود ومن هنا فالتعبيرات يمكن بقول أصح أن يفهم منها الساريات التى يمكن رفعها أو خفضها ، على منوال الصوارى الموضوعة فى الصنادل عندنا وقد يكون معنى الفقرة هو : « ان لها أربعة صوار (عليها نفس العدد من القلوع) يمكن رفع اثنين منها أو خفضها ، حسبما تقتضى الحـــــال » .

(٤) ان هذه طريقة صيانة قيعان السفن شائعـة لدى الصينيين والهنود ٠ يقول جروس : « يتفوق الأهالى فى سورات » فى صناعة بناء السفن ٠ اذ تتكون قيعانها وجوانبها من فلنكات (ألواح غليظة) تعشق بعضها فى بعض ، بالطريقة التى تسمى بالتفريز – فى ما أفهم – بحيث لا يمكن النفاذ فيما بينها من الالتحام ، ولهم كذلك طريقـة خاصة فى صيانة قيعان سفنهم بمواصلة دعكها بين حين وآخر بنوع من الزيت يسمونه زيت الخشب ، وهو زيت تتشربه الألواح (الفلنكات ٠ انظر Voy. to the East Indies مج ١ ص ١٠٧)،وهذا ومزيج«الشونام»أعنى

الجير مع زيت راتنجى ، أو مع الدمر Dammar المذاب (وهو مادة شجرية صمغية) ، معروف فى مصانع السفن بالهند باسم جل جل Gulgul ويضيف جروس : « لن نبالغ ان نحن اكدنا انهم (الأهالى) يبنون بشكل لا يضارع أفضل سفن فى العالم من حيث طول التحمل ، وذلك فى أى حجم كان ، ولو بلغ ألف طن بل أكثر من ذلك ·· وليس من النادر أن تعيش الواحدة من تلك السفن قرنا كاملا » ص ١٠٨ ·

● هوامش الفصل الثانى

(١) من الواضح أن المقصود بهذا الاسم الذى ورد هنا وفى مخطوطتى المتحف البريطانى ومتحف برلين زيبانجو ، وفى طبعة بال زيبانجرى وفى اللاتينية الأبكر كيامابجو ، وفى طبعة بال زيبانجرى وفى اللاتينية الأبكر كيامباجو ، هى تلك الجزر التى نطلق عليها ، بمعنى جماعى ، اسم اليابان · ويسميها الصينيون جى بن Ge-pen أو (Sy-pen) ، حسب هجاء ده جنى · أو جيه بون Jih-pun تبعا لهجاء موريسون ، ومن هذه تشتق جميع الأسماء الأخرى على درجات تتفاوت من الوضوح · ويظهر أن المقطع الختامى « جو Gu » هو كلمة « كويه Kue » الصينية ومعناها « مملكة » ، وهى كلمة تشيع اضافتها الى أسماء الأقطار الاجنبية ·

(٢) ما كان بعد أقرب مكان فى الجزيرة الجنوبية عن ساحل الصين ، قرب ننج ، لا يزيد عن خمسمائة ميل ايطالى ، فربما امكننا الظن بأن مؤلفنا حين ذكر أنه ١٫٥٠٠ ميل انما يتحدث بالأميال الصينية المسماة « لى Li » ، وهو نسبياً يقارب ثلث الميل الايطالى .

(٣) يعد الاستقلال السياسى الصفة المميزة للشعب اليابانى ، الذى لا يبدو أنه وضع على طول تاريخه المديد وضعا مستمرا تحت نير الأجنبى ·

(٤) يقول كايميفر : « اللآلىء ؛ ويسميها اليابانيون المعادن طرا فى ولايات عديدة بالامبراطورية اليابانية » · « ويدعى الامبراطور السيادة العليا على جميع مناجم الذهب ، كما يبسط ملكيته فعلا على جميع المناجم الأخرى بالامبراطورية ·· وهو يدعى لنفسه الحق فى ثلثى ناتج جميع المناجم التى تشتغل » . (انظر : His . of Japan مج ١ ص ١٠٧) · ثم يردف ذلك يقوله : « ولكنى علمت انه فى الآونة الأخيرة ، لم تعد عروق الذهب أندر فحسب ولكنها أيضا لا تغل نفس المقدار الذى كانت تغله فيما سلف » · (المرجع نفسه) ·

(٥) يقول كايميفر متحدثا عن احد ملوك اليابان القدماء أنه : « أمر ببناء قصر منيف فخم ، يسمى كوجاتو ، ليقيم فيه ، ووصف أرضياته بالذهب والفضة » (مج ١ ص ٨٢) ويوضح هذا البيان ، وان كان

خرافيا ، الفكرة التى شاعت بين الأهالى ، حول ما كان عليه ملوكهم الأوائل من فخامة .

(٦) يقول كايميفر : « ان اللآلىء ، ويسميها اليابانيون كاينوتاما » ، وهو قول معناه « جواهر الأصداف » ، تكاد توجد بكل مكان تقريبا حول « صايكوكف » ، داخل المحار وكثير غيره من الأصداف . ويباح لكل انسان صيدها » (مج ١ ص ١١٠) .

(٧) عقيدتان : الدين القديم ، أو دين السنتوس ، وهم الذين يعبدون الأرواح ، التى يسمونها « سن Sin » و « كامى Kami» ، والدين الحديث (وقد ظهر بعد الحقبة المسيحية) ، أو دين البوذيين ، عباد بوذا الهندى ، الذى يعبدونه باسم « فوتوكيه » و « بودزد Budsd » والأخيرون وحدهم – وهم الطبقة الغالبيـة الى أقصى حد – هم الذين يمارسون أحراق موتاهم . يقول كايميفر : « يبقى هنـاك شىء يستحق الملاحظة هو أن كثيرين ، وربما الأغلبية ، ممن ظلوا على الدوام فى حياتهم يعتنقون دين السنتوس بل حتى بعـض السيوتوسجـو Siutosjus أو الأخلاقيين يعهدون بأرواحهم وهم على فراش الموت ، لرعاية كهنة البوذية Bodsdoism مبدين رغبتهم فى أن تنشد لهم أناشيد النامـاندا Namanda ، وأن تحـرق أجسامهم وتدفن على طريقـة أهل مـلة بوذا . ولا يؤمن أتبـاع ديانـة السـنتوس بالمـذهب الفيثـاغورى القـائل بتناسخ الأرواح ، وان اعتنقت الأمم الشرقية هذا المذهب بأبلغ شـكل شامل » . (انظر Hist. of Japan مج ١ ص ٢١٣) .

(٨) يبدو أن المقصود بهذين الاسمين هما أباقاخان ، وهو مغولى وفاتح سان تشن وهو صينى ، منذ كان كثير من أبناء الأمة الصينيـة يعملون فى خدمة قبلاى ، بكل من السلكين : المدنى والعسكرى ، وكانوا يحسنون عملهم والاخلاص فى خدمته . (والاسمان فى النسخة الباريسية اللاتينية هما أباتار وفونسانتشى) .

(٩) لعل المقصود من قوله ميناء زاى تون هو آموى ، ومن كن ساى ميناء ننج بو أو تشوسان ، اللتان تقعان عند مدخل النهر الذى يفيض ماؤه بجوار هانج تشيوفو ، وهى كن ساى عند مؤلفنا .

(١٠) تشيع بين أهالى الجزر الشرقية ، فكرة أن من يستخدم التعاويذ يكتسب حصانة من الجروح .

(١١) اذا كانت العمليات الأصلية وجهت كما قد يظن على العاصمة القديمة ، وجب علينا أن نستنتج أن المدينة المتحدث عنها كانت أوزاكا ،

الواقعة عند مصب النهر الذى تقوم بجواره على مسافة غير بعيدة من شاطىء مدينة مياكو Mia-Ku وهى المدينة التى من المعروف قديما أن السفن الصينية تكثر من ارتيادها . ولكن يرى الأستاذ جوبل أن الجزيرة هى جزيرة بنج هو أو فيراندو ، قرب مدينة نانجازاكى ، التى لم تكن آنذاك مكانا على مثل هذه الدرجة من الأهمية التى بلغتها منذئذ .

(١٢) لا شك أنه هنا غلطة ظاهرة فى التاريخ ، الذى كان يجب أن يكون ١٢٨٤ ، بدلا من ١٢٦٤ • على أنه ورد فى خلاصة البندقيـة المبكرة أنه ١٢٦٩ (وكذا فى النسخ المبكرة التى طبعتها الجمعية الجغرافية الباريسية) ، وفى طبعة بال ١٢٨٩ . ولا يمكن أن يعد مؤلفنا مسئولا عن هذه التناقضات التى حدثت بين ناسخيه •

(١٣) ليس هناك من أثر أو مفتاح يمكن به اكتشاف جزيرة اسمها زورزا أو جورجا (ان صح التسامح ازاء نطق البنادقة) • وربما جاز أن نجنح الى البحث عنها فى احدى بحيرات بلاد التتـار •

(١٤) لابد أن طريقة العقاب هذه كانت طريقة تترية لا صينيـة • ويخبرنا كتاب : « تاريخ السند » ، أن عبد الملك خليفة بغـداد (ولعله خليفة دمشق الأموى ــ المترجم) انزل هذه العقوبة بأحـد قواده ، وقد اتهمته بعض الأميرات ــ وهن من الأسرى ــ بارتكاب اثم فاحش • يقول بوتنجر : « ان ذلك العاهل احنقته هذه الاهانة المزعومة ايما حنق ، وأرسل أمراً الى القائد الذى يليه فى الرتبة بأن يحيط حول محمد بن القاسم جلدا طريا ، ويقدمه على تلك الحال ليمثل فى حضرته •• ومع أن ابن القاسم كان متأكدا من براءته ، فانه سمح بأن تنفذ فيـه عقوبة مولاه الجائرة . ولم يلبث أن مـات فى اليـوم الثالث » . (انظـر : Travels in Beloochistan and Sinde) ، ص ٣٨٩ •

● هوامش الفصل الثالث

(١) الأصنام الموصوفة هنا تابعة للبوذية Budsdo أو ما يسميه كايميفر : العبادة الوثنية الأجنبية ، وليست تابعة لعقيدة السنتو، التى تبدو أن مناطى عبادتها وتمجيدها وهما السن وكامى ، يعدان التجسيد للأبطال الموتى · اجل أن بوذا ، الذى كان اليابانيون يسمونه بودس بودز وسياكا ، يمثل عادة بالشكل الطبيعى وان جعل له فى كثير من الأحيان حجم هائل ، ولكن سواء أتم الأمر فى صحبة ديانته التى قيل انها أدخلت الى اليابان حوالى القرن الأول من الحقبة المسيحية) أو فيما يرجح أثناء فترة أسبق ، فان هؤلاء اليابانيين ، وكذا الصينيين ، يبدو أنهم تبنوا عبادة الآلهة الجمة الأشكال للأساطير الهندوكية · ومن المعلوم أن كثيرا من هذه الأصنام له رؤوس حيوانات متنوعة ، كرأس الخنزير ، فى التجسيد الثالث للاله فشنو Vishun ، ورأس الفيل ، فى أشكال جانيزا Ganesa ، اللذين يمكن اضافة عجل سيفا Siva اليهما ، وهانومان أمين القردة ، والأمثلة على الأرباب ذات الرءوس العديدة فى ذلك النظام الدينى ، كثيرة ، كرءوس براهما الأربعة ، والرءوس الخمسة « لما هاديفا بانشاموخى » و « التريمورتى » أى الثالوث الهندوكى · فأما التى تبدو فيها أذرع عديدة ، فهى تضارعها فى شيوعها ، على أقل تقدير . فتلك فيما يبدو هى أصنام اليابانيين فى هذا الزمان : وان ألمت بها بعض تعديلات خاصة بهم ·

● هوامش الفصـــل الرابع

(١) مهما يظهر من عدم تحقق حول الاسم الذى يطلقه الصينيون أنفسهم عن وطنهم ، فان من المعروف أن جميع شعوب الشرق الأخرى يسمونها تشين وتشينا (أى الصين) ، والأولى هى الطريقة التى ينطقها بها الفرس وسـكان هندوستان والأخرى هى طريقـة نطق أهل الملايو وغيرهم من سكان الجزر · وما يسميه ملاحونا باسم بحر الصين ، تسميه لغة أهل الملايو بصورة ثابتة « لاوت تشينا Laut China » ·

(٢) نظرا لأن حدود بحر الصين ، لم تحدد بدقة ، صار من المستحيل تحقيق هذا التعداد المدعى لجزره ، وواضح أن المقصود به أن يشمل جزر مولوقا Moluccas أى تلك التى يحصل منها على التوابل بصفة رئيسية ·

(٣) يقول المسيو بوافر : « ان المزارع مغطاة بغابات عاطرة .. فالمرء فيها يتنفس هواء معطرا بشذى مجموعة ضخمة من الزهور الممتعة ، التى يعقب بعضها بعضا على مدار السنة ، والتى يتغلغل رياها العـذب حتى يبلغ الروح ويثير شهوة مغرية أبلغ الاغراء (انظر Voy. d'un Philosophe ص ٥٦) · ان هذه الصورة لأقطار الملايو ، وإن كانت محملة فوق طاقتها ، انما تعد تبريراً تاماً لتقرير مؤلفنا عن منتجات تلك البـــــلاد .

(٤) من العجيب أن هذا التمييز بين الفلفل الأبيض والفلفل الأسود ، الذى يتم بعملية تبييض الحبوب وهى فى أتم نضجها ، كان ملحوظا فى مثل هذه الفترة الباكرة · فحتى قريب من نصف القرن الأخير كان المظنون بصفة عامة فى أوربا أنها ثمرتا نباتين مختلفين ·

(٥) وتلك هى ايضا حال الملاحة فى الوقت الحاضر عند الصينيين ، الذين تستخدم سفنهم (جنكاتهم) فى التجارة الى جاوه وغيرها من جزر الأرخبيل ، ولكن نظرا لأنها غير مهيأة ، لا من حيث التركيب ولا تجهيزات الأشرعة ، والصوارى للعمل ضد ريح مضادة فانها تحتاج الى ريحين موسميتين للقيام برحلتى الخروج والعودة · والبيـان الوارد هنا عن هذه الرياح الدورية أو الموسمية صحيح جوهراً . ففى بحار الصين يبدأ هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية أى الشتوية ، وهى التى توائم الابحار من موانى الصين الجنوبية الى مضيق ملقا أو جاوة ، تبدأ حوالى

شهر أكتوبر أو نوفمبر ، وتدوم حتى قرابة فبراير أو مارس : فأما الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فتبدأ حوالى أبريل أو مايــو ، وتهب حتى أغسطس وسبتمبر ، وفى أثناء ذلك الموسم الأخير تعود السفن الى وطنها •

(٦) هنــاك أسباب كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن ماركو بولو ، وهو يعمل فى خدمة الامبراطور ، زار بعض الجزر الشرقية ، الشديدة القرب من سواحل الصين ، مثل جزر الفلبين فيما يحتمل • اذ الواقع أن رحــلة من هذا القبيل مذكورة ذكرا مباشرا ، بالقسم الخامس من الفصل الأول من الكتاب الأول • يمكن أن يفهم أن الجزر التى لم يزرها « بسبب شدة بعدها عن مجالنا » هى جزر مولوقا ، التى لابد أن منتجاتها الثمينة جعلت اسمها مشهورا ووجودها معروفا على الدوام •

● هوامش الفصل الخامس

(١) لا جدال أن كاينان أو تشاينان Cheinan ، حسب الهجاء الطلياني ، هي هاي نان ، وهو اسم جزيرة كبيرة ومهمة ، تقع خارج الشاطيء الجنوبي للصين ، ويعدها بعضهم الولاية السادسة عشرة في تلك الامبراطورية ويمكن الظن بطبيعة الحال أنها أعارت اسمها للخليج الذي تقع عليه ، وان شاع بين بحارتنا تسميته باسم خليج تونج كنج .

(٢) ينبغي أن نفهم أن المقصود من آنيا هو اقليم أنان أو تونج كنج الذي يكتبه البرتغاليون أنام أو انام ، وهو الاسم الذي سميت به لغة ذلك الاقليم ، واقليم كوشين صين ، في قاموس الاسكندر من رودس ، باسم Lingua Annamitica ، أي اللغة الآنامية · على أن الصينيين الذين لا يبدءون البتة كلمة بصوت حرف الألف ، ينطقونها نجان نان ، على النحو الذي توجد فيه بخرائط الجزويت ودانفيل · أما فيما يتعلق باسم تولومان فقد أبديت بعض التخمينات في هامشه في صفحة سابقة · على أن السياق ربما اقتادنا الى الظن بأن المقصود منها هو كوتشين صين ، وهي كياؤتشي لدى الصينيين ، ولكن هذين الظنين لا يؤيدهما أي تشابه في النطق كما أنه لا يبدو من الجزء السابق من خط سير الرحلة (الكتاب الأول · ف · ٤٨) (b.l.c. 48) ، أن تولومان أو ثولومان كانت تقع على الساحل . ومع هذا فلعل مؤلفنا لم يكن يعني بهذه الفترة توكيد موقعها البحري ، وانما أن يقول انه لما كان الخليج تحده الصين من جانب ، فانه يحد كذلك من الجانب الآخر بالأرض التي تحتوي أنان تونج كنج وتولومان (التي قد تكون بولومان ، أرض البرمانيين ، حسب النطق الصيني) ، وولايات أخرى تحدث عنها فيما سلف .

(٣) يمكن الظن بأن البيان المقدم حول هذه الجزر ينطبق ــ لا على الجزر الصغيرة الواقعة قريبا من أرض الصين الأصلية نفسها ، عند قاعدة الخليج ــ وانما على جزر الفلبين وكذا بالاوان أو باراجوا ، الواقعة قبالته ، وان كانت على مسافة بعيدة · ويبدو أن في ذكر اتساعه الهائل ، فيما بعد ، ما يبرر هذا الاستنتاج .

(٤) يوجد النحاس ، فضلا عن الذهب بالفلبين وكثير غيرها من الجزر الشرقية ، ولكن أعظم كمية منه وأجود صنف ، هي التي تستخرج من بلاد اليابان ·

● هوامش الفصل السادس

(١) لا مجال لشـك فى أن زيامبا الواردة فى نص راموسيو ، وهى زيامبا أيضا كما وردت فى النص اللاتينى الباكـر ، وفى نص بـال كيامبا وفى الخلاصة الايطالية المبكرة كيانبان ، ـ هى نفسها تسيامبا أو سيامبا او كيامبا او تشامبا الواردة فى خرائطنا ، وهى واقعة جنوب شرقى كوشين صين ، وفى الجزء الجنوبى الشرقى مما يمكن تسميته شبه جزيرة كمبودجا ـ (كمبوديا) ٠

(٢) تقول « Les Mémoires » متحدثة عن تشين لا : « أن دين فو هو الدين الوحيد السارى بالبلاد » ٠ (ص ١١٩)) ٠ ويقول الأستاذ الاسـكندر من رودس ، متحدثا عن اهالى كوتشين صين : « وديانتهم هى نفس ديانة الصين ، التى كانت ملحقة بها فيما سلف ، بدرجة قوية » « تعادل صلة تونكين » ٠ انظر : Voyage ey Missions ص ٦٤ ٠

(٣) فى عام ١٣٧٣ نجد ملك « تشن لا » يرسل الجزية (وهى هدايا للتحية على يد سفير) الى الامبراطور هونج أو سنليل قبلاى ٠

(٤) يصور المؤرخون الصينيون عمليـات الحملة ، بلون مخـالف ولعله اصوب ٠

(٥) غالبا ما تكون تواريخ ماركو بولو خاطئة ، والراجح أن يعود ذلك الى أخطاء الناسخين كما انها تختلف اختلافا بعيداً فى النصوص المختلفة ٠ اذ حدثت هذه الحملة فى ١٢٨١ ـ او ١٢٨٢ ٠

(٦) لم يمكن تعقب اسم أكامبال فى تواريخ الأقاليم ونظرا لأنه لا يوجد بالنسخ الأخرى لمؤلفنا ، فقد حرمنا من فرصـة الحصول على تهجئة أصح لهذه الكلمة ٠ ولكن اسم الملك الذى حكم فى « جان نان أو تون كين » بين ١٢٦٢ و ١٢٩٠ كان تشن جوى هوانج ، فيمـا يروى مؤرخ « الهون » ، وهو المسمى أيضا كوانج بنج ، وأضـاف المؤرخ قوله : « وفى تشن تشنج أو كوشين صين اشتبك » بوبيئو بولاتشيه أو « فى ١٢٨٢ ، فى حرب مع قبلاى خان » ٠ انظر Liv. 3 ص٠ص ١٧١ ـ ١٧٣ ٠

(٧) يصف كتاب الحوليات الصينيون هذه الأحداث بطريقة أقل تشريفا لجيوش مليكهم ٠ ومع هذا فمن المحتمل أنه نظرا لأن الصينيين

كانوا ينقمون على هذه المحاولات فى الغزو الأجنبى ، فلربما دفعهم ذلك الى المبـــالغة فى عواقبها الوخيمــة ٠

(٧) ربما كان من الضرورى اعلام بعض القراء أن خشب الصبر أو اجالوتشام أو خشب الأجيلا (Agila) الذى يسميه أهل الملايو وشعوب شرقية أخرى كالامباك خشب دهنى وبال متحلل فيما يبدو ، يذوب تماما اذا احترق كما يذوب الراتنج ، باعثا دخانا عطرا يقدره الناس أعظم تقدير كعطر ٠

(٩) يبدو انه لم يكن من دأب ملوك المنغال (أى المغول) حتى عهد هذه الغزوات لا الفتوح — لأقاليم ميين أو آفا ، ونجان نان أو تونج كنج، استخدام الفيلة ، لا كسلاح عسكرى ولا كدواب حمل . ثم حدث فيما أعقب ذلك من العهود أن الفيلة كانت يحتفظ بها بقصد الاستعراض فحسب ، أو لنقل متاع البلاط الامبراطورى من قصر الى آخر .

(١٠) ان كان هذا حدث فعلا فى ١٢٨٠ ، فلابد أنه كان مكلفا آنذاك بمهمة خاصة فى خدمة الامبراطور ٠ على أن الخلاصة الإيطالية الباكرة تحدد — دون أن يبدو عليها مظهر الصدق الصحيح تماما — تاريخ ١٢٧٥ ولعل من المحتمل أن الأسطول الذى رحل فيه رحيله الختامى من الصين رسا هناك أيضا حوالى عام ١٢٩١ ٠

(١١) ورد فى كتاب النبات (فلورا) تاليف لورايرو حين تحدث عن « Ebenoxylum verun » أى الأبانوس الحق :

Habitat vastas sylvas Cochinchinae, maximè prope confina cambodiae ad 11 gradum lat. ubi has arbores iterato vidi.

● هوامش الفصل السابع

(١) يبدو أن ماركو بولو خلط فى هذا الفصل بين معلومات جمعها حول جزيرتين ، احداهما جاوة والثانية بورنيو ، وبعضها ينطبق على احداهما وبعضها على الأخرى ٠

(٢) ينتج الفلفل بكل من بورنيو وجاوة ، على أن القرنفل وجوزة الطيب ليسا من منتجاتهما كليهما ، ولكن باتافيا (جاكارتا بعد الاستقلال) كانت فى العصور الحديثة سوقا عظيمة لبيعها ، وكان ذلك نتيجة لوقوع جزر مولوقا تحت سيطرة من يحكمون جاوة ٠ وربما كان هذا هو بالمثل الحال فى الفترة التى تحكم البلاد فيها ملوك ماجاباهيت ، وهو موضوع لدينا عنه معلومات عجيبة كثيرة كتبها السير ت ٠ استامفورد رافلز ، فى تاريخه الممتاز لتلك الجزيرة الشائقة . فانه يلاحظ متحدثا عن الأحداث السياسية التى جرت فى تلك الفترة قائلا : « (بعد شبوب عصيان) وقعت جميع الولايات مرة ثانية تحت سيطرة الماجاباهيت . وتروى بعض الروايات أن دامار وولان نجح أيضا فى رد غزو من كامبودجا (كامبوديا) (مج ٢ ص ١١٢) وتكررت ملاحظة العلاقة بين جاوة وتسيامبا أو تشامبا أيضا ٠

(٣) ليست جاوة مشهورة بانتاج الذهب ، بينما يجمع الكثير منه ، بعكس ذلك ، فى بورنيو ٠

(٤) هذه الملحوظة تنطبق على جاوة أكثر كثيرا مما تنطبق على بورنيو ، وذلك لأن الملاحة الى بورنيو ، من موانى الصين الجنوبية ، لا هى بالبعيدة الشقة ، ولا هى محفوفة بأية صعوبة خاصة ٠ وربما صح لنا أن نلاحظ هنا ، أن المؤرخين الصينيين يتحدثون عن مملكة تسمى كوا أوا ، سير عليها قبلاى قيام حملة عسكرية ، حوالى عام ١٢٨٧ حسب رواية الأستاذ أميوت أو ١٢٩٢ حسب رواية ده جنى الأكبر ٠

● هوامش الفصل الثامن

(١) اذا كانت جزيرة كوندور – وهناك أسباب وجيهة للذهاب الى ذلك – هي جزيرة كوندوره الواردة بخرائطنا (ويسميهـا أهـل الملايو كوندور Kondûr التى تعنى نوعا من القرع) ، فمن الواضح أن الاتجـاه والمسافة المعينين لها خاطئان ، وذلك لأن اتخاذ طريق جنوبى بجنوب غربى من جاوة لا بد له – بدلا من اقتياد الملاح الى جزيرة على شاطىء كمبودجا – أن يحمله الى المحيط الجنوبى • ويبدو أن هذه الأخطاء نشأت عن سوء فهم لخط سير الرحلة ، التى يدخل فيها مؤلفنا ، باعترافه ، أماكن ليس لديه عنها معلومات الا بسبيل السماع ، بالاضافة الى الأماكن التى زارها فعلا • فأما ان رحلته لم تقتده الى جزيرة جاوة (مميزة عن التى يسميها فيما بعد جاوة الصغرى) ، فشىء واضح يتجلى من نفس عباراته ، ولكنه عند مغادرته الصين وبلوغه تسيامبا ، التى اما أن يكون رسا بها ، أو رآها وهو يمر أمامها ، يدخل فى استطراد لقصتـه لكى يذكر بعد هذه الجزيرة الشهيرة ويشير الى بعض تفصيلات خاصة عنها ، فاذا انتهى من ذلك عاد الى النقطة التى تركها ، ومنها يتقدم (بطريقته الاستطرادية المفككة) الى متابعة طريقه الصحيح ، الذى يؤدى به بصورة طبيعية الى جزيرة كوندور الصغيرة • نظرا لأن نساخ مخطوطه الأوائل لم ينتبهوا الى هذا الفارق الضخم ، فانهم حاولوا أن يجعلوا اليومية اكثر انتظاما طبقا لفكرتهم ، باقحام هـذه الملحوظات عنوة – مهمـا بلغ من عدم استقامتها مع حقائق الجغرافيا – واظهارها بشكل تسلسل واحد متسق ، مع المعالجة الى تعيين اتجاهات – خيالية ، بقصد بلـوغ تلك الغاية . لا يمكن التعرف على اسم صوندور . فان كانت فى الحقيقة مكانا آخر مميزا ، وليس قراءة أخرى لكلمة كوندور، (التى تتألف فى حد ذاتها من جزيرتين صغرى وكبرى) ، فربما كان المقصود منها هو بولو ساباتا ، التى تقع على الطريق ، ولكن على مسافة ضخمة من الأولى (يعنى كوندور) •

(٢) ان لوتشاك بنص راموسيو ولوتشاتش فى الخلاصة هى نفسها لاتش فى احدى النسخ اللاتينية الباكرة وبوياتش فى طبعـة بال • وتذكر احدى النسخ انها تقع فى اتجاه جنوبى شرقى ، واخرى انها فى اتجاه جنوبى وجنوبى بغرب من كوندور : وكلا القولين لا يستقيم والحقيقة الجغرافية • ويبدو من الظروف أن المقصود بها جزء ما من اقليم كمبودجا

التى كانت عاصمتها تسمى لونتش ، طبقا لرواية جسبار ده كروز الذى زارها اثناء حكم سيباستيان ، ملك البرتغال • (انظر بوتشاس Puchas مج ٣ ص ١٦٩) وكتب الاسم فى خريطة دانفيل ليفيك •

(٣) لست أعلم فيما عدا منطقة سولو ، قرب الشاطىء الشمالى الشرقى لبورنيو ، عن انتاج ودع العملة بأى جزء من اجزاء البحار الشرقية أو الصينية ، كما أنى أشتم هنا زحزحة للفقرات عن مكانها أو غلطة من نوع آخر ، وذلك لأن كلمات النص لا تنطبق الا علىّ جزر الملديف وحدها . وورد فى النص اللاتينى ما يلى :

« Utuntur incolar pro moneta glebis quibusdam aureis »

وهو قول يمكن أن يفهم على أن المراد منه هو قطع صغيرة من الذهب وهى تشبه فى شكلها القطع الفضية التى تشابه الرصاصات المسطوحة (القذائف المبططة) ، والتى تتداول فى سيام : على أن هذه لا يمكن تصويرها للتداول فى اقاليم اخرى •

(٤) من المحال علينا بغير معاونة وصف أدق لهذه الفاكهة ، حتى ولو استعنا بقاموس Loureiro's Flora Cochinchinensis تاليف لوريير والتحقق من نوع الفاكهة المسماة هنا بالبرسى أو البرتشى Berchi . على أنه فى بلاد يوجد بها المانجوستان : Gorcinia mangostna (المنجو) ربما جاز الظن أنها تستحق هذه الملحوظة الخاصة ، لكن المؤلف لم يخبرنا أن هذه الفاكهة الرائعة من منتجات كامبودجا •

(٥) تنسب هذه الحالة المنعزلة للاقليم الى أسباب بعيدة الاختلاف • فنحن نجدها تنسب هنا الى دوافع سياسة الغيرة ، والسبب الوارد فى نسخة بال هو :

« Adeo inhumani and habitatores ejus »

كما انه وارد فى الخلاصة الايطالية هكذا :

Perche elli sie fora de via.

ولأن الاخير هو ابسط التعديلات ، فانه قد يكون اصدقها •

(١) يبدو أن بنتان ، التى هى فى طبعـة بال بيتان ، ولكنها فى اللاتينية الأقدم بنتاين ، انما هى جزيرة بنتان ، أو بنتانج بطريقة كتابتها الأشيع قرب الفتحة الشرقية لمضيق ملقا ، التى تعد ميناؤها المسماة رئيوا أورهيو ، مكانا عظيم التجارة · ويتجه الطريق اليها من كامبودجا نحو الجنوب تقريبا ، كما هو وارد بكل من النصين الايطالى واللاتينى ، هذا الى أن المسافة لا تختلف اختلافا كبيرا عن خمسمائة ميل ·

(٢) يجد الملاحون اثناء رحلتهم بين ساحل كمبوديا وجزيرة بينتان ومضيق ملقا عدة مناطق ضخمة وشعبا مرجانية ، ولكن الشقة المعينة من المياه الضحلة التى تشير اليها الفقرة الواردة فى النص ، لا يمكن تحديد موقعها بدقة ·

(٣) لا يكاد يتطرق شك الى أن جزيرة ومملكة مالايور (وهى فى طبعة بال ماليتور ، ولكنها فى اللاتينية الأقدم ماليبور) انما عنى مؤلفنا بها التحدث عن مملكة الملايو ــ (Orang Malâgu) التى أسست قبل عهده بما يقارب القرن ، عند الطرف الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة التى تحمل ذلك الاسم ، فرغم انه حدث حوالى عام ١٢٥٢ أن مقر الحكم نقل الى ملقا ، فان اسم أرض الملايو Tanah malâyu يبدو أنه ظل بالتأكيد يطلق دائما على ذلك الجزء من البلاد ، الذى اقيمت فيه المنشأة الأصلية ، التى تدخل الآن ضمن مملكة جوهر · وعن اسم مدينتهم الأولى ، حصل المضيق ــ الذى كونته جزيرة تقع قريبا جدا من الطرف الأقصى من البر ــ على اسم مضيق سنغافورة أو سنكابور كما يسمى عند العامة ·

● هوامش الفصل العاشر

(١) تكاد تجمع جميع الظروف علي توكيد الرأى القائل بأن المقصود من جياوا الصغرى في نص راموسيو ، وجاوا Jaua الصغرى فى اللاتينية ، هو جزيرة سومطرة ، وهو أسم لا يكاد يعرفه الأهالى الا قليلا ، لعله من أصل هندوكى ٠

(٢) العقاقير الأخرى المشار اليها هنا ربما تكون اللبان الجاوى Gum benzuin والكافور المجلى الأصيل (مميزا عن الكافور المقلد الذى يباع فى الدكاكين مستوردا من الصين واليابان) ، وهما سلعتان تجاريتان دائمتان أساسيتان فى سومطرة ٠

(٣) نظرا لأن خط الاعتدال (الاستوائى) يقطع الجزيرة ، فمن الطبيعى ألا يبدو نجم الشمال لسكان القسم الجنوبى كله منها ، بل ان سكان شطرى الشمالى لا يرونه الا نادرا ، وتحت ظروف خاصة فقط ٠

● هوامش الفصل الحادى عشر

(١) الاسم الوارد هنا فليتش هو فى الطبعة اللاتينية فيرلتش ، وفى الخلاصات الايطالية فيرلاتش ، المعادلة لفيرلاك · ومن ثم يبدو أن المعنى بها مكان يسمى بيرلاك ويقع على الطرف الشرقى للساحل الشمالى ، ونظرا لأننا نجد فى سياق الكلام أن تعطيل الأسطول باحدى موانى هذه الجزيرة ، كان مرده الظروف الجوية غير الموائمة ، يمكن الظن بأن الجماعة بعد مغادرتهم جزيرة بنتان ، وقطع المضيق تقريبا ، التقوا بالعواصف الغربية ، وهم يجتازون أرض القارة عند تانجونج برلاك — أى « النقطة الماسية» فى خرائطنا — وعندئذ اضطروا الى التماس ملجأ فى خليج قريب ·

(٢) مما يبرر تماما تأكيدات مؤلفنا بأنه وجد مسلمين بين هذا الشعب حوالى عام ١٢٩١ ، ما روته حوليات أمراء ملقا ، التى تذكر أن تأسيس ذلك الدين فى شبه الجزيرة حدث أثناء حكم ملك تبوأ العرش فى ١٢٧ ومات فى ١٣٣٣ ، وذلك بينما هو فى نفس الوقت واضح فى اعتناق الأفراد للدين الجديد — حتى فى أعداد كبيرة — ربما سبق بأعوام كثيرة اتخاذ الديانة الاسلامية دينا رسميا للحكومة — انظر History of Sumatra الطبعة الثالثة ص ٣٤٣ ·

(٣) تشير هذه الصفة بوضوح الى الشعب المسمى « الباتا Battas » ، الذى يسكن شطرا ضخما من داخلية سومطرة ، بالقرب من نهايتها الشمالية ، والذين لاحظ الرحالة والكتاب فى جميع العصور ، اكلهم لحوم البشر ، منذ أن عرفت الجزيرة الأوربيين لأول مرة ·

(٤) « لا يعمد شعب « الباتا » الى ذبح الماشية لاتخاذها طعاما ، الا فى المناسبات العامة ، ولكن نظرا لأن شهيتهم لم تجبل على رقة ولا تهذيب ، فانهم لا يتورعون عن تناول لحم جاموسة ميتة أو خنزير أو فأر أو تمساح أو أى حيوان متوحش يتصادف أن يلتقوا به · انظر : History of Sumatra ط ٣ ص ٣٨٠ ·

(٥) وهناك تأكيد مماثل أدلى به Ludovico Barthema عن شعب جاوة ، يقول هذا الرحالة غير العادى والأصيل أيضا :

La fede loro è questa, alcuni adodano gli i doli come

(أعنى أنهم يعبدون آلهة الهندوك)

fanno in Calicut, e alcuni sono che adorano il sole ; altri la luna, molti adorano il bue ; granparte la prima cosa che scontrano la mattina ».

انظر راموسيو مج ١ ص ١٦٨ ٠

● هوامش الفصل الثانى عشر

(١) ذهب بعضهم ، على أساس مشابهة صوتية عادلة فى الأسماء الى أن « باصما » فى نسخة راموسيو الايطالية الأقدم ، أو باسمان فى طبعة بال ، انما تشير الى باسبمان ، على الشاطىء الغربى ، تحت خط الاعتدال الاستوائى مباشرة ، ولكن ليس هناك أى احتمال بأن مؤلفنا زار أى مكان على هذا الجانب من الجزيرة ، وبخاصة أن يكون مكانا متوغلا غربيا الى هذا الحد البعيد · وتقتادنا جميع الظروف ــ بعد ذلك ــ الى الحكم بأن المقصود بها هو بازيه Pasé (ويكتبها الرحالة القدماء باسم) ، على الساحل الشمالى ، غير بعيد من « النقطة الماسية » ·· يقول ج ده باروس : « كانت بيدير Pedir المدينة الرئيسية بهذه النواحى قبل انشاء ملقا ، ولكنها بدأت فى الاضمحلال بعد هذه الفترة ، وبخاصة بعد وصول البرتغاليين ، كما شرعت مدينة باسم الواقعة فى جوارها فى الصعود أهمية وشأنا » · انظر Decad ٣ ورقة ١١٥ ·

(٢) مما يجعل هذا البيان ممكنا ما نعرفه من طموح قبلاى الى بسط شهرة امبراطوريته الى أماكن بعيدة تقع وراء منال جيوشه ، وبصفة خاصة الى تأسيس « تابعية اقطاعية » ، وان تكن اسمية فقط بين أمراء الجزر الشرقية ·

(٣) والفيل والخرتيت (الكركدن) كلاهما معروف لدى سكان سومطرة · أما فيما يتعلق باستعمالات قرنة كسلاح دفاعى ، والتركيب الشوكى للسان ، فقد خدع فيها مؤلفنا بحكم ما سمع أو قرأ · وكان الاعتقاد بتمزيقه اللحم باللعق يعم العالم قاطبة منذ أيام بلينى الى فترة قريبة جدا · وينبئنا برنتيوس ، وهو طبيب هولندى كتب فى باتافيا فى ١٦٢٩ : « ان هو استثير ، أطار الرجل أو الحصان كما تطير الزبابة ، فيقتله بلعقه ، بينما يجرد العظام من اللحم بخشونة لسانه » · انظر : An account of the Deacuses ص ١٨٣ ·

(٤) يتطابق ما قيل عن ابتهاج الحيوان بالبرك الطينية مع ما هو معروف من عادات الحيوان · يقول كتاب The Hist of Quadrupeds « الكركدن ــ شأن الخنزير ــ مغرم بالتمرغ فى الروبة الطينية والوحل » ص ١٧٧ ·

(٥) (كان من الخرافات الشائعة فى العصور الوسطى ، التى وردت فى جميع الرسـائل المسطرة فى « التاريخ الطبيعى » (أو كتب علم الحيوان (Bestiaries) على ما كانت تسمى) ، ان هناك طريقة واحدة فقط للقبض على وحيد القرن وهى وضع عذراء طاهرة قرب الأماكن التى يرتادها . وكان المعتقد أن الحيوان يصبح لتوه أنيسا ، بحيث يتقدم ويضع رأسه فى صدر العذراء فينتهز الصائد الفرصة ليقتله) .

(٦) ليس بمستبعد اطلاقا ، فى عهد لم تكن فيه الأجزاء الشرقية من العالم معروفة الا قليلا لدى الأوربيين ، الذين اتصفوا بسرعة التصديق على نحو متناسب مع جهالتهم ، أن يمارس هذه الخدع رحالة من العرب وتجار الأرمن ، الذين زاروا الجزر التى كان يوجد بها الاورانج أوتان أو البونجو (Simia Satyrus)، وربما اعتادوا بيع هذه الجثث المحشوة الى الباحثين الايطاليين ، على أنها مومياوات جنس قزم من الناس .

● هوامش الفصل الثالث عشر

(١) المكان الذى يبدو انه يتجاوب وسمارا على أحسن وجه هو سمالانجا ، التى تقع بين بيدير وبازيه على الساحل الشمالى نفسه ، والذى [illegible] فى كتابات أهل الملايو بأن لهم ميزة امكان الرسو المحمى جيداً أى الآمن من الرياح .

(٢) اذا كانت الحملة التى صحبها مؤلفنا ، رحلت من الصين حوالى بداية عام ١٢٩١ (كما هو مستنتج فى هـ I ص 27) واستغرقت ثلاثة أشهر فى رحلتها الى جاوة الصغرى أى سومطرة (كما ذكر ذلك هو نفسه فى الفصل الأول من العمل ص 27) فانها كانت لتقابل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية عند الفتحة الغربية لمضيق ملقا قرب شهر مايو من تلك السنة ، فلما أن الفوا من الضرورى الرسو – نتيجة لهذا – بأحد الخلجان بالشاطىء الشمالى من تلك الجزيرة ، فلربما تطلعوا هناك حتى يمكنهم مع عودة الرياح الشمالية الشرقية توقع جو لطيف ومستقر .

(٣) عندما يخبرنا مؤلفنا انه لم يكن يمكن رؤية النجم القطبى ، من مكان لا يبعد عن خط الأستواء الا حوالى خمس درجات ، نسلم فورا بهذه الحقيقة ، على ان توكيده التالى بأن نجوم الدب الأكبر كانت غير مرئية هى الأخرى ، شىء – على عكس ذلك – لا يمكن تعليله الا ان تنسب اليه الفكرة الخاطئة بانه نظرا لأن المجموعة النجمية لم تكن تظهر فوق الأفق ليلا ، اثناء الشطر الأكبر من مدة اقامته بالجزيرة ، فانها لم تكن لترى اثناء أى فصل آخر .

(٤) مما يذكر أنه حدث فى عام ١٥٢٢ ، أن أصيبت الحامية البرتغالية فى قلعة مبنية فى باسم (بازيه) ، قرب المكان المتحدث عنه هنا ، بمحنة بسبب « اعوازها الى الطعام ، الذى حجبه اهل البلاد عنهم ، بايقافهم الأسواق التى الفوا اقامتها ثلاث مرات أسبوعيا » . انظر « Hist. of Sumatra » ، ط ٣ ، ص ٤١٩ .

(٥) من هذه النخلة التى تسمى فى سومطرة أناوو Anau ويسميها أهالى الملايو الشرقية جوموتو Gomuto هى من فصيلة بوراسوس جوموتوس عند أوربيرو ، وهى التى وردت فى (The Batavian Transactions) باسم ساجوير وس بيناتوس ، ويعمد الأهالى للحصول

على النيرة « niva » أو التودية (عصارة النخيل الطازجة) الذى يلقى منهم تقديراً أعظم مما يلقى المستخرج من شجرة جوز الهند — الى قطع احدى اكواز الطلع — أى الفروع المستخدمة فى الأخصاب عن بعد بضع بوصات من الجذع حيث يربط الجزء الباقى ثم يدق ، وعندئذ يعمل حز يرشح منه الشراب فى وعاء أو خيزرانة ، تربط تحتها باحكام ، وتستبدل هذه بأخرى مرة كل أربع وعشرين ساعة — انظر :
Hist of Sum., p. 88 ص ٨٨ .

(٦) ربما كانت الخواصَ العلاجية لهذا الشراب وهمية ، شأن كثير غيره من الوصفات الدوائية ، على أن مؤلفنا لم يكن يملك الا ان يتحدث بما سمعه من اعتقـاد شائع حول مزاياه . غير أنه يعتقد بصفة عامة أن الاشراف فى استخدامه يجلب الزحار (الدوسنتاريا) .

(٧) من الطبيعي الاعتقاد بأن ارواء الأشجار اثناء فصل الجفاف ، يعود بزيادة مقدار العصارة ، ويعود بالتبعية بزيادة العصير أو الشراب المتوح (المستنزف) .

(٨) هذا الوصف لجوز الهند « cocos nucifera » معروف — حتى لمن شهدوا الثمرة مجلوبة الى اوربا — انه صحيح تماما ، بيد ان الانتعـاش المستحب الذى يولده شرابه . متى شرب من الجوزة الصغيرة بينما القشر الخارجى لا يزال أخضر ، والقلب (اللب) لا يزال طريا جيلاتينيا ؛ لا يمكن أن يبدى الحكم فيه الا من قاموا بالرحلات ، تحت شمس محرقة ، بتلك البلاد التى ينتج بها .

● هوامش الفصل الرابع عشر

(١) يعتقد فالنتين وغيره من الكتاب الهولنديين أن المقصود من دراجويان التى وردت بنفس الهجاء فى طبعتى بال واللاتينية الأبكر ، ووردت فى المخطوطات داجويام ، وفى الخلاصات الايطالية ديراجولا ، ـ هو اندراجيرى أو آندراجيرى حسب الطريقة الأشيع فى كتابتها ، وهو نهر ضخم فى الجانب الشرقى من الجزيرة ، وهو وان كان بعيدا فى اتجاه الجنوب ، وكان من ثم بعيدا عن المكان الذى القى الأسطول فيه مراسيه ، الا انه ربما زاره رحالتنا المغامر أثناء فترة تعطله فى الأشهر الخمسة "

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) يظهر اسم لامبرى بغير أدنى تغيير فى الطبعات والنسخ المتعددة ، وذلك فيما عدا موضعا واحدا ، اذ هو يظهر فى النسخة اللاتينية الباكرة ، مطبوعا جامبرى • فان كانت المنطقة المذكورة اخيرا هى اندراجيرى ، لكان هذا الاسم هو جامبى فيما يبدو ، وهو اسم آخر كبير ، يقع جنوبيا اكثر • وفى الطبعة الألمانية (نورنبرج) الصادرة فى ١٤٧٧ ، تسمى هذه المملكة أو الناحية جامبو ، وهو اسم يكاد يقترب من أسم جامبى •

(٢) هذا هو الخشب المسمى Caesulpinia Sappan عند لينايوس Lin. ، وهو المشهور بأنه مادة صباغة تشتهر باسم خشب البريزيل ؛ وهو اسم يظن الناس عموما بأنه اكتسبه من اسم اقليم البرازيل ، ولكن يبدو أن العكس هو الواقع • ذلك أن كلمتى فرزينو Verzino بالايطالية وبارسينو barcino بالاسبانية وتحرفان الى برزن وبيرزيل ، كانتا موجودتين قبل اكتشاف العالم الجديد بزمن طويل ، كما أن الاسم أطلق على ذلك الجزء من أمريكا الجنوبية بسبب امتلائه بالأشجار التى تنتج تلك الصباغة النافعة •

(٣) ربما شاهد مؤلفنا الكافور بمدينة جامبى ، ولكن لابد انه حمل اليها ليباع هناك ، من المناطق الداخلية الواقعة بعيدا فى الشمال الغربى وذلك لأن تلك الشجرة لا تنمو بأى مكان جنوب خط الاستواء •

(٤) ما يقال هنا عن نوع آخر من مواد الصباغة ، متميز عن الفرزينو ، يختلط فى الطبعات اللاتينية معه ، ويطلق على النوعين اسم بوسى Berci وهو اسم اتصاله ببرزن وبارسينو واضح تماما • وفيما عدا نبات النيلج (Indigofera Tinctoria) فانى لا أعلم نباتا يستخدم فى الصباغة ؛ وتستخدم كل اجزائه جميعا بلا تمييز : الجذور والأوراق والساق • على أن هذا النبات نفسه يوصف بتفصيل اكثر فى الفصل العشرين من هذا الكتاب تحت اسم النيلج Endigo •

(٥) يبدو أن الأصل فى فكرة الجبليين ذوى الذيول هو اسم الأورانج أوتان أو « الانسان الوحشى » الذى يطلق على بعض أنواع القردة العليا التى تشابه بوجه أخص النوع البشرى •

● هوامش الفصل السادس عشر

(١) ظن بعضهم أن فانفور المقصود بها هو جزيرة بانشور ، التى يفصلها عن شاطىء سومطرة الشرقى مضيق ضيق ، ومع أن هذا الظن لا يؤيده التشابه الصوتى ، فانى أميل الى الظن بأن المقصود منه هو كامبار (التى ينطقها ربابنة العرب كانفار) التى تقع على نهر يصب بنفس المضيق ، التى كانت فى المدة التى ازدهرت فيها بازيه ، تعد مكانا له بعض الأهمية ، وكثيرا ما يرد ذكرها فى كتابات ج • ده باروه وغيره من الكتاب المبكرين •

(٢) سبق أن لاحظنا تفوق الكافور المحلى (فى رأى الصينيين ، (وهم أهم الشعوب التى تشتريه) ، على ما ينتج منه ببلاد الصين نفسها وباليابان • وثمنه ، وان لم يعد بأية حال معادلا لوزنه من الذهب ، فى الزمان الحديث ، الا أنه يتجاوز ضعف وزنه من الفضة • وطبقا لقائمة أسعار البضائع فى باتافيا ، عن عام ١٨١٤ ، ورد أن أجود أنواع الكافور Camphor-barus يباع بسعر خمسين روبية أو ستة جنيهات انجليزية وخمسة شلنات للرطل الواحد ، بينما سعر الكافور فى سوق الصين أو اليابان أقل من روبية واحدة أو حوالى شلنين للرطل •

(٣) يقصد بهذا شجرة الساجو المسماة الرومبيا Rumbiya والبوهن ساجو عند أهل الملايو •

(٤) التعبير الوارد فى النص هو « Cime quella del carvolo » وهى كلمة لم يمكن العثور عليها بالقواميس الايطالية تسمية لأى نبات . والكارفالهو Carvalho فى البرتغالية هو البلوط •

(٥) قام رومفيوس وبوافر وغيرهما ، بعمل وصف واف لطريقة اعداد الساجو من اللب الدقيقى والغروى للشجرة ولكن هذا تم بطريقة محكمة أكثر فى Asiatic Rerearches • يقول صديقى الجليل المرحوم جون كرسب ، متحدثا عن سكان جزر بوجى ، الواقعة غير بعيد خارج ساحل سومطرة : « ان المادة الرئيسية فى طعامهم هو الساجو . الذى يوجد بوفرة فى هذه الجزر فمتى نضجت الشجرة ، قطعت ، واستخرج اللب أو النخاع الذى يشكل الساجو ، وفصل الجزء الدقيقى من الألياف بالنقع فى الماء ، وبالدوس بالأقدام فى حوض أو جرن ، يزود بالماء النقى

باستمرار ، فيرسب الجزء الدقيقى ، ويحتفظ به فى جوالقات مصنوعة من نوع من سمار الحصير ، فيمكن حفظه فى هذه الحالة مدة طويلة · ومتى استخرجوه من مخزنهم للاستخدام الفورى ، صار من الضرورى اجراء عملية تجهيز أخرى قوامها الغسل ، ولكنهم لا يجرشونه · وقد تعطى شجرة واحدة فى بعض الأحيان مائتى رطل من الساجو ، ومتى طبخوه وضعوه فى الأوصال المجوفة للخيزران الرفيع ثم حمصوه على النار ، مج ٦ ص ٨٣ ·

(٦) أحضر الكابتن توماس فوريست الى انجلترا فى ١٧٧٨ ، كمكا من خبز الساجو بمنزل السير جوزيف بانكس وهى مما جهزه أهالى نيوجنى ، كما أحضر الفرن الطينى المستخدم فى خبزها ، والذى رسم صورته فى البيان الذى كتبه بتلك البلاد · (ص ٣٨٨) ·

(٧) من الواضح ان مؤلفنا وقع فى خطأ ؛ حيث ظن أن هذا الخشب الصلب والثقيل الذى يسمح بأن يشق طوليا الى شرائح ، ـ شأن قصب الخيزران ـ هو الجزء الخشبى من شجرة الساجو ، الذى يختلف تركيبه اختلافا بينا ـ فان ما يصفه بأنه صالح لعمل الرماح انما هو جذع نوع آخر من النخل ينمو بنفس هذه الجهة من البلاد ، ويسميه أهالى سومطرة وجاوة نيبونج ، ويسميه علماء التاريخ الطبيعى « كاريوتا يورنز » ، الذى خلط المؤلف بينه وبين الشجر الآخر المجاور · ومع هذا فان بعض ذوى الشهرة الكبيرة من علماء النبات ، لم يبدوا قدرة أكبر على التمييز ، فيما يتعلق ببعض الأنواع التى تتألف منها رتبة order النخيل ·

● هوامش الفصل السابع عشر

(١) من الواضح أن الجزيرة المسماة هنا باسم نوكويران ، وفى نسخة بال نيكورام ، وفى اللاتينية الأقدم نيـكوران ، وفى الخلاصـة الايطالية ـ انما هى احدى جزر نيكوبار ، وهى المسماة بخرائطنـا تونكوري ونونكافري وفى خريطة دانفيل نيكافرى ، وهى وان لم تكن اكبرها مساحة فانها أشدها شهرة بسبب مرفئها الجيد ، وهى تبعد عن الطرف الأقصى لسومطرة حوالى درجتين ونصف أى مائة وخمسين ميلا بحريا ٠

(٢) يقول كاتب فى مجـلة (Asiatic Researches) مج ٣ ص ١٦٠ : « تشاهد فى غاباتهم أشجار عظيمة الارتفاع والحجم ، » ملحوظة ٠ « قطع قومنا احدى هذه الأشجار وكان محيطها تسع قامات أى ٥٤ قدما » . وهى أشجار باسقة حقا ! على أن المنتجات التى يعتنون بها بوجه أخص هى أشجار جوز الهند والفوفل : (الكوتل أو الأريقة ..) وينمو هناك أيضا القرفة البرية والساسافراس ٠ وهو ضرب من الغار الأمريكى ٠

● هوامش الفصل الثامن عشر

(١) لا يمكن ان يخالجنا شك أن المقصود من انجامان فى نص راموسيو والنصوص اللاتينية القديمة وانجانيا فى طبعة بال ، ونانجاما فى الخلاصات الايطالية ، — هو تلك الجزر الواقعة فى الجانب الشرقى من خليج البنغال ، التى نسميها جزر اندامان الكبرى والصغرى .

(٢) يقول المستر ر . هـ . كولبروك : « يسكن جزر الانداماه جنس من الناس لعلهم أقل سكان العالم تمدينا ، فهم أقرب الى الحالة الفطرية البحتة من أى جنس آخر نقرأ عنه . ولونهم أقتم ما يكون ، وقامتهم قصيرة على وجه الجملة ، كما أن هيئتهم غريبة غير مألوفة . وأطرافهم قبيحة التكوين هزيلة ، وكروشهم بارزة ، وهم كالأفريقيين رؤوسهم صوفية الشعر (مفلفلة) ، وشفاه غليظة وانوف فطساء . وهم يعيشون عراة تماما » . انظر (Asiat. Res.) مج ٤ ص ٣٨٩ . يقول الرحالة العرب : « وهم سود البشرة ، وشعورهم جعدة . ووجوههم وعيونهم مخيفة ، وأقدامهم كبيرة جدا تكاد تبلغ الذراع طولا ، كما انهم يعيشون عراة الأجسام تماما » . (انظر Anciennes Relat. ص ٥) . وهذا الوصف القديم يفند بكفاية القصة التى لا اساس لها حول الجزر وانها كانت تسكنها فى الأصل شحنة من العبيد الأفريقيين الذين نجوا من حطام سفينة برتغالية ، وهى القصة التى اخترعها وصدقها أشخاص كانوا يجهلون ظروف كثير من الجزر الشرقية وانها هى الأخرى يسكنها جنس من الزنوج .

(٣) يقصد بتفاح الجنة Pomi paradisi النبات المسمى موز الجنة ، المسمى بيسانج ببلاد الملايو ، و Musa Paradisiaca عند لينايوس Linnaeus (عالم النبات السويدى) .

● هوامش الفصل التاسع عشر

(١) لا شك أن اسم هذه الجزيرة المهمة ، التى ينطقهـا الفرس وسكان الهندوستان ــ سيلان (ويسمونها أيضا سيرنديب) ، تم الاحتفاظ به بكل النسخ العديدة بصورة خلت من التحريف أكثر من أى اسم آخر فى العمل كله • فهو يكتب زيلان فى نسخة راموسيو ، وفى طبعـة بال سـيلام Seilam وفى اللاتينيـة الأقدم سـيلان Seylan وفى الخلاصات الايطالية سيلان ، وكلها أفضل من هجائها سيلون Ceylon وهو الهجاء الذى اعتدنا كتابة الكلمة بها (نقلا عن الهولندية فيما أظن). واتجاه أشد أجزائها امعانا فى الجنوب من جـزر اندامان يكاد يكون الجنوب الغربى الجنوبى ، كما أن المسافة ، حسب القياس على الخريطة ؛ تبلغ أكثر قليلا من تسعمائة ميل جغرافى •

(٢) بالنص : (Sicut dicit Mappa mundi)

وأوردت الترجمة الحرفية للألفاظ اللاتينية لا ترجمة مارسدن لنص راموسيو • والخريطة العالمية (Mappa-Mundi or Mappe Monde) كانت الاسم الذى كان يطلق فى العصور الوسـطى على نوع خريطة العالم المستخدمة آنذاك ، كما أنه كان يستخدم أيضا أحيانا عنوانا لرسالة فى الجغرافيا • والواقع أن خريطة للعالم ، كانت الى حد ما ، رسالة فى الجغرافيا ، وذلك لأن وصفا كتابيا كان يضاف عادة الى اسم كل مكان على الخريطة ، وهو الوضع الذى يفسر كلمة (Dicit.) ولا شك أن « الخريطة العالمية » التى استخدمها ماركو بولو كانت خريطة شرقية : صينية أو عربية وذكر المسـتر كوردينر ، فى كتابه « وصـف سـيلان « Description of Ceylon » ، الذى نشر فى ١٨٠٧ ، أن هناك روايات متوارثة تناقلها الأهالى (تؤيدها فيما يقـال الملاحظات الفلكيـة) بأن الجـزيرة نقصت نقصا كبيراً فى حجمها عما كانت عليه فيما سـلف ، وهى رواية ذكرها بوجه خاص ماركو بولو ، وهو رجل من البنادقة ، زار بلاد الشرق فى القرن الثالث عشر » • مج ١ ص ٢ •

(٣) ان أسماء الأعلام الهندية لها على الدوام معـان ودلالات • ويبدو أن المقصود من سندرناز هو تشاندراناس ، ومعناها ، محاق القمر أو اختفاؤه • وهو وان لم يكن ربما ملك كاندى ، أو الجزيرة بأكملها ، فانه ربما كان يحكم منطقة على الشاطىء الغربى والراجح أن يكون حكمه

على المنطقة التى يسكنها شعب من الناس هبطوا الجزيرة من القارة المقابلة ·

(٤) يقول المستر كورديئر : « ان ملابس العامة ليست سوى قطعة من العبك ـ (القماش القطن الخام) أو الموسلين ، لفت حول الوسط ، يتفاوت حجمها ونوعها باختلاف ظروف لابسها . وكلما زاد الواحد منهم فقراً ، زاد قلة فى الاستتار » · مج ١ ص ٩٤ ·

(٥) ويقول الكاتب نفسه : « ان الفاكهة هي المادة الأساسية في طعامهم · والأرز ترف يندر أن ينال معظمهم منه نصيبا : فأما السمك واللحم فينطبق عليهما نفس الأمر تقريبا » · « وهم يشربون الماء الحلو الرائق الذى يوجد داخل جوز الهند ، كما يحتسون خمر النخيل أحيانا أى الشراب المستخرج من قمة النخلة ، قبل أن يصل الى درجة الاسكار »· (ص ١٠٤) · ويقول نوكس : « ومن الأرز لديهم انواع عديدة » · « والتللا Tolla حبوب يستخرجون منها الزيت » · (ص ٧ ـ ١٢) وهذا هو التل Til أو حب السمسم الوارد ذكره فى Materia Medica اجــــلادوين .

(٦) يقول نوكس Knox « توجد بهذه الجزيرة عدة أنواع من الأحجار النفيسة ، يملك الملك منها الكفاية ولذا فانه لا يحرص على اكتشاف المزيد منها ·· وتوجد أيضا بعض أنهار ، يقال على وجه العموم ، انهم يستخرجون منها بالفعل اليواقيت والياقوت الأزرق لاستخدام الملك خاصة ، وكذا احجار عين الهر · » (ص ٣١) · ويعدد المستر كورديئر بين منتجات سيلان ، الياقوت والزمرد ، والتوپاز والجشمت والياقوت الأزرق وعين الهر (أو الأوبال)، وحجر القرفة أو العقيق الأحمر والبشلب وأنواع الجذع العقيقى ؛ فضلا عن انواع أخرى · (مج ١ ص ١٤) ·

(٧) يبدو ان المقصود بهذا الوصف هو ما يسمى اجمالا باسم العقيق الأحمر ، الذى يعرفه المستر وود ورد بانه : « حجر من نوع الياقوت له لون أحمر دموى قان » ، ويعتقد أنه يتصف بالتألق فى الظلام ·

(٨) لو أن لهذا الحجر الخارق وجودا حقيقيا ، فلربما كان كتلة من البلور الملون · ولكن ليس شيئا غير مألوف ان يصدر عن أمراء الشرق ، فى ديباجة رسائلهم وتراخيصهم ، المفاخرة بامتلاك تحف خيالية ومستبعدة ، وفى هذه الواقعة بالذات يعد كذب هذه الادعاءات تعليلا كافيا يعلل لرفض الملك العرض الفاخر الذى قدم لخزانتها من امبراطور الصين ·

(٩) يقول المستر كوردينر : « ان أهل سيلان قوم فقراء عديمو الضرر كسالى وغير مقاتلين ويمتازون بالاتزان والاعتدال والخجل والجبن » ٠ « وبذل منذ بضع سنوات جهد لتدريب بعضهم على الجندية ، ولكن تلك المحـاولة فشلت تماما بعد جهود مضنية طويلة » ٠ (ص ٩٢) ٠ (وتتفق بيانات أخرى ، قديمة وحديثة ، على صـدق اتصافهم بهذا الطابع) ٠

● هوامش الفصل العشرين

(١) يبلغ طول المسافة بين أربيو فى سيلان وأقرب جزء من القارة ستين ميلا جغرافيا بالضبط ، ولكن نظرا لعدم استمرار هذه الدقة فى عمل مؤلفنا ، فانه ينبغى ألا يعول عليها ، هذا الى أن من المحتمل أن تكون الميناء التى رسا بها الأسطول هى ميناء كولومبو وليست أربيو •

(٢) ان أسماء هذا القطر ، التى وردت ما أبار فى طبعة بال اللاتينية الأقدم ، ومو آبار فى الخلاصات ، هى مالابار فى نسخة راموسيو ، وذهب بعضهم الى أن الاسم الأول تصحيف ، ولكن العكس هو الحقيقة ، وذلك لأن الظروف تشير بغير لبس الى الجزء الجنوبى من ساحل كورماندل أنه المكان الذى بلغه الأسطول بعد مغادرته سيلان ، ومما يخرج الأمر عن كل شك ، ان ولاية مالابار ذكرت بعد ذلك فى موقعها الصحيح • اذ أن « ما أبار » ، ومعناها جيزة أو معدية أو مخاضة أو معبر (انظر قاموسى مييننسكى وريتشاردسون) ؛ — كانت تسمية أطلقها المسلمون ، على ما نسميه « التنفلى ما دورا » ، أو ربما أقاليم تانجور ، بسبب قربها ، فيما يبدو من سلسلة الركامات الرملية الشهيرة المعمورة بالماء ، والشعاب المرجانية المسماة قنطرة راما أو قنطرة آدم.ولم تعد تستخدم الآن ، ولكنها موجودة فى أعمال جميع الجغرافيين والمؤرخين الشرقيين الذين عالجوا الكتابة عن هذا الجزء من بلاد الهند •

(٣) كان المظنون أن أمراء الهند ينتسبون الى الكشترى أى القبيلة العسكرية ، وينحدرون من واحد من اثنين من جنسين نابهين ، يسميان السوريا فانجسا أى جنس الشمس ، وشاندرا فانجسا أى جنس القمر • ويبدو أن الملك المتحدث عنه هنا ينتمى الى الجنس الثانى ، وربما أمكن أن يفهم اسمه شاندرا باندى على أن معناه « عبد القمر أو خادمه » • (وتكتبه النسخة اللاتينية الباريسية ساندرا ملك قار) •

(٤) والشطوط التى يجرى فيها صيد اللؤلؤ يبدو أنها تحتل ، الى حد كبير ، الساحل الواقع على جانبى الخليج الذى يفصل جزيرة سيلان عن القارة الهندية ، أو بعبارة أدق جانبى ذلك القسم من الخليج الذى يقع الى جانب من قنطرة آدم • فأما من الجانب الشرقى فان الشطوط التى يتم فيها صيد اللؤلؤ بالأكثر تقع قرب جزيرة منار الصغيرة وعلى

الجانب الغربي أو القاري قرب خليج توتاكوزين · وربما أمكن الظن بأن هذا المكان الأخير أو مكانا آخر قربه كان مشهد ملاحظات مؤلفنا .

(٥) يقول كوردينر : « أن عمق الماء فوق الشطوط المختلفة كان يتفاوت من ثلاث قامات الى خمس عشرة قامة · ولكن خير مصائد اللؤلؤ يوجد حيث يكون العمق بين ست وثمان · انظر Description of Ceylon مج ٢ ص ٤٠١ · وتذكر ورقة وردت Asiatic Researches مج ٥ ص ٤٠١ ، ان العمق يتراوح بين ٥ الى ١٠ قامات وفي سولو يصاد محار اللؤلؤ من أماكن أعماقها من ٣ الى ٥ قامات فقط ·

(٦) يرجح أن امتياز صيد محار اللؤلؤ كان التزاما شأنه حتى اليوم ، لواحد أو أكثر من التجار المغامرين ·

(٧) يتألف طاقم البحارة من ثلاثة وعشرين شخصا · عشرة منهم غواصون · « وقد زود كل قارب بخمسة أحجار للغوص ، وخمس سلال شبكية » · انظر Description of Ceylon ان هؤلاء الهنود المتعودين على الغوص منذ بواكير نعومة اظافرهم ، يهبطون بلا أدنى خوف الى قاع البحر على عمق يتراوح بين ٥ ــ ١٠ قامات بحثا عن الكنوز · وترتبط الشبكة وحجر الغوص بالزورق بواسطة حبلين · فيغطس الغواص في الماء وقد وضع أصابع قدمه اليمنى على الحبل الشعرى لحجر الغوص واصابع قدمه اليسرى على الشبكة ، ثم يمسك الحبلين بيد واحدة ويسد منخريه بيده الأخرى · فاذا وصل الى القاع علق الحبل حول عنقه ، وجمع فيها محار اللؤلؤ بأسرع ما يمكنه أثناء المدة التي يجد فيها نفسه قادرا على المكث تحت الماء ، وهي مدة تقارب في العادة دقيقتين · وعندئذ يستعيد وضعه الأول ، واذ يعطى اشارة بجذب الحبل ، فانه يرفع على التو الى القارب » · ويقول : « عندما يخرج الغطاسون الخمسة الأول من البحر ويتنفسون ، ينزل الخمسة الآخرون بنفس الأحجار · ويخرج كل منهم حوالي مائة محارة في شبكته ، واذا هو لم تفاجئه حادثة فربما أمكنه القيام بخمسين رحلة قبل ظهر يوم واحد » · انظر (Asiat. Res.) (مج ٥ ص ٤٠١) ومع هذا فان بيان هذه العمليات ، على ما أورده المستر كوردينر أكثر تفصيلا ، ولكن ما أوردناه كاف للدلالة على صدق مؤلفنا فيما رواه ·

(٨) عرف عن أحد الزوارق أنه أحضر الى البر ، في يوم واحد ، ثلاثة وثلاثين الف محارة ، وفي يوم آخر مالا يزيد عن ثلاثمائة » · « وحدث في كثير من مصائد اللؤلؤ أن اجتلب الغواصون الى الشواطىء ما يزيد على مليوني محارة في يوم واحد » · ــ انظر : Description of Ceylon ص ٥٧ ·

(٩) نجد فى خريطة لشبه جزيرة الهند ، أوردها فالنتين فى مجلده الخامس ، مكانا يسمى ورالا أوفيداله ، يقع على الطرف الشمالى لخليج توتاكورين ، كما يقع بصفة مباشرة داخل جزيرة راميسيرام • وربما كانت هذه هى بيتالا الواردة فى نسخة راموسيو ، التى لم يرد ذكرها فى أية ترجمة أخرى للكتاب •

(١٠) أن ما يشيع بين الغواصين من خرافات يجعل عمل سحرة القرش دورا ضروريا فى مؤسسة مصايد اللؤلؤ • وينتسب هؤلاء الدجالون جميعا الى عائلة واحدة ، وليس لأى شخص لا يكون منتسبا اليها ، الحق فى التطلع الى تلك الوظيفة ويثق الأهالى بقوة فى سلطانهم على تلك الوحوش البحرية ، كما أنهم يأبون النزول الى قعر البحر اذا لم يعلموا أن أحد هؤلاء السحرة كان موجودا على ظهر الأسطول • ويستخدم منهم اثنان على الدوام • يخرج أحدهما بانتظام فى زورق الربان الرئيس ، بينما يقوم الآخر بمراسم معينة على الشاطىء • « ويسمى ساحر القرش كادال كاتى » بلغة الملابار ، وفى الهندوستانية « هيباندا » وكل منهما معناها « مقيد القرش » . (انظر : Desc. of Cey. مج ٢ ص ٥١) •

(١١) لا شك أن هذه الخرافة ، من تلك الجهة ، موائمة تماما لمصلحة الحكومة ، لأنها تمنع بواسطة رعبهم من الغوص بغير وقاية التعازيم ، أية محاولة لنهب شطوط المحار • (ص ٥٣) وربما اخترعت تلك الخرافة أو شجعت من وجهة النظر هذه •

(١٢) أصاب مؤلفنا كبد الحقيقة فيما يتعلق بطول مدة الصيد وأنة فى العادة ثلاثون يوما ، وان تجاوز القوم هذه المدة فى بعض الأحيان اذا حدثت فيها انقطاعات ، على أنه ذكر البداية متأخرة شهرا على الأقل عما جرت عليه عادة الأهالى • فان صح ما يظن بعضهم ، من أن هناك تغييرا بطيئا مضطردا فى فصول السنة ، فلربما كانت الرياح الموسمية فيما سلف من الزمان تغير اتجاهها فى موعد متأخر قليلا عما تفعله فى الوقت الحاضر • أو لعله حدث فى عام ١٢٩٢ ، شىء خاص فى الجو أخر بداية المصايد وساعد على مد أجلها • على أنه من المرجح جدا أن مؤلفنا كتب فى مذكراته أبريل ومايو عن خطأ بدلا من مارس وأبريل •

(١٣) بدلا من أن تأخذ الحكومات العصرية عى سبيل حق « الالتزام » نسبة من الناتج ، الأمر الأكثر انطواء على العدل ، وان كان أسلوبا غير مريح تماما ، ــ جرت عادتها ببيع امتياز الموسم لأى شخص مسئول يدفع أعلى ثمن ، أما العاملون فى المصايد من الغطاسين وغيرهم من العملاء فيتلقون أجورهم عينا •

(١٤) لم يظهر من هذا القول اى مكان هذا الذى يبعد ثلاثمائة ميل ، والذى اعتادت السفن الانسحاب اليـه عند مغادرتها مصايد هـذا السـاحل • وطبقا لرواية كورديز : « فان الزوارق ، بما حملت من بحـارة وغواصين ، تجيء من منار وجافنا وراميسيرام وناجورة وتيوتاكورين وترافانكور وكليكيرى ومن أجزاء أخرى من ساحل كوروماندل » ، ولكن ورد فى Asiatic Researches ما نصـه : « ان الدونى (أى القوارب Donies) المستخدمة فى المصايد لا تجيء جميعا من سيلان ، فان كثيرا منها يفد من سواحل كوروماندل ومالابار » • (مج ٥ ص ٤٠٠) وربمـا جاز لنا أن نلاحظ هنا أن الفصول فى شاطيء مالابار عكس ما هو موجود فى كجهة الشرقية من شبه الجزيرة الهندية •

(١٥) حدث فى بعض الفترات ان طالب الملوك بأن تعد جميع اللآلىء التى تتجاوز حجما معلوما ملكا خاصا للملك ، يحتفظ بهـا لاستعماله الخاص •

(١٦) يقول سونيراه : « وفى الأحيان تكون ثيابهم ابسط من هذا ايضا ، اذ لا يندر أن يشاهد المرء هنوداً كل ما عليهم من ثياب سوى قطعة من قماش تستر الأجزاء الطبيعية » • انظر Voyage aux Indes, etc. مج ١ ص ٢٩ •

« L'habito di queste genti à que vanno tutte nude, salvo que partano uh panno intorno alla parte inhoneste ».

انظر Itin. di Lodovico Barthema ورقة ١٥٨ ـ ٢ •

(١٧) تستخدم السبح او المسابح ـ وفائدتها أن تعين الذاكرة على عد الصلوات أو الدعوات المكررة ـ لهذا الغرض عند اتباع براهما ، وبوذا أى فو ومحمد (ص) وكذا عند بعض المذاهب المسيحية : ويقال ان عدد حبات السبحة التى يحملها أهالى الهندوستان وكذلك عباد «فو» مائة حبة وثمانية) • ومن هذا يحتمل أن عدد ١٠٤ الذى ذكره مؤلفنا فى النص الوارد أعلاه ، غلط ، وذلك لأن طريقة تدوين الأرقام فى المخطوطات القديمة ، بالأعداد الرومانية معرضة للخطأ على نحو مفرط ، على أنى لابد لى أن أعترف فى الوقت نفسه ، أننى لم أتمكن من التحقق بدقة من العدد فى اقسام السبحة التى يستخدمها هندوكى أو مسلم •

(١٨) يتفق وصف الحلى التى يلبسها هذا الأمير مع ما نقرؤه فى رحلة لودوفيكو بارثيما ، الذى يقول :

« Non si potria stimare le gioie e perle che parta il re ». « Portava tante gioie nell'orrechie, e nelle mani, nelle braccha, ne piedi e nelle gambe, che era cosa mirabile a vedere ».

(الورقة ١٦١) . انظر أيضا : Anciennes Relations تأليف رينودوت .

(١٩) يبدو أن مؤلفنا لا يتحدث عن راجا منطقة محدودة مجاورة لساحل مصايد اللؤلؤ ، وانما هو يتحدث عن ملك شملت ممتلكاته الاقليم الداخلى الذى يعثر فيه على الماس وغيره من الأحجار الكريمة . والواقع أن ملك نارسنجا ، الذى كانت عاصمته فى زمن تال هى بيجا نجار أو جولكوندا ، لم يكن يحكم فقط فى تلك المدة اقليمى تلنجا وكارناتا ، بل وساحل كوروماندل بأكمله أيضا ، حتى رأس كومارى أو قومورين جنوبا .

(٢٠) ان اسناد عادة حرق خدام أمراء الهندوك فضلا عن زوجاتهم ، مع أجسام أسيادهم ، كثيرة جدا . وأننا لنجد أيضا فى فقـرة فى رواية باربوزا ، توكيدا لممارستهم تلك التضحية التى كانت تجىء نتيجة لارتباط تطوعى سابق .

(٢١) ان الموانى المذكورة فى النسخة اللاتينية هى كورموز وتشيزى ودور فار وسيرودان . ولا داعى للحديث فى هذا المكان عن كورموز هرموز (أو أورموز) ، وكذا عن أدن أو عدن . وتشيزى هى كيس أو قيس وهى جزيرة بالخليج الفارسى ، كانت تجارة سيراف تنقل اليها . فأما ديوفار (ظفار) وبشر ، اللتـان هما فى طبعة بال دورنار وسير ، فيبدو أنهما هما نفس اسـكير ودولفار فى الفصل ٤١ و ٤٢ . ومن ثم يمكن الظن بأنهما مدينتا شهر وظفار على الساحل العربى ، شرقى عدن .

(٢٢) لا توجد ، حتى فى هذه الأيام ، أية سلالة من الخيل فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الهندية ، ولذا فان جميع الأحصنة المستخدمة هناك أجنبية .

(٢٣) مهما يكن فى ذلك من غرابة خارقة للمألوف ، فان من الحقائق المؤكدة أن الخيل تطعم ، الفينة بعد الفينة على ساحل كورو ماندل ، باللحم ، وبخاصة لحم رءوس الضأن المسلوق والمكور كرات ، وذلك بالاضافة الى الحمص (Dolichos, biflois. Lin.) وجذور العشب . وتستخدم وسائل مماثلة بأماكن أخـرى . ويقول باربوزا متحدثا عن ساحل السند :

« In questo paese, mangiano li peschi secchi et ancho li danno a mangiare alli cavalli e ad altri bestiami ».

ورقة ٢٩٥ .

(٢٤) نجد فى بيانات عصرية متعددة سندا لا شك فيه لممارسة التضحية بالذات بين سـكان الهند ، فى أعياد جاجارناتها وغيره من الأصنام ،

حيث يلقى ضحايا التعصب الدينى بأنفسهم أمام عجلات ماكينات هائلة الضخامة والثقل ، لكى يسحقوا حتى الموت ٠

(٢٥) يزودنا كل بيان عن شعب الهندوك وعاداته بوصف للاحتفال بحرق الزوجات أنفسهن مع أجسام أزواجهن المتوفين وللفنون التى تستخدم لاثارة حماستهن ، وللمهانة والعزلة التى ستترتب على رفضهن الاذعان لهذه العادة المرعبة ٠ والمظنون أن ممارستها قلت كثيرا بتأثير المسلمين والأوربيين ، عما كانت فيما سلف من الزمان ٠

(٢٦) يقول بوكانان فى يوميات طريقه فى الكرناتى الجنوبى : « يعد سكان هذا الجزء من البلاد الثور الها حيا ، يمنحهم خبزهم ، كما أنه يوجد بكل قرية ثور أو ثوران ، تقدم العبادة اليهما كل أسبوع أو كل شهر » ٠ « على أن هذه الخرافة غير منتشرة فى الجانب الشمالى من نهر كافرى Cavery ٠ اذ يعد الثور هناك جديرا بالاحترام ، لأن « أزوارا » اختار واحدا من الثيران جوادا له » ٠ مج ٢ ص ١٧٤ ٠

(٢٧) ربما فهم من هذا البيان عن أخلاق شعب الجاوى ، أن مؤلفنا يتحدث عن قبيلة المنبوذين التى تسمى على الجملة بارية وتشندالا ، والتى تعرف كذلك بأسماء أخرى فى أجزاء مختلفة من الهند ٠

(٢٨) يقول جروس : « متى كانت الجلة طازجة ، صنعوا منها عجينة يلطخون بها بيوتهم وأرصفتهم وجوانبها ، على سبيل التطهير » ص ١٨٥ — ويقول بارثيما :

« Il piano della casa è tatto imbrattato con sterso di vacche per honoroficentia ».

راموسيو ، ص ١٦١ ٠

(٢٩) يقول فراير :«كانت تسكن حول هذا الجبل طائفة من الناس، تبلغ احدى قدميها فى ضخامة قدم الفيل ، وهو أمر يتيح اشاعة أن ذلك قضاء حكم عليهم به ، بأنهم سلالة سفاحى الرسول القديس توما المبارك وقتلته ، وقد شهدت واحدا منهم فى قلعة سان جورج » :

New Acc. of East India and Persia) ص ٤٣ ٠

(٣٠) تكثر زراعة السمسم (Sesamum indicum) المسمى تل Til باللغة الهندوستانية ، بمعظم أرجاء بلاد الهند ، من أجل الزيت الذى يحصل عليه من حبوبه -

« Nell'paese di Calcint si trova gran quantità di zerzelino del quale ne fanno oglio per[illegible]issimo ».

(انظر بارثيما ص ١٦٢) ٠

(٣١) كان تأنث سكان الهند وبخاصة سكان الولايات الجنوبيـة ، موضع ملاحظة الناس فى كل العصور .

(٣٢) نجـد فى Oriental Repertory لد الريبيل مج ١ ص ٤٩ ، قائمـة بأسماء الطـوائف الهندوكيـة التى يحـظر عليهـا تنـاول الطعام الحيوانى من أى نوع كان ، وأسـماء من يسـمح لهـم بتناول أنواع معينة منها . ويذكر بين الأخيرة « البرهمانيين المحاربين » ، الذين يجوز لهم تناول السمك ، ولحم الضأن والصيد ، ولكن ليس الطير ، وكذلك طائفة « الراجاوات » ، ومع ذلك فلا يسمح لأى واحد من اية طائفة بتناول لحم البقر (كما هو المعتقد بوجه عام) كما أن ذبح بقرة جريمة لا يعلوها سوى قتل برهمانى .

(٣٣) وعليهم طبقا لقواعد دينهم أن يصلوا ثلاث مرات فى اليوم .. وعليهم فى الحين نفسه التطهر بوضوئهم ، . واذا أتيحت لهم الفرصة ، وجب عليهم ايثار مجرى ماء جار على الماء الساكن ، ولكن عليهم واجبا لا مفر منه هو الاغتسال قبل تناول الطعام » . انظر Hindoo Sketches مج ١ ص ٢٢١ .

(٣٤) هناك لوحة توضح طريقة صب الماء هذه فى الفم ص ٨٧ من Account of Ceylon تأليف كنوكس . فهو يقول ويكاد يكرر كلمات مؤلفنا : « وعندما يشربون لا يمسون الاناء بأفواههم ، ولكن يرفعونه عن بعد ويصبون ما فيه فى حلوقهم وهذه الممارسة منتشرة أيضا بأقطار أخرى فى الشرق » . يقول كتاب Hist. of Sumatra : « واثنـاء الشرب يمسكون الاناء على وجه العموم (وهو فى العادة بقطينة أو قرعة) على مسافة فوق الفم ويتلقون السائل وهو ينصب ، حيث ينزل رأسا الى المعدة بغير عملية بلع » . الطبعة الثالثة ص ٦١ .

(٣٥) يذكر سونيرات (مج ١ ص ٢٥٧) حالة الأرز المغلى الذى يوضع فى راحتى الشحاذ الذى ليس لديه وعاء يتلقاه فيه ، ولكن ليس من الأمور الغريبة أيضا أن يصب السائل فى كفى مثل ذلك الرجل ، الذى يقربهما تماما من فمه لهذا الغرض .

(٣٦) قام لودوفيكو بارثيما بتدبيج وصف تفصيلى لهذه العمليـة القانونية . يقول هاملتون : « ولديهم طريقة حسنة لاعتقال الناس من أجل الديون ، واعنى بذلك ، أن يرسل القاضى إنسانا من العدول يحمل عصا صغيرة ، ويكون عادة أحد البراهمة ، فاذا وجد ذلك الشخص المدين ، رسم حوله بتلك العصا دائرة ، وكلفه ، باسم الملك والقاضى ، بعدم الحراك

منها ، حتى يرضى الدائن بالدفع أو الضمان ، ولا يلقى المدين عقوبة أقل من الموت ، ان هو خرق محبسه بالخروج من الدائرة». مج ١ ص ٣١٦ .

(٣٧) الكلمات الواردة فى النص اللاتينى هى « Vini usus apud eos interdicus, est » كما أنه ليس من المحتمل أن يتحدث مؤلفنا عن خمر العنب ، وبخاصة بوصفه شيئا محظورا ، وذلك فى بلاد لا تكاد تعرفها · فما عناه فى هذا المكان وعدة أماكن اخرى التى استخدم فيها كلمة « الخمر » ، هو أى شراب مسكر ، ولكن بوجه أخص كل شراب يصنع بالتخمير من عصارة النخل ، وبالتقطير من تلك العصارة ومعها الأرز · يقول كروفورد : « لا يباح لهندوكى من الطوائف الأربع بحكم دينه أن يذوق أى شراب مسكر ، فلا يشربه الا الغرباء والراقصون واللاعبون والتشندالا أو المنبوذون » انظر Sketches مج ١ ص ١٤٠ ·

(٣٨) مع أن بين الهندوك ملاحين ، وبخاصة فى السفن التى تسير بين ساحل كوروماندل وآتشن ومضيق ملقا ، فان الناس بميلهم الطبيعى ، يكرهون البحر ، وكذلك لا يستطيع أن يعلوه أشخاص ينتمون الى أية طائفة محترمة بغير التعرض للتنجس من كل من ناحيتى الملامسة والطعام ، مهما تكن الاحتياطات التى تتخذ لتجنبه · ومع هذا فان مؤلفنا يعزو كرههم للشعوب الماخرة للبحار ، الى الرأى السائد بينهم بأنه ما من أحد سوى أرباب الحظوظ المحفوفة بالتهور والأخلاقيات المنحلة يكرس نفسه لمهنة ، يضحى فيها بالراحة البيتية وتتعرض فيها الحياة للمخاطر ، طلبا لمصلحة لا تقوم على أساس وطيد ·

(٣٩) لا شك أن الموسم المطير الموصوف هنا هو الذى يسود منطقة ساحل مالابار .

(٤٠) ان كلمة تشوباتش أو كوباتش (ولعلها اصابها) كثير من التحريف) ، ليست مما يجوز اعتباره من المصطلحات التنجيمية البربرية الخاصة الشائعة بجنوب الهند » · يوجد عند شعوب الناشترون واليوجون والتيدين واللاكينون والكارينون ، وكذا أيام الأسبوع — (كما يخبرنا سونيراه) — « ما هو خير وما هو شر » . « ولم أستطع قط أبداً معرفة واحد منها .وليس برام سوى بوجونى وكارينونى » . « والأيام الطيبة والسيئة والساعات المشئومة أو المسعودة والعودة من رحلة وشفاء مريض ، وفقد بعض المتاع بل الواقع أن كل شىء يتيح للناس مادة يلجأون بها الى العرافين » . ص ص ٣٠٥ — ٣١٣ .

(٤١) ان التقسيم الكنسى للنهار المسمى بالتيرس او الساعة الثالثة (Hora tertia) كان يبدأ فى الساعة التاسعة صباحا ،

ويستمر حتى الثانية عشرة وكانت صلاة العصر None تبدأ فى الثالثة بعد الظهر • فأما صلاة الضحى Mi-tierce (وهى Mezza-trrsa أو فى اللاتينية Media-tertia) ، فليست مثبتة فى القوائم النظامية لساعات الصلاة الكنسية ولكن يمكن الظن بأنها تقع فى موقع وسط بين الساعة التاسعة Tierce وبين الثانية عشرة Sext •

(٤٢) والكتب المتحدث عنها هنا هى تقاويم ، تسمى « بانجانجان » بلغة التامول •

(٤٣) كانت الطريقة الهندية القديمة لتقدير الارتفاع الزاوى للشمس وخط عرض مكان ، هى قياس طول الظل الذى يسقطه شاخص عمودى ذو ارتفاع محدد ، أو غياب ذلك الظل عندما تكون الشمس فى سمت الرأس • وعلى أساس هذا المبدأ ، يستطيع الانسان ، فى المناطق الواقعة بين المدارين وبخاصة قرب خط الاستواء ، أن يصدر حكما صائبا بدرجة مقبولة على الساعة من النهار ، وذلك بملاحظة ظله هو نفسه ، وهو ظل ، ينبغى أن يبين متى كان مساويا لارتفاع قامته ، أن الارتفاع الزاوى للشمس هو ٤٥ درجة ، فتكون الساعة تبعا لذلك هى التاسعة صباحا أو الثالثة بعد الظهر •

(٤٤) يقول باربوزا :

« Come passano dieci anni, vanno facendo il mediesimo come li pardri, di andar comprando monete piccole. et imparare il mestiere ».

(ورقة ٣١٠ ـ ١٢) •

(٤٥) ربما بدا فى هذا التأكيد شىء من المبالغة فى التعميم ، ولكن يبرره الى حد كبير مشاهدات الدكتور ف • بوكنان ، الذى يخبرنا أنه لا الخيل ولا الحمير ولا الخنازير ولا الشياه ولا المعز ، تربى فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة ، أو على الاقل ان عددها ضئيل تماما لا يعتد به ، وان الأهالى الأصليين ليس لديهم دواجن ، ولا حتى الدجاج العادى وكذلك الأوز والبط والديكة الرومية ، اذ انها ادخلها الأوربيون الى هناك » • مج ٢ ص ٢٨٣ •

(٤٦) والخفافيش هى Vaspertilio vampyrus فى تصنيف لنايوس عالم النبات السويدى وامتداد اجنحتها أربعة أقدام ، فأما الثانية وهى (نسور بونديتشيرى الملكية ، فان ظهورها وبطونها وأجنحتها وذيولها سوداء) •

انظر : Sonnerat مج ٢ ص ١٨٢ •

(٤٧) ان هذا البيان عن الاناث اللائى يلحقن بخدمة المعابد ويسهمن ببيع أجسامهن فى البغاء بقصد جلب الايرادات الى تلك المؤسسات ، ربما امكن أن يلقى التعزيز الكافى من أسناد كثيرة ٠

(٤٨) ما يوصف هنا هو « الناموسية » أو الكلة التى تصنع من نوع من الشاش ، وتصمم بحيث تبعد فعليا البعوض وغيره من الحشرات الطيارة ٠ والأشباث والبراغيث المذكورة فى نص راموسيو (ولكن ليس فى النص اللاتينى) لابد وانهما من نسج خيال بعض مترجمى مؤلفنا الأذكياء ٠

(٤٩) تشيع بين الأهالى فى بنارس ومدن أخرى قديمة ، تضيق فيها الشوارع الرئيسية ، وتتحدد فيها حركة الهواء ، أثناء الجو الحار عادة اخراج فرشهم الى خارج البيوت ، والنوم مع عائلاتهم فى الشوارع العامة ٠

(٥٠) يبدو من هذه الفقرة أن مؤلفنا اعتبر مملكة المعبر ، انها تمتد من الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، بامتداد ساحل كوروماندل . بقدر مدى انتشار لغة التامول ، التى تمتد قليلا شمال مدينة مدراس : وهى منطقة يسميها الجغرافيون الهندوك درافيدا ديزا ٠ فأن صح هذا التمييز ، غربما أشار الى منطقة مارافار الصغيرة أو مارأوار قرب الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة .

(٥١) المكان المتحدث عنه هنا ، هو المدينة الصغيرة سان توميه ، التى تقع جنوب مدراس ببضعة أميال ، حيث تشاهد ، على جبل ـ كما يسمونه ـ أو قل صخرة مرتفعة (وهى تسترعى الأنظار أكثر لاختلافها عن الاقليم المجاور المسطح فى جملته) ، كنيسة مسيحية قديمة ٠ وكانت فى قديم الزمان مدينة لها بعض الشان ، ويسميها الأهالى ماليابور ، أو ربما مائلا بور بتعبير أصح ٠ ويسميها العرب بيت توما اى كنيسة توماس ٠

(٥٢) لو سلمنا بصحة قراءة هذه الفقرة فى نص راموسيو ، وجب أن يلاحظ أن اسم أنانياس ، ليس له فى العبرانية ولا الغربية نفس المعنى المعطى له هنا ، ولكن الشاهد الباطنى يؤيد قراءة أخرى بالغة الاختلاف ، تقدمها لاتينية طبعة بال ، وقد ورد فيها ما يلى :

Incolae regionis illius dicunt Apostolum probhetam magnum fuisse, vocantque eum Avarijam, hoc est sanctum virum ».

وهنا يذكر أن الأهالى الهنود ـ وليس المسلمون ـ هم الذين أطلقوا على القديس توما اسم « الشخصية المقدسة » ، ونجد فى كتاباتهم أن كلمة « افيار » هى لقب فيلسوف تامولى شهير ٠

(٥٣) يلاحظ هذا الحج كل من كتب فى موضوع مسيحيى شاطىء مالابار أو القديس توما ·

(٥٤) الشائع أن الجانب الشرقى من شبه الجزيرة كان يحكمه تلك الفترة ملوك نارسنجا ، التى كانت فيجا ياناجارا قصبة لها ، أو بتعبير اللهجة العامية الحوشية بيجانا جار ، بيد أننا نعلم من أبحاث الدكتور ف· بوكانان أن المدينة الشهيرة المسماة بهذا الاسم لم تؤسس حتى عام ١٣٣٥ـ٦ ، وأن الجزء الجنوبى من الساحل (الذى يسميه الجغرافيون الهنود درافادا) ، كان خاضعا لأمراء ، مقر حكمهم ووراجولا (وارانكرل لدى المسلمين وورنجول فى خرائطنا) ، وهى المكان الرئيسى فى أوتلنجانا · وكان اسم الملك الذى حكم فى المدة من ١٢٦٨ الى ١٣٢٢ ، التى تضم السنة المذكورة فى النص ، هو براتابا رودرا ، ومما يستحق الملاحظة ، أنه حدث فى ١٣٠٩ ، أى بعد حوالى ستة عشر عاما بعد زيارة مؤلفنا لهذا الجزء من الهند ، أن غزت جيوش علاء الدين ، امبراطور دلهى المسلم ، مدينة تلنجانا ، واضطرت راجا ووراجولا أن يصبح تابعا له . ومع هذا فربما كان كل ما حدث هو أن هذا الأمير المتحدث عنه هنا ، لم يكن الا راجا ، حكم الاقليم تحت هيمنة مولى أعلى ·

(٥٥) يرجح أنه ينبغى لنا بدلا من غروت أن نقرأ فانام (Fanam) وهو العملة المتداولة بهذا المكان ، وتقدر قيمتها ببنسين ونصف البنس · وذلك يجعل الضريبة السنوية شلنين ونصف · وفى سومطرة يقدر انتاج شجرة جوز الهند بوجه العموم بدولار اسبانى أى ما يقارب خمسة شلنات ·

(٥٦) يكتب باولينو موضحا التحليل الهجائى والتاريخى لأصل أسماء الأماكن فى هذا الجزء من شبه الجزيرة الهندية قائلا :

« Mailapuri o Mailaparum, città de paroni, Meliapui ost. Tomè degli Europaei ».

فلو سلمنا بصحة هذا التفسير ، فربما جاز لنا التساؤل ، اذا كانت الأسطورة التى فيها الطاووس ظاهرة شديدة البروز ، لم يقترحها اسم المكان نفسه · علما بأن الطائر نفسه موفور الكثرة ببلاد الهند ·

(٥٧) لا شك أن السكان الأصليين بالجزء الجنوبى من شبه الجزيرة قوم ، لون بشرتهم مفرط القتامة على وجه العموم ، ولذا فالراجح أن مؤلفنا اخطأ فى ظنه أن هناك أى شىء صناعى فى درجة سوادهم · فأما عادة دلك أجسام أبنائهم بالزيت فربما الغرض منها أشياء أخرى · والواقع أنه جرت العادة فى معظم أجزاء الهند أن الناس من جميع الأعمار كثيرا ما يمسحون أجسامهم بالزيت ·

(٥٨) الأشيع فى الأوثان الهندوكية أنها اما أن تكون من النحاس ، أو متى كانت كبيرة من نوع من الجرانيت الأسود ، ولكن مهما تكن المادة المصنوع منها الوثن ، فانها جميعا تكتسب لونا سناجيا من دخان المصابيح او البخور المحترق داخـــل المعابد ، وكذلك من عادة مسحها بالزيت . كانت فكرة رسم الشيطان أبيض عند أفراد الجنس البشرى الذين هم فى حد ذاتهم من السود ، شائعة جدا ، وربما أمكن تبريرها بأمثلة معينة من آسورات (Asūrs) اى أبالسة الميثولوجيا الهندوكية التى يتم تصويرها على هذا اللون ، على أنه ليس بتلك الميثولوجيا شخصية تتقابل ووصف الشيطان أو ابليس · ونقرأ فى القصص الرومانسية الفارسـية عن ديف سيفيد اى الشيطان الأبيض ، وهو خصم شهير لرستم ·

(١) المملكة التى تسمى هنا مورفيلى أو مونصول (ولعل ذلك بدلا من موصول)،وهى فى طبعة بال مورفيلى،وفى مخطوطى المتحف البريطانى ومتحف برلين موتفيلى ، كما أنها فى النسخة اللاتينية الباريسية مولفولى ، بدلا من موتفولى) ولكنها محذوفة حذفا تاما فى الخلاصات ، ليست فى الواقع سوى موتشلى باتان ، أو كما تسمى على نحو أشيع ماصتولى باتام وهو اسم مدينة قصبة ، حلت – بغلطة ليست نادرة فى الكتاب – محل اسم الاقليم — يقول رنل : « أن هذه مدينة وميناء قرب مصب نهر الكستنا ، ويبدو أنها تقع داخل المنطقة التى أسماها بطليموس الجغرافى ميسوليا » • انظر : (Memoir ١٧٩٣ ، ص ٢١٠) وهى تتبع ما كان يسمى فى احدى الفترات مملكة جولكوندا ، التى كان اسمها فى زمن أشد قدما تلنجانا ، أما فيما يتعلق بالمعبر فان مؤلفنا غير متناقض مع نفسه (مهما يكن الظن فى صحة جغرافيته) ، وذلك لأنه انبانا بالفعل انها تضم المكان الذى دفن فيه القديس توما ، غير بعيد من مدينة مدراس العصرية • وواضح انه كان يعدها تمتد جهة الشمال بامتداد المنطقة التى يتكلم فيها الناس بلغة التامول ، أى بعبارة أخرى الى الخط الذى يبدأ عنده نهر التلنجا (قرب نهر بنا) ، الذى ستجد انه يبعد أقل قليلا من خمسمائة ميل من رأس قومورين • والحق انه ليبدو انه محتمل جدا أن اطلاق اسم المعبر على هذا الجزء من ساحل كروماندل ، ربما كان مرد ظهور عادة الخلط عند الأوربيين (الذين كانوا يخلطون بين الكلمتين) من حيث تسمية سكان الجانب الشرقى لشبه الجزيرة باسم خاطىء هو الملاباريين •

(٢) تشتهر جولكوندا ، التى ميناؤها الرئيسية هى ماسولبياتام ، بانتاج الماس •

(٣) يقول تافارنييه متحدثا عن مناجم سمبهولبور ، الواقعة فى جزء آخر من الاقليم ، : « اليكم الطريقة التى يبحث بها عن الماس فى هذا النهر • فبعد أن تنتهى الأمطار العظيمة ، وهى تهطل عادة فى شهر ديسمبر ، ينتظر الناس أيضا شهر يناير بأسره ، حتى تصفو مياه النهر ؛ لأنه فى ذلك الوقت توجد أماكن كثيرة ، لا يتجاوز العمق فيها قدمين •• فيبدأ الناس فى البحث عن النهر بمدينة سومبلور ، ويتجهون دائما صاعدين حتى الجبال التى ينبع منها النهر » . (انظر : Voy. des Indes) مج ٢ ص ٣٤٦ ، وعلم المستر توماس مور الذى زار هذا المكان فى ١٧٦٦

من شخص يقيم بنفس المكان بأن « عمله هو البحث فى النهر بعد الأمطار ، عن الثرى الأحمر المجلوب من الجبال ، وهو الثرى الذى كان الماس يعثر عليه فيه على الدوام · » انظر Asiat. Miscellany ٢ ص ٥٨ ·

(٤) هذه الرواية عن طريقة الحصول على الجواهر النفيسة من واد لا سبيل الى ولوجه تتطابق والقصة المروية فى احدى مغامرات السندباد البحري بكتاب الف ليلة وليلة · ومن المحتمل أن قصة وادي الماس كانت دارجة بالهند واصقاع أخرى من عالم الشرق ، كما أن شـــدة قدمهـــا تثبت بطريقة مرضية من الاقتباس التالى من ابيفانيوس :

« de duodecim lapidibus rationali sacredotis infixis ».

وهو عمل كتب في القرن الرابع للحقبة المسيحية :

« Ibn igitur in eremo magnae scythiae penitiori vallis est quae hinc atque inde montibus lapidies veluti muris cincta ».

وهو يضيف التالى فى هامشة : « كان أبيفانيوس أسقفا لسلاميس ، وتوفى فى عام ٤٠٣ · ويتحدث عنه كثير من رجال الكنيسة الكتـــاب بعبارات ملؤها الاحترام الجم ·

كما أن القديس جيروم يلقب الرسالة الصغيرة التي اقتبست منها الفقرة السابقة » :

« egregium volumen quod si legere volueris plenissimam scientiam consequeris.»

(٥) اشتهر ساحل كورومانيدل فى جميع العصور بقيام أرق وأتقن صناعة للمنسوجات القطنية مما أطلق عليه الأوربيون اسم العيك أو البفتة ، كما تشتهر ماسوليباتام ، بصفة خاصة ، بالشيت (أو قماش البصمة) · هنا تقول نسخة باريس اللاتينية :

« Item, in ista contracta de Molifili fit melior vochosame et magis subtile quod sit in mundo, et magis corum, et videtur tela aranei ».

● هوامش الفصل الثاني والعشرين

(١) ليس بين الأماكن الواقعة على القارة الهندية التى لاحظها مؤلفنا ، ما هو أبعد كل البعد من أن تعرف هويته عن طريق تشابه فى الصوت أو الحروف والهجاء ، من هذا الاسم الذى يدور حوله موضوع هذا الفصل ، كما أنه لا يبدو أنه زاره بنفسه فعلا · فان لاك أو لواك أولار ، وهى الصورة المتنوعة التى يكتب بها الاسم فى نسخة راموسيو ، ولاهية (Lahi) فى الخلاصات الايطالية المبكرة ، ولاثيه فى طبعة بال ، ولاتش فى اللاتينية الأقدم ، يقال انها ولاية أو ناحية تقع الى الغرب من المنطقة التى دفن فيها القديس توما ، ومن ثم وجب أن تكون هى الجهة التى تقع فيها مدينة أركوت (أروكاتى) ، وكذلك المعابد الشهيرة ، أو البادوجات فى كونجيفرام (كانجيورام) الشهير ، حيث توجد فى الوقت الحاضر مؤسسة ضخمة للبراهمة · انظر : (بوكانان Journey from Madras, etc. مج ١ ص ١٢) · وسواء أوجدت أم لم توجد ، أية رواية تاريخية ، أو سجل يسجل أن هذه هى النقطة التى انتشرت منها القبيلة المقدسة الى كل أرجاء شبه الجزيرة ، فامر نترك البت فيه لغيرنا ، ولكننا نعثر فى الخريطة المرافقة لكتاب دانفيل Antiquité de l'Inde على كلمة براتشمية (استنادا الى بطليموس) موضوعة قرب أركاتيس ، وفى موقع كونجيفرام ، التى تقع غربا على بعد يقارب الأربعين ميلا ، بميل الى الغرب من مدينة سانت توميه · نلتقى أيضا فى نص هذا الجغرافى العليم بالفقرة التالية : « أن المجوس البراهمة ومدينتهم المسماة براشمة بين أركات ، والبحر فى كتاب بطليموس ، تركز أبصارنا على مدينة كانجيه فارام ، تقع تقريبا بدرجة متساوية وعلى ما يقارب عشرة فراسخ من كل من أركات والبحر على السواء ، وفيها يحتفظ البراهمة بواحدة من أشهر مدارس مذهبهم » · ص ١٢٩ ·

(٢) ربما بدت حرف كهذه غير متمشية مع الصفة المقدسة المظنون أن هذه الطائفة تتصف بها ، بيد أن لدينا أسنادا كثيرة تظهر لا أن البراهمة ليسوا مقتصرين بالضرورة فقط على وظائف الكهانة ، بل ان كثيرين منهم يعملون فى أشغال دنيوية بحتة ·

(٣) ربما لم يمل كثيرون الى الاقرار بهذه الصفة الطيبة لهيئة البراهمة ، ومع هذا فليس مؤلفنا هو الوحيد فى رأيه فى فضائلهم . يقول مور : « ان البراهمة ، على وجه الجملة ، فيما أظن أشد من لقيت

من أجناس النـاس تمسكا بالأخلاق وأفضلهم سلوكا » · انظر :
Hindu Pan theon ص ٣٥٩ · ويلاحظ المؤلف المتحرر لكتاب الآيين الأكبرى : « وموجز القول أن الهندوك متدينون ، ذوو بشاشة ولطف ، مع التأدب مع الغرباء ، مرحون ، مولعون بالمعرفة ، مغرمون بانزال ألوان التقشف بأنفسهم ، محبون للعدالة ، ميالون الى العزلة ذوو اقتدار فى العمل ، شاكرون للجميل ، معجبون بالصدق ، أصحاب أمانة ووفاء لا حد له فى كل معاملاتهم » · مج ٢ ص ٢) · ويضيف هذا الكاتب المسلم نفسه : « لابد أن نتذرع بالانصاف فنقرر أن من يكرسون منهم حيواتهم لعبادة الههم يفوقون رجال كل ديانة أخرى (وهو قليل الدراية بالمسيحيين) فى التقوى والقنوت » · ص ٨١ ·

(٤) يقول باربوزا :

« Questi bramini, e cori parimente brancani (baniani), tolgano moglie all'usanza nostra, et ciascuno piglia una sola, et una volta solamente ».

(الورقة ٢٩٥ ـ ٢) ·

ولم أتمكن من أن أكتشف ، فى كتاباتنا العصرية فى موضوع هيئة البراهمة ، ولا فى ترجمات السنن الهندوكية ، أى تأكيد مباشر بأن تعدد الزوجات محرم لديهم ، وأنه يجب على البرهمانى أن يكون زوجا لزوجة واحدة » ، وان كان من الأمور الضمنية الشائعة الراسخة فى الأذهان ، وبخاصة فى « نظم مينو » ، أن من اللياقة الامتناع عن التزوج ثانية ، متى توفيت الزوجة الأولى ·

(٥) يبدو أن بعض هذا الوصف ينطبق على طبقة من النـاس مشتغلة بالتجارة تماما ، وهناك أسباب كثيرة تدعو الى الاعتقاد بأن مؤلفنا لم يعالج فى هذا الفصل ، شأن البراهمة فقط ، بل وأيضا طبقة من التجار البانيانيين أو البانيانى Baniani حسب الكلمة الايطالية ، وهى كلمة اختلط الأمر فيها على مترجميه فظنوها خطأ نفس كلمة البراهمة ·

(٦) يلاحظ المستر ولكنز فى هامشـة فى ترجمتـه للهيتوپاديزا Hitopadesa « أنه وان لم يقتصر البراهمة بأية حال على تناول غذاء نباتى بحت ، كما يظن الناس بصـفة عامـة ، فانهم ، شـأن اليهود والمسلمين ، محرم عليهم تناول أنواع كثيرة من اللحم والسـمك » . (ص ٣١٨) . وبدهى ، انه لا بد أن هذا ينطبق بوجه أعم وأوسع على الطوائف الدنيـا .

(٧) يقول كراوفورد : « أن « الزنار » أو الخيط المقدس يعلق حول الجسم من الكتف اليسرى » · انظر : Sketches مج ٢ ص ٤١ ·

(٨) ان كانت هذه حقا مملكة منفصلة ، فلابد انها كانت مع ذلك ذات تبعية لملك تلنجانا ، الذى ورد ذكره فى هامشة سابقة ، والذى يبدو أن ممتلكاته ، بعد أن غزاها امبراطور دلهى الباتانى ، قد اندمجت فيما بعد فى ممتلكات ملك نارسنجا الهندوكي ، كما يسمونه عادة وهو الذي كانت عاصمته بيجانار أو فيجاناجارا ٠

(٩) عندما يشاهد هؤلاء الناس ظلهم ، متى أوشكوا أن يعقدوا صفقة أو يقوموا بأى عمل آخر،فانهم لا يقصدون الا مجرد معرفة الساعة من النهار ، باستخدام زاوية ارتفاع الشمس ، ليحكموا اذا كانت موائمة أم هى بخلاف ذلك ٠

(١٠) المقصود هنا من التركيب المسمى بالفوفل أو الكوثل ، المكون من ورق نبات الفوفل أى جوز الأريقة Areca Nut ، وجير الصدف المكلس ، الذى هو معروف جدا لدى العموم ، بحيث لا يحتاج الى مزيد من وصـــف ٠

(١١) اسم تنجوى هذا ، الذى هو فى خلاصة البندقية البـاكرة كويجني Cuigni ولكنه لا يبدو فى الترجمات لا شك أن المقصود به هو الفلاسفة الزهاد ، أو كما قد يسميهم آخرون المتسولين الدينيين ، الذين تسمى طبقة منهم باسم جوجى أو يوجى ، وطبقـة أخـرى باسم سانياس وكثيرا ما يسمون أيضا باسم « الفقراء » ، ولكنها تسمية خاطئة ، نظراً لأن تلك الكلمة ينبغى الا تطلق الا على المتسولين المسلمين ٠

(١٢) ونتيجة لحالة العرى المطلق هذه ، أسـماهم القدماء : الزهاد الباطنية أو الجمنوزوفيستيين « Gymnosophists » ٠ ويلاحـظ كرلوفوير إن « كالانوس ، الذى احرق نفسه بحضرة الاسكندر ، أسـماه بعضهم بالبرهماني ، ولكن من الواضح انه كان احد اولئك المتبتلين الذين يجولون بأرجاء البلاد ٠ ويقال انه كان يسير عاريا ، اما البراهمـة فانهم لا يسيرون عراة على الاطلاق ، ولا يرتكبون أي عمل من اعمال الاسراف ومجاوزة الحد » ٠ (مج ١ ص ٢٤٧) ٠

(١٣) يوضع الثور موضع التمجيد عند السايفا Saivas بوجه خاص ، وهم الطائفة التى تعبد سيفا ويهوانى ، الذى يعد ذلك الحيوان لديهم مركبا أو محملا (اداة نقل) أى فاهانا أو مونتور ، ولكن الشىء الذى يرتدونه بصـفة علامة اكثر ، ومعلقا فى أعنـاقهم ، ليس تمثـال لنجاويونى ، الذى ربما حمل الحياء ورقة النفس مؤلفنا أو مترجميه على العزوف عن وصفها ٠ (انظر Asiat. Res. مج ٧ ص ٢٨١) ، ويقول باولينـو :

« Lingam o fallo del dio Shiva, simbolo della virtù generativa del sole. Alcuni lo portano al collo, alteri al bracico, altri, dipinto sulla fronte ».

(ص ٣٠٠) .

(١٤) تتميز جميع طوائف الهندوك المختلفة بعلامات خاصة تجعل على الجبهة والصدر . والأشيع كثيراً أن الرماد المستعمل فى التركيبة المستخدمة فى عمل هذه العلامات أو رسمها ، متخذ من جلة البقر ، أو من أية مادة تحرق على الموقد القربانى وهو ما يخلطونه أو ينوعونه باضافةتراب خشب الصندل فضلا عن عناصر اخرى يقول مور:«بالاضافة الى الجبهة ، يلاحظ أن الهندوك يضمخون اذرعتهم وصدورهم ايضا ، وكذا نحورهم أحيانا . فمسحوق الصندل ، والكركم ، والشونا أو الجير ، ورماد نار قربان ، وجلة البقر ، وغيرها من المواد المقدسة القابلة للاشتعال ، مع جعلها دبقة بالمادة اللزجة فى ماء الأرز ، أو دلكها جافة فى بعض الأحيان ، هى العناصر والممارسات التى تجرى فى هذه المناسبة . فالشائع أن تشاهد مرسومة على الأذرع والصدور عدة خطوط ذات لون رمادى فاتح أو صباغ أصفر ، كما أنى أفهم أن طائفتى اليوجى والسانياس وغيرهما من الأشخاص الأتقياء ، كثيرا ما يحملون معهم وبطة صغيرة من هذه الأصباغ المقدسة ، يضمخون بهم من يقدمون اليهم الاحترام فى مقابل اهتمامهم بهم . » انظر Hindu Pantheon ص ٤٠٩ .

(١٥) ان موزة الجنة (Musa Paradisiaca عند لينابوس ، التى كانت تسمى فيما سلف Pomum paradisiacum أى تفاحة الفردوس) تسترعى الأنظار بحجم ورقتها ، التى جرت عادة الأهالى باتخاذ جزء منها يضعون فيه أرزهم المسلوق .

(١٦) ويكثر من يسكنون على بعد من البحر من ارتياد الشواطىء الرملية للانهار الكبرى لنفس تلك الغاية وفى أعداد غفيرة فى وقت واحد ، بصورة تجعل الأمر مسترعيا للانظار .

(١٧) يذكر كتاب عديدون براهين قوية ، تؤيد ما يريم على حياتهم بعامة من تقشف ، بقدر ما تؤيد عفتهم بوجه خاص ، أو درجة كبح هؤلاء اليوجيين أو السانياسيين للمشاعر الحسية ، (انظر ثيبينوه Voy des Indes مج ٣ ف ٦ ، وانظر جروسى فى : Voy to the East Indies مج ١ ص ١٩٦) . أما فيما يتعلق بطول عمرهم فمن العسير الوصول الى ما يؤيد ذلك ، ولكنه شىء له دلالة ضمنية قوية فى الآيين الأكبرى ، حيث ورد فيه فى وصف الـ « جهار أشيروم Char asherum » ، أى

الدرجات الهندوكية الأربع ، وقساوات نظام الزهادة ، المقصورة عادة على المرحلة الرابعة أى الأخيرة : « ان بعضهم يقوم بهذه التقشفات كلها في الدرجتين الأولى والثانية ، وبعضهم يسمح بخمسة وعشرين عاما لكل حالة من هذه الحالات » · – مج ج ٢ صص ٢٢٢–٢٢٥ · (وهنا تضيف النسخة اللاتينية من ماركو بولو :

« Dormiunt nudi in terra, nullum babentes vestitum infra nec supra, et hoc est mīrable quomodo sani evadunt, et toto anno jejunant, nec comedunt aliquid aliud nec bibunt quam panem et equam, et habent suos regulares qui custodiunt idola. Et quando volunt probare quod isti sunt boni et honesti ».

● هوامش الفصل الثالث والعشرين

(١) من الأمور المألوفة الظن أن الجبل الشاهق والعجيب القائم فى سيلان ، والمعروف باسم قمة آدم ، اكتسب تلك التسمية من الملاحين البرتغاليين أو غيرهم من الأوربيين ، بيد أن لدينا من الشواهد ما لا يتطرق اليه شك ، بأنه مهما تكن تسميته عند السنجاليين ، أو جيرانهم الهندوك ، فان المسلمين ، ظلوا منذ أمد قديم جدا يربطون بينه وبين أسطورة النبى آدم واسمه ويقرر سيل : « يقول المسلمون ، انهما لما أخرجا من الجنة ، سقط آدم على جزيرة سيلان أو سرنديب ، وسقطت حواء قرب جدة ببلاد العرب » • القرآن ، ص ٢٥ هامشة •

(٢) المقصود من الشخصية المقدسة الموصوفة هنـا هو بوذا مؤسس نظام السنجاليين singalese الدينى ، الذى يشتهر فيما يحمل من عدد كبير من الأسماء ، التى اطلقت عليها اخذا من صفاته المظنونة ، باسـم ساكا أو ساكيا مونى ، ومعناها « الحكيم الأريب » • وأضاف مؤلفنـا الى هذا الاسم كلمة باركهان : بدلا من بوركهان ، ومعناها « الاله » بلغة التتار المغوليين ، ويبدو انه لا مبرر للشك فى أن الامبراطور قبلاى ورجال بلاطه ، الذين كانوا هم وشعب سيلان على حد سواء ، يعترفون بألوهية بوذا ، كانوا يدعونه باسم « ساكامونى بوركهان » الذى صحف هنا الى سوجومون باركهان • ولدينا من عبادته فى هذه الجزيرة شواهد كافية ، يقول نوكس بعد الحديث عن خالق السموات والأرض : « هناك رب عظيم آخر ، يسمونه بودو • وهو الذى يرجع اليه خلاص النفوس • وهو فيما يعتقدون جاء مرة الى الأرض •• وهو قد رحل عن الأرض من قمة أعلى جبل فى الجزيرة وهو المسمى بيكو آدم : وبها يوجد أثر يشبه القدم يقولون انه أثر قدمه » • (انظر Relation of Ceylon ص ٧٢) • ويقول كوردنر : « يشيع الاعتقاد بانه يوجد على قمته (وهى قمة آدم) ، حجر محفور ، يسمى بأثر قدم بوذا ، ويشبه من بعض النواحى اثر الأقدام الموجودة بمملكتى آنا وسيام .(انظر Description of ceylon ج ١ ص ٨) ومن هنا يتجلى أن ما يعتقده المسلمون حول آدم ، ينسـبه الهنود الى بوذا •

(٣) تقول بعض الروايات ، وخاصة منها ما هو جدير بكل اعتبار ، ان مسقط رأسه هو جايا ، بولاية باهار ، أو كشمير فيما يقول آخرون ،

ولكن لا تعوزنا الأسناد (ان امكن تسميتها بهذا الاسم) ، التى تقول : انه من أهالى سيلان . يقول المسيو لالوبير ، متحدثا عن معبودات سيام، وهم دون مراء البوذا أو ساكياموني عند أجزاء أخرى من الشرق : « ان أبا سوموثوسودوم » ، كان ، حسبما يروى ذلك الكتاب نفسه ـ بللى Bali ملكا على تيف لانكا ، أعنى انه كان ملكا على سيلان الشهيرة » . (انظر Du. Roy. de Siam مج ١ ص ٥٢٥) . ويقول لاكروز : « وفيما يتعلق بشخص زاكا Xaca الذى سمى صنمه باسم فوي Foe بعد تأليهه، فانه من اهالى الهند ،كما انه حسب الشعور الأشد رسوخا، مولود بجزيرة سيلان » . (انظر : Hist. du Christ. des Indes ص ٥٠٥) .

(٤) هناك درجة من الصحة الدقيقة فى هذا البيان حول محاولات الأب اغراء ابنه بالعزوف عن حياة الاعتزال التى كرس لها ذاته، لن تكون دهشة القارىء لها قليلة عندما يطلع على فقرة فى كتاب « بيـان تجسد بودهو Boodhu » ، الذى ترجمه عن اللغة البورمانية المستر ف . كارى والذى قدمه للعـالم ، في سيرامبهر بالبنغـالى ، المستر و. وارد بارسالية المبشرين المعمدانيين في كتابه :
« View of the Hist. Literature and Relig. of the Hindoose ».

« فأما الملك فإنه بعد التأمل ، وغيره قال : « يا بنى سياهبك فيالة الفيلة وراكبة العجـلات ، والخيالة ، والمشاة المصـففين ، مع الخيول البهيجة وسأهبك كذلك العذارى المزدانات بكل انواع الحلى ، فاتنا منهن بالبرارى ، تصبح مليكنا المطاع . بفتنتهن العذراوات ـ المجيدات لفنون الرقص والشدو ، والمتقنات للمهارات الأربع . فماذا تفعل هنا في هذه البرية؟»ولكن يظهر اعراضه عن المملكة ، أجابه موهاسوتوو (مهاساتوا : القديس الكبير) ، « ياسيدى ! لم تغريني بثروة زائلة ، وجمال فان (ميت) ، وربيعـان شباب ؟ أيها الملك ! ما الحب ؟ وما النظرة الممتعة ، والابتهاج الوقتي ، والقلق في فقدان الثروة والابنـاء والبنـات والزوجـات ، لدي أنا الذى أطلق سراحى من أسار الخطيئة ؟ لنى لأعلم أن الموت لن ينسانى وإذن فما جدوى المسرات والثروات ؟ . . الا فلتعد . فلتعد أيها الملك ! . . فلا رعية لى فى المملكة » . (صص ٤٠٧ ـ ٩) يقول الأبين الاكبرى : « الذى حدث فعلا بنفس الطريقة ، وبالضبط فى نفس الميعـاد الذى تنبأ به المنجمون ، انه حول وجهة عقله عن شئون العـالم واختار حياة عزلة » . « ومات فى سن العشرين بعـد المائة » . مج ٢ ص ١٥٧ .

(٥) لاحظ كثير من الرحالة هذه الحجات . . يقول المستر دانكان فى ملاحظاته التاريخية عند ساحل مالابار ، متحدثا عن حجابرة الملك

لتلك البلاد (اثناء حياة النبى محمد) نقلا عن رواية مؤرخ من الأهالى : « انها تمت على يد جماعة من الدراويش من بلاد العـرب ، رسـوا فى كرانجلور من مدن جراجانور (كانت آنذاك مقر حكومة مالابار) اثناء رحلتهم لزيارة أثر قدم آدم الموجود على ذلك الجبل فى سيلان ، الذى يعرفه البحارة باسم قمـة آدم » · تحت اسم « سريبود » أى القـيم المقدسة ـ بالمثل باجـلال الهندوك ولياذهم به » انظر : Asiat. Res. مج ٥ ، ص ٩ ·

(٦) لم يرد أن هذه السفارة العجيبة ذهبت الى الهند بحرا · ومن ثم فان طريقها اما أنه كان من خلال ولاية يون نان الى البنغال ، أو عن طريق التبت الى بلاد الهند وشبه الجزيرة · فقد بلغ من عظم اتساع ممتلكات الأسرة المغولية التترية ، فى ذلك الزمان ، أنه ، حتى فى التنيير العادى للشئون السياسية ، اعتادت شعوبهم القيام برحلات بعيدة الشقة طويلة الآماد · أما فيما يتعلق بالهدف من البعثة فانها لا تعدم مثيلات لها فى تواريخ الأقطار الأخرى ·

(٧) هذا الاحتفال المهيب بادخال مخالفات (مقدسة) الى قصر الامبراطور ، ليس أيضا مجرد ظرف جديد فى الحوليات الصينية · يقول دوهالد متحدثا عن الأمير السابع عشر من أسرة تانج : « وفى السنة الرابعة عشرة من حكمه أمر فنقلت بأبهة عظيمة الى قصـره ، عظمة من عظام الوثن فوتى » مج ١ ص ٤٥٦ ·

● هوامش الفصل الرابع والعشرين

(١) ان معنى كلمة كائل أو كويل فى لغة التامول هو المعبد ، وهى تشكل المقطع الأخير فى أسـماء كثيرة من الأماكن التى تقع فى الجزء الأخير فى أسـماء كثيرة من شبه الجزيرة • وكانت أيضا ، على أعم وجه : اسما لمدينة ضخمة وميناء للتجارة ، تقع فيما نسميه الآن اقليم تينيفللى ، وهى لا تبعد أميالا كثيرة عن نوتاكورين • ويمكن مراجعة موقعها فى الخريطة المثبتة فى كتاب فالنتين Beschryving van Choromandel (مج ٥) ، حيث تدل على اهميتها القديمة ، ولكن نظرا لاختفائها من الخرائط الحديثة ، فانه يصح لنا أن نستنتج أن كوئل باتنام لم يعد لها وجود كمدينة ، ومع هذا فانه يوجد فى مجموعة دار لبل « لخرائط الموانى » ، خريطة كانت (نقلا عن فان كويلن) لا موقع كايل باتنام فقط ، بل وبورتو كايل ، ومكان يسمى كايل القديمة •

(٢) يبدو أن ملك نارسنجا أو تلنجانا وضع الولايات الجنوبية من ممتلكاته المترامية تحت الحكم المباشر لاخوته العديدين ، الذين كانوا يمارسون السلطان الكامل للملوك داخل ممالكهم • ويرجح أن اسم استيار تصحيف ، ولكن البقايا المحببة للموليات الهندوكية • التى وصلت الى يدنا ، لا تتيح الا اقل الفرص للتحقق من الهجاء الصحيح للكلمة • وسيتجلى ان هذا الجزء من البلاد ، انتزع فى زمن لاحق من قبضة ملوك نارسنجا على يد ملوك كولا او كولام Koulamor Kolam على ساحل مالابار •

(٣) هنا نجد ورقة التامول (اليقطين الهندى) مسماة باسمها الفارسى الحقيقى وهو التنبول •

(٤) ليس من غير المألوف لدى هؤلاء النـاس ، بالاضافة الى العناصر العادية ، ان يمزجوا فى التركيبة (أو التحويجة) حب الهال (الحبهان Cardamom) والمقول القابض Gutta gambir وعقاقير اخرى ذات نكهة عطرية وحريفة • غير انى على غير بينة ، من أن الكافور يمكن ان يستخدم اطلاقا على هذا النحو ، كما أن هذا غير محتمل بناء على خواص ذلك العقار • ومن ثم يمكن الظن بانه جرى احلال اسم أحد عناصر التركيبة محل آخر ، وينبغى أن يلاحظ انه فى لغة الملايو (التى كانت مألوفة

اكثر لدى تجار ســاحل كوروماندل) فى الأزمنة القديمة ، منها فى زمننا هذا) تطلق كلمــة كابور Kapûr (وهى الكافور عنــد العــرب) ، ليس فقط على الكافور Camphor ، بل وعلى الجــير الحى أيضا (Calx viva) الذى هو عنصر جوهرى فى أعداد التنبول •

(٥) يصف باربوزا بتفصيل دقيق ظروف هذه الممارسة القانونية للمبارزة ، حين يتكلم عن باتاكالا ، هى مكان على شاطىء مالابار المقابل ، قرب أونوره •

● هوامش الفصل الخامس والعشرين

(١) كانت كولام وهى كولان فى خرائطنا، مكانا عظيم الشهرة عندما زار البرتغاليون الهند لأول مرة ، وتلقوا المساعدة من أمرائها على تلك قاليقوت ، أو الزامورين ، على ما كان يلقب • ويبدو أن أهميتها كموقع تجارى زالت فى الأعصر الحديثة وحلت محلها أنجنجو الواقعة بالقرب منها • والاسم معناه فى لغة التامول الصهريج أو البركة أو الحوض • ومع هذا فمسالة البعد عن كائل تقارب مائتى ميل لا خمسمائة •

(٢) يقول أبو الفداء فى « تقويم البلدان » ، ص ٢٧٤ :

« Narravit mihi alquis qui eo suscept iter ibi esse arborem ol Bakkami (seu Brasillam) cujus lignum smille sit lingo granati mali ».

وورد اسم خشب الصندل بكثرة أكبر باعتباره منتجا للجبال بالمناطق الداخلية من البلاد •

(٣) يقول باربوزا متحدثا عن كولام :

« Nasce in questo luogo, molto pepe, del quale se ne caricano molte navi ».

(الورقة ٣١٢ ــ ٢) لعل من نافلة القول الاكثار من عدد الأسناد بقصد اظهار أن الفلفل يزرع باقليم ترافانكور ، الذى تقع فيه كولام • ومع هذا فقد أخطأ مؤلفنا فيما يتعلق بالفصول ، وذلك نظرا لأنه على ساحل مالابار تزهر عرائش الفلفل حوالى شهر يونية ، وتنضج الثمار فى ديسمبر •

(٤) ورد هنا بيان صحيح بدرجة مقبولة عن خطوات العمليات البدائية لصناعة النيلج • فأما النبات نفسه فانه ينمو ، ويستخدم مادة صباغة بكل أرجاء الهند بلا استثناء تقريبا • ووردت الكلمة فى رامسيو والخلاصات endigo و cndic (بدلا من endici) فى طبعة بال •

(٥) هناك من الشواهد القوية ما يحمل على الاعتقاد بأنه فى الزمان الخالى كان الصينيون يتجرون فعلا (بالتبادل مع العرب) ليس فقط حتى شبه جزيرة الهند ، بل وأيضا حتى الخليج الفارسى نفسه • وهذا الرأى يؤكده الدكتور روبرتسن الذى درس ــ الموضوع : انظر Hist. Disquisitions etc. ص ٩٥ • ويترك الرحالة العرب فى القرن التاسع ، بعض ظلال الشكوك مخيمة الى حد ما فى أن السفن المستخدمة فى التجارة بين

سيرافوكانتون لم تكن الا عربية صرفة ، وان سميت في ترجمة رينودوت « سفنا صينية Vaisseaux Chinois » ، كما نسمى نحن السفن المستخدمة فى هذه التجارة نفسها ، باسم سفن الصين · بيد أن سند الادريسى الذى كتب فى القرن الثانى عشر ، يعد سندا فى صميم الموضوع مباشرة · فهو يقول عن ميناء فى اليمن :

« Ex ipsa, solvuntur navigia Sindae, Indiae, et Sina-rum, et ad ipsam deferuntur vasa sinca »

(انظر Geographia ص ٢٥) (وهى بالعربية : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ») ، ونجد ما يؤيد هذه الحقيقة من جانب الصينيين أنفسهم فيما يروى ده جنى ·

(٦) لاحظنا من قبل أن مؤلفنا يطلق فى جميع الأحوال اسم الأسد على النبر أو الفهد.وهو انما يعنى أن يتحدث عن الآخرين فى هذه الحالة الراهنة ، وان كانت الكلمة الواردة فى النص هى ليونى Leoni أى أسد· فأما عن وجود النبور السود أو الفهود فشيء لا مجال فيه لشك ·

(٧) ربما كان المقصود بالطيور الموصوفة هنا هو الكوكاتوا واللورى والببغاء Kokatua, Lury and Paroquet وان تكن الأولى ليست من طيور المكان الذى رآها فيه · وقد سبق أن ورد بالكتاب ذكر الطواويس وأنها طائر شائع بالهند فأما الدجاج المنزلى، فان بالهند منه بعض أنواع أضخم حجما بكثير مما يربى بأوربا ـ انظر Hist. of Sumatra ط ٣ ص ١٢٥ ·

(٨) يرجح أن ما يسميه مؤلفنا هنا بالخمر ، انما هو كحول حاد ، يستخرج من السكر الخام المحبب تحبيبا غير كامل ، المسمى بسكر النخل الأسمر أو الجاجرى أو جاجورى الذى هو فى حد ذاته تكثيف للعصارة (طازجة أو مخمرة (Tari or Toddy المستخرجة من « نخلة Borassus flabelliformis » التى اسمها السوقى هو نخلة براب Brab palm فى شبه الجزيرة الهندية ·

(٩) يقول لودوفيكو بارثيما ، متحدثا عن رعايا ملك نارسنجا :

« Il popolo minuto, vanno tutti nudi, salvo che intorno le parti inhoneste portano un panno ».

(الورقة ١٥٩ ـ ٢) · وهذه الطبقات العليا من الناس فى مالايالا (مالابار) ، يستخدمون أقل القليل من الملابس ، ولكنهم يحافظون على نظافة أجسامهم بصورة بالغة جدا · انظر بوكانان مج ٢ ص ٣٥٣ ·

(١٠) مهما بلغت أخلاق هؤلاء القوم من الحسية الشهوانية بصفة عامة ، فانى لا أجد دليلا مباشرا يثبت وجود زواج المحارم بينهم ، على

أنه يحتمل أنه نشأ شيء من الارتباك والخطأ في هذا الصدد عن بعض عادات غير مألوفة اختصوا بها ، وبخاصة طبقة النايير Nairs الذين يحترفون في غالب أمرهم حرفة الجندية · وطبقا لهذه العادات ، فان ابن الأخت الكبرى ، وليس الابن ، هو الذي يرث أملاك أبيه ، أو هو الذي يؤول اليه التاج في الأسرة المالكة · وهناك عادة ترتبط بممارسة أخرى ذات طابع شهواني داعر نرى أنه ستفسرها على خير وجه كلمات الدكتور بوكانان ، يقول هذا المشاهد الفطن : وعندما تم حشد أعلى رجال النايير قدرا في هذه الجيرة ، قدموا الى البيان التالي عن عادتهم · فان النايير أو كما ينطقونها بالجمع النايمار — هم طائفة السودرة الأنقياء الدم في منطقة المالايالا ، وهم جميعا يدعون انهم يولدون جندا مطبوعين ، ولكنهم مختلفون مراتب وحرفا » ·· — « ويتزوج النايير قبل أن يبلغوا العاشرة ·· ، ولكن الزوج لا يعيش البتة بعد ذلك مع زوجته · والحق أن هذا يعد شيئا بعيدا عن الاحتشام · وهو يتولى منحها الزيت والثياب والزينة والطعام ، ولكنها تعيش بمنزل أمها ، أو تعيش — بعد وفاة والديها — مع اخوتها ، وتعاشر معاشرة الأزواج أي شخص تختاره من مرتبة معادلة لمرتبتها أو أعلى · وان هي ضبطت تمنح حبها الى أي رجل وضيع ، عدت من المنبوذات . وليس ثمة عار على سمعة المرأة أن يقال عنها أنها كونت أوثق العلاقات الحميمة مع كثرة من الأشخاص ، بل الأمر بضد ذلك ، فان نساء « النايير » يفخرون بأن يعددن بين محبيهن المقربين كثيرا من البراهمة والراجات وغيرهم ذوي المولد الرفيع » · « وأم الرجل تدبر شئون عائلته ، فاذا ماتت تولت الادارة محلها كبرى اخواته · ويكاد الأخوة أن يعيشوا جميعا على الدوام تحت سقف واحد ، ولكن متى افترق أحد أفراد العائلة عن سائرها ، فانه تصحبه على الدوام أخته المقربة اليه » انظر : Journey from Madras, etc. مج ٢ ص ص ٤٠٨ـ٤١٢ · وليس عجيبا في مثل هذا الوضع المنزلي ، أن يشتبه مسافر ، لم يرزق وسيلة للبحث الدقيق في أن بينهم اختلاطا جنسيا في المحارم ·

هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) ان كومارى Komari أو Comari كما تكتب فى الترجمة اللاتينية ، وهو اسم صحيح للنتوء الجنوبى الأقصى للهند ، الذى ذكره بطليموس بأنه Promontarium kamariae « الذؤابة الكامارية» والذى يسميه الأوربيون العصريون «رأس قومورين» • وتبعا لسير مؤلفنا من ساحل شبه الجزيرة الشرقى الى ساحلها الغربى ، كان ينبغى أن يكون هـذا المكان موضـع ملاحظته قبل مدينة كولام ، وهى قلة دقة ربما نشأت عن تصحيف فى مواضع المواد غير المترابطة •

(٢) يبدو أن La tramontana أو Nostra tramontana تدل ـ كما ينبغى حقا أن تفعل • على النجم القطبى الشمالى ، فى بعض أقسام الكتاب، ولكنها تدل فى بعض أجزاء أخرى على مجموعة نجوم « الدب الأكبر » • ولما كانت المجموعة توصف هنا بانها لا ترى الا جزئيا ، وجب بطبيعة الحال أن يكون المقصود هو المجموعة الأخيرة • وعندئذ لا يمكن أن تفهم ملحوظة مؤلفنا غير العلمية ، الا على فرض أن الدب الأكبر Ursa Major كان تحت الأفق ليلا ، أثناء معظم الوقت المستخدم فى قطعه لهذه البحار » وهو الوضع الجارى فى خطوط العرض الدنيا ، مدة تقارب ستة أشهر فى السنة • ويمكن تطبيق هذا الحل بالمثل أيضا على فقـرة فى بلينى المؤرخ (lib VI. Cap. 24) حيث ورد أن ملاحا دفع الى المحيط الهندى ، ونزل فى هيبورى بجزيرة تابروبان ـ قرر عند عودته الى روما ، أن الدب الأكبر « Septemtrio » ، لم يكن يشـاهد من الجزيرة ، ولكن ، ان كان المقصود أن ملاحظته تنصب على الدب الأكبر نفسه ، فربما أمكن أخـذ العبارة بهذا المعنى • وهو أن النجم ، وان كان غير مـرئى من جـاوة الصغرى فانه متى أصبح المرء على بضعة أميال من رأس قومورين ، (عند خط عرض ٥٨) فانه (أى النجم) كان يمكن تمييزه أحيانا على ارتفاع قليل فوق الأفق ، حيث لا يشاهد بسهولة نجم من الحجم الثالث ، ما لم يكن الجو بتلك الجهة أوضح مما هو عادة • وطريقة تقدير ارتفاعه بالأذرع أو القامات بدلا من الدرجات مهما تكن خشنة بدائية فانها تبدو من رحلات كاداموستو Cada Mosto فى القرن الخامس عشر ، انها كانت لا تزال تستخدم •

(٣) أفضت عبارة هانومان ـ وهو قرد (أعلى) عاقل ومسل جدا ـ فى الميثولوجيا الهندوكية ، وقد تمكن بجيش من أبناء جنسه ، من مساعدة راما فى فتح سيلان ، بعد انقاذ حياة زوجته من قبضة رافانا ، معذبها ، الذى اختطفها ـ الى ظهور احساس بالتوقير نحو الجنس القردى كله ، وبوجه خاص ، حنو القردة العليا الأضخم حجما التى يقترب شكلها كل الاقتراب من الشكل البشرى · وكانت عاقبة هذه الخرافة هى أن هذا النوع ، نظرا لعدم تعرض أى انسان بالمضايقة ، صار يتكاثر بافراط شديد، حتى غدا ـ مصدر المضايقة لسكان القرى · وقد حدس بعضهم على نحو مستساغ عقلا الى حد كبير ـ أن قردة جيش راما لم تكن فى الحق الا الجبليين شبه المتوحشين القاطنين بالاقليم المجاور لرأس قومورين ·

● هوامش الفصل السابع والعشرين

(١) ان ديلى الواردة فى نسخة راموسيو ، وهى فى نسخة بال ايلى Elii ، وفى اللاتينية الأقدم هيلى ، وفى الخلاصة المبكرة للبندقية اللى Elli ، هى جبل ديللا بالخرائط الانجليزية وديللى بالخرائط الهولندية ، ويقع تقريبا على خط عرض ١٢ شمالا ، حيث تنتهى طبقا لما أورده باولينو ، الذى يسميه مونت ديللى ـ منطقة مالابار أو مالا يالا ؛ وتبدأ منطقة كانارا . ومع هذا فان بوكانان يمد حدود مالابار الى نهر كهندراجيرى ، الذى يقع على نصف درجة أعلى شمالا من جبل ديللا ، الذى يصفه بأنه : « تل تفصله عن القارة أجوان مالحة المياه ، ويشكل بالنسبة للساحل نتوءا عجيبا ، اسمه بلغة الأهالى ـ فيما لاحظه ـ مفرط الصعوبة ؛ ولا يكان يستطيع أوربى نطقه ، ولا يمكن كتابته بحروفنا ـ (اللاتينية) . وهو يشبه فى الصوت قولك ييساوى مالاى Yesay Malay » مج ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) النهر المذكور هنا ، يصب مياهه رأسا الى الجنوب من جبل ديللا ، غير بعيد من كانا نور ، بعد مروره باقليم الراجات الكهريكاليين. أو الكولاسترى ، الذين ازدهرت مملكتهم فى المدة التى يتحدث عنها مؤلفنا . يقول بوكانان : « انه نهر يستمد اسمه من مدينة تسمى فاليا باتانام » . « وهو شديد الاتساع عند المصب ، وينقسم عند السد مباشرة الى فرعين. كلاهما صالح للملاحة بالزوارق الى مسافة بعيدة » .

(٣) ويؤكد باولينو رأى مؤلفنا فيقول :

« Questo paese ... è quai in espagnabile, essendo coperto da alte montagne, e tutto tagliato da' fiumi. che impediscono la cavalleria».

(ص ٧١) . ويلاحظ بوكانان : « يبدو أن راجات مالابار لم يثقوا يوما فى اقامة التحصينات للدفاع عن بلادهم » . ص ٦٤٢ .

(٤) بعد اعطاء بيان تفصيلى لطريقة زراعة الفلفل فى هذه المناطق ؛ يواصل الدكتور بوكانان حديثه قائلا : يزرع فى حدائق هذه المنطقة المجاورة. الكثير من الزنجبيل والكركم » . ويكشط الزنجبيل المعد للبيع بسكين

لازالة قشره الخارجى ، وبعد ذر رماد جلة البقر عليه ، ينشر على الحصر ، ويجفف لمدة ثمانية أيام أو عشرة ، وبذا يصبح صالحا » · ص ٤٦٩ · وحب الهال (الحبهان) أيضا من السلع الانتاجيـة ·

(٥) تشابه ظروف الرسو المرصوفة هنا مع مثيلاتها فى تليكهرى وماهيه والجنجو ، التى منها يشحن الفلفل الى أوربا على سفن شركة الهند الشرقية ، فى الطريق العام ، حيث يكثر أن تحل السفن أمراسها (حبالها الغليظة) ·

● هوامش الفصل الثامن والعشرين

(١) الصحيح ان اسم مالابار (وورد في الترجمات الأخرى ميليبار) • وان شاع اطلاقه على الساحل الغربي لشبه الجزيرة الهندية ، انما يخص بالتحديد الجزء الذي يقع الى الجنوب من جبل ديللا ، الذي يسميه الأهالي مالايالا ومالايالام . ومن هنا فان مؤلفنا وقع في خطأ عدم الدقة : باطلاقه الاسم ، على عكس ذلك ، على ذلك الجزء من الساحل الممتد نحو الشمال من ذلك النتوء ، ذلك الجزء الذي هو في الواقع ما نسميه ولاية كانارا والكونكان بدلا من الشقة الممتدة نحو الشمال ابتداء من رأس قومورين ، التي قدرها تقديرا صحيحا بثلاثمائة ميل تقريبا •

(٢) يقول رنل : « ان هذا العدد الجم من المرافيء الصغيرة ، والرؤية التي لا يحجبها شيء على امتداد الشاطيء ، والساحل المرتفع ، الموائم للرؤية البعيدة ، كانت كلها عوامل جعلت هذا الساحل صالحا لأن يكون قاعدة للقرصنة ، كما أن نسائم البحر المتناوبة التي تعم المنطقة في أثناء جزء كبير من السنة تضطر السفن الى الملاحة أقرب ما يكون من الساحل • فلا عجب اذن أن يلاحظ بليني (المؤرخ الروماني) السرقات التي تتعرض لها التجارة الرومانية في الهند الشرقية في عصره ، ومع أنه تم كبح جماحهم مؤقتا بتدمير أساطيل انجريا لهم ، الخ الا أنه يجوز لنا أن نتوقع أن تتواصل هذه العمليات ما استمرت التجارة وضحالة الموانى ، وقوة البلاد في الداخل تحمي القراصنة » • (انظر Memoir المنشورة ١٧٩٢ ص ٣٠) •• ويقول جروس : « يبدو انه منذ أقدم العصور كانت تتملك السكان أقوى الميول الى القرصنة ، وفي هذه الأيام تستخدم جميع الامارات المختلفة الواقعة على الشاطي سفنا تخرج الى البحر للسطو على جميع ما يستطيعون التغلب عليه من سفن الأمم الأخرى » مج ٢ ص ٢١١ •

(٣) يلاحظ هاملتن في حديثه عن راجابور ، وهي مكان يقع قرب جهيريا ، وبالتبعية على ما يسمى باسم ساحل القراصنة ، ان ما حول المنطقة ينتج أنعم ما في الهند من أنواع الموسلين والبتللا Betillas ص ٢٤٣ •

(٤) الراجح أن هذا هو نحاس اليابان الذي كان على الدوام موضع الطلب الشديد • فأما السلع الأخرى المعددة أعلاه ، فمن المعروف أنها من انتاج بلادها •

(٥) يبدو من فقرة فى رحلات باربوزا أنه فى زمانه كان هؤلاء التجار ، ولو الى حد جزئى على الأقل ـ أن لم يكن الى حد رئيسى ـ من الفارسيس (أو البارسيين) ، وهم الاسم الذى اعتدنا اطلاقه على سكان فارس وأحفادهم الذين طردهم المسلمون من بلادهم ، بسبب تمسكهم بديانة أسلافهم ـ وهى ديانة زرادشت أو زرواستر ، المسماة « عبادة النار » ومع هذا فانه يدعوهم بجهالة عربا ، ويبدو كأنما يخلط بينهم وبين التجار العرب وغيرهم ، •

● هوامش الفصل التاسع والعشرين

(١) كان اسم جوزيرات ؛ كما يبدو فى نسخة راموسـيو وكذا فى خرائطنا العصرية ، من الأسماء التى لقيت من التحريف أثناء النقل اقل من كثير غيرها ، فهى جوزوراث فى طبعة بال وكذلك فى الطبعات اللاتينية الأقـدم ، وجـوزوراتش فى مخـطوطتى المتحـف البريطانى وبرلين ، وجيسوراتش فى الخلاصات المبكرة . على أنها فى الكتابات الفارسية والعربية جوجرات أو جوجورات « Gujurat » ويبدو أن هناك بعض الشك : اذا كان ما يسمى الآن شبه جزيرة جوزيرات كان فى قديم الزمان جزءا مكملا من المملكة المسماة بهذا الاسم ، التى كانت عاصمتها هى نهرواليه أو بوتان .

(٢) نظرا لأن منطقة جوزيرات انتقـلت الى حـكم اباطـرة المغول بدلهى ، الذين اتخذوا اجراءات فعالة لكبح جماح نزعة القرصنة عند سـكان هذا الجزء من السـاحل ، فان ملاحى القـرنين الخـامس عشر والسادس عشر لا يتحدثون عن سرقات يتجاوز مداها شمالا مدينة طناه الواقعة على جزيرة سالسيت .

(٣) طبقـا لكلمات النص ، يمكن الظن بأن مؤلفنـا أخطأ فى نبات البومباكس Bombax أو شجرة القطن الحريرى ، وهو نبـات ينمو عادة الى ارتفاع يتراوح بين خمسة عشر قدما الى عشرين ، فظنه نبات القطن Gossypium arboreum وهى شجرة أو Goss herbaceum وهو نبات سنوى ، ولكن لابد أن المؤلف ومواطنيه على معرفـة تامة بهذين النوعين الأخيرين نظرا لأنهما من منتجات بلاد المشرق ، ولا يبعد أن يزرعا ببعض أجزاء ايطاليا ، ولا شك أن غرضه لم يكن الا وصف نوع جديد عليهم من أنواع الأشجار التى تحمل القطن ، فذلك هو فيما يحتمل الوضع بالنسبة لبومباكس أو شجر القطن الحريرى . وهو يمضى مع هذا لابلاغهم أن قطنها لا يصلح لخدمة النول ، ولا يستخـدم الا فى صـنع الألحفة أو ، لعله كان يضيف ايضا لحشو المخدات ، وعندما تابع حديثه فالتزم أن يقول ، انه لو اخذ من الشجرة وهى بعد فى سن الثانية عشرة ، كان صالحـا للاستخدام فى صنع الموسلينات الناعمة الرقيقة وهو قول يتناقض مع الواقع ، وهنا يكمن أقوى الأسباب للاعتقاد بأن معنـاه قد قلب . فليس ثمة تعبير ينطوى على هذه الفحوى موجود فى أية نسخة

أخرى من العمل ، وواضح أنه انما يريد هنا التحدث عن القطن السنوى العادى أو قطن الشجيرات المألوف ، كنقيض للنوع الآخر الجميل ، ولكنه عديم النفع تقريبا ، الذى كان يصفه من توه •

(٤) ربما ذهب الظن الى أن هذه تجارة غير عادية بالنسبة لميناء هندى ، بين أن لنشوتن (الذى ابتدأت رحلاته فى عام ١٥٨٣)، اذ يتحدث عن الاقليم الواقع بين جوزيرات والأندوس (السند) ، يلاحظ صناعة المصنوعات الجلدية على النحو التالى

« Ex Corio item Peritè quaedam facta, floribusque ex bysso »

(ووردت فى النسخة الهولندية بلفظة « حرير »)

« Varis coloribus oranta ».

(انظر Ivavigac Itiner ف٧ ص ١٢) ولم يرد ذكر لتجهيز الجلود ، ولكن الدكتور ف. بوكانان يصف بدقة فى ثنايا رحلته بالمناطق الوسطى من شبه الجزيرة العملية التى يستخدمها الأهالى فى التجهيز والدباغة والصباغة ، ليس فقط لجلود الماعز والغنم ، بل وجلود الثيران والجاموس أيضا • مج ١ ص ٢٢٧ •

(٥) ويضيف لنشوتن قوله :

« Eademsarte, stragula faciunt serico filo exornata, et acu picta ....

● هوامش الفصل الثلاثين

(١) ان الطرق المختلفة التى كتب بها اسم هـذا المـكان ، يعوزها الانسجام بشكل غير عادى ، فبينما يرد فى نسخة راموسيو كانام او كانان ، اذا هو فى نسخة بال تانا ، وفى اللاتينية الأقدم ثانا وكهانه وكهانا ، وفى مخطوطتى المتحف البريطانى وبرلين وفى الخلاصات المبكرة توما • (وربما جاز لنا أن نلاحظ أن حرفى T و C يحـدث التبـادل بينهمـا باستمرار فى المخطوطات الوسيطية) ويحتمل أن تكون تانا هى القراءة الصحيحة بين هذه القراءات ، وذلك هو الرأى الذى ذهب اليه دانفيل ، الذى راح بعد تنويهه بأن مكانا بهذا الاسم يبـدو فى « جداول نصر الدين » واولوغ بك ، يلاحظ أن : « مارك بول يتحدث عنها بوصفها مملكة ، يضمها الى مملكتى كبايت وسيمينات » : (ص ١٠١) : ويمكن الشـك فيما اذا كان المكان موضوع هذه الملاحظة ، والمسمى تانا فى نسخة بال وتوما فى الخلاصات ، لم يكن المقصود به هو تاتا ، وهى مدينة تجارية شهيرة عند رأس دلتا نهر الأندوس (السند) ، وليس تاناه بسلست ، المتوغلة كثيرا فى جنوب جوزيرات •

(٢) لا يصل انتاج الفلفل شمالا حتى بمباى ، كما أن زراعته بسد ولاية كانارا ليست ذات حجم يذكر ومن البين أن البخور المتحدث عنه هنا هو اللبان الجاوى Gum Benzoin الذى ليس فى الحقيقة مما ينمو بأى جزء من أجزاء الهند ، ولكنه يشاهد بمقادير ضخمة فى مستودعات التجار ، الذين يستوردونه من سومطرة ، ليزودوا به أسواق بلاد العرب وفارس وآسيا الصغرى • ولونه على الجملة بنى قاتم ، وأجود أنواعـه لا تشـويه الا عروق من اللون الأبيض •

(٣) كانت الخيول تحمل من البحر الأحمر والخليج الفارسى والأماكن المجـاورة لهما ، الى موانى الهند الشـمالية ، ومنها كانت سلالتها تصدر الى الولايات الجنوبية • وذلك فيما يبدو هو ـ على الأقل ـ السبيل الذى كانت تسلكه التجارة قبل أن يفسد عليها النفوذ الأوربى نهجها •

● هوامش الفصل الحادى والثلاثين

(١) سبق أن أشرنا أنه متى ورد ذكر جوزيرات ، فان المقصود منها لم يكن شبه الجزيرة المسماة بهـذا الاسم ، بل الجزء الأشد امعانا فى الجنوب من المملكة ، الذى يضم مدينة سورات ، ويمتد بامتداد الشـاطىء حتى تاناه أو بمباى · وتمشيا مع الفكرة وتقدم مؤلفنا نحو الشـمال ، فانه يعالج كامبايا فى ترتيبها ، وهى ميناء تجارية شهيرة تقع عند قاعدة الخليج المسمى باسمها وورد ذكر هذا المكان فى الآيين الأكبرى تحت اسم كامبايت بين مدن جوجيرات الرئيسـية ، التى كانت عاصمتهـا قديمـا نهرواله ، المسماة عادة باسم بوتان (كما أوضح ذلك رتل) ·

(٢) يقول لنشوتن :
« In cambaia praeparatur, ac per universas orbis partes distrahitur ».
انظـــــــــر : (Navig. ac Itiner.) ص ١٣ · ويقول الآيين اكبرى فى وصف مكان يقع الى جوار « أحمد أباد » ، العاصمة الحديثة ، الواقعة غيربعيدة من ميناء كامبايا : « هنا ينمو نوع ممتاز جداً من النيلج ، يصدر الى بلاد الروم وغيرها من الأماكن البعيدة » · مج ٢ ص ٧٧ ·

(٣) يصدر قطن الحشو فى الزمن الحـاضر ، بمقـادير وافرة من سورات وبمباى الى الصين ·

(٤) سبق أن ورد ذكر التوتياء فى الكتـاب الأول ، ف ٢٠ ، وأنه تحضير من فلز (هو الزنك أو الأثمد) يوجد بالجهة الشرقية من بلاد فارس · وهو يحمل الى الهند بصفة رئيسية بقصد صنع القطرة منـه المسماة سورميه وأنجان ، وتكثر نساء الهندوستان من استخدامه .

● هوامش الفصل الثانى والثلاثين

ان سرفينات ، التى تسمى فى طبعة بال تسمية أصح هى سميناث ؛ وفى اللاتينية الأقدم سيميناتش ، ولكنها محذوفة فى الخلاصات المبكرة (ما لم تكن سيبيليتش Sebelech هى المقصودة بدلا منها وليس كامبايث) ، هى كما هو واضح المكان المسمى سومينات ، الذى ذاع اسمه بسبب التدميرات التى ارتكبها هناك (فى عام ١٠٢٥) محمود الغزنوى ، وهو متعصب مسلم ، دمر معبدا هندوكيا شهيرا وحطم وثنه الهائل اريا ، واستولى على الأحجار الكريمة التى كان مزدانا بها ·

(٢) ربما ولدت القساوات التى مارسها المسلمون مع السكان الهندوك بهذا المكان ، الذين لقوا الذبح طبقا لرواية ابى الفداء ، فى أعداد غفيرة

« Ea in urbe, Sumenat, ingentum Indorum numerum necabat Mahmud, omnes auferebat divitias, et super idolo rogum accendebat ».

(ولدت) روحا انتقامية عنيفة ، وبخاصة بين الكهنة ، وتسببت فى انتهازهم الفرص للثار للاعتداءات التى حلت بهم ، وليس من المستبعد ان مؤلفنا ربما حصل على معلوماته حول أخلاقهم من رفاقه الملاحين المسلمين ·

● هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(١) يبدو أن اسم هذا المكان ، الذى هو أكوران أو كوران فى نسخة راموسيو ، ورسما كورام فى طبعة بال وربما كورون فى اللاتينية الأقدم ، ورسما كيران فى الخلاصات الباكرة، كان سببا فى مصاعب كبيرة • ويطابق الماجور رنل بينه وبين كدج ماكران ، « التى ربما اعتبرت فى ذلك .حين ، جزءا تابعا للهند ، مثلما اعتبرت فيمـا تلا ذلك من الأزمان فاندهار وولايات فارسية أخرى • ويتصادف أنى أصدرت من قبل حكمى .أى هذا المكان ، والآن أجد فى ملحوظة فى كتاب استلى ، أن الناشر كان يـرى نفس الرأى • والحاصل انهم بالهند يضمون كدج ومكران معا ، كمـا هى العـادة الشائعة فيما يتعلق بأماكن أخرى • وربمـا كانت كدج أو كيدج هى العـاصمة السابقة • وهى دون أدنى ريب ، مدينة جيدروسيا عند الأقدمين » • ويتحدث بوتنجر عند كيدج قائلا انها العاصمة الحديثة لمكران ، وهو ولاية مترامية الأطراف قرب البحر ، على الجانب الغربى لنهر السند • وكانت الأماكن الواقعة قرب هذا النهر هى حدود ما أورده مؤلفنا من أوصاف سابقة ، حيث قال فى(الكتاب الأول ف. ٢٧):«واذا أنا تقدمت فى هذا الاتجاه نفسه أفضى بى السير الى بلاد الهند ، على أنى وجدت من الملائم الاحتفاظ بوصف هذا القطر الى كتاب ثالث » : واذن فهو قد استقام مع نفسه حين ختم بيانه عن ساحل الهند ، عند وصوله فى اتجاه مضاد ، الى ولاية تربطه بفارس ، وكانت تعتبر ، فى أوقات مختلفة ، تابعة سياسيا لأحد القطرين • على انه يمكن ان يقال طبقا لنظام الجغرافيين القدامى • ان مكران تابعة للسند ، مميزا عن بلاد الهند ولكنهما كليهما كانا يدمجان فى تعريفهم لبلاد الهند ، بمفهومها المترامى العام •

(٢) يقول ابن حوقل : « يشبه كثير من سكان مكران العرب ، فهم يأكلون الدجاج والسمك • وآخرون منهم يشبهون الأكراد • اذ هنا يقع الحد الأقصى لبلاد الاسلام فى هذا الاتجاه • والآن سنغير وجهتنا ونشرع فى وصف ارمينا ، الخ •• » (المسالك والممـالك ، ص ١٥٥) ممـا

يسترعى النظر أن مؤلفنا تبنى خط التقسيم الأكبر نفسه ، الذى استخدمه هذا الجغرافى العربى ، الذى سبقه بما يقارب ثلاثة القرون ، ولكن يمكن تعليل ذلك بارتباط الأمر بالربابنة العرب ·

(٣) المقصود من المعبر (متميزا عن مالابار) هو الســاحل الشرقى لشبه الجزيرة ، من قرب كستناه ، أو بعبارة أدق ، من نهر بنار الى رأس قومورين ، أو تلك الشقة التى تنتشر بها لغة التامول ·

• هوامش الفصل الرابع والثلاثين

(١) من العسير التحقق بالضبط من اسم الجزيرتين اللتين رويت عنهما قصة العجائب هذه لمؤلفنا ، على انه رغم الاعتراضات التى تنهض بصدد المسافات ، فان من المعقول الاعتقاد أن المقصود بهما هما الجزيرتان اللتان تقعان قرب جزيرة سقطرى وتسميان عبد أل كوريا والشقيقتين ببعض الخرائط أو الشقيقين فى خرائط أخرى · وفى خريطة فرا · مورو تسميان مانجله ونبيله ·

(٢) سيتضح من هوامش الفصل التالى ، ان المسيحية تأسست بهذه المنطقة ، شانها فى بلاد الحبشة ، فى زمن مبكر جدا ، والتبعيـة الكنسية لسقطرى تقوم على التجاور وان لم تصل الى حد البرهان القاطع ·

(٣) من المعلوم أن السمك المملح سلعة تجارية مهمة بتلك المناطق ، التى يندر بها النبات لشـدة الحرارة وجدوبة الأرض ، كما أن طعام الناس والماشية يحصل عليه بشق الأنفس · وعلى هذا الأساس أطلق الاغريق على سكان هذا الساحل اسم اخثيوفاجى Ichthyophagi أى من يعتمدون فى حياتهم بصفة رئيسية على أكل السمك ·

● هوامش الفصل الخامس والثلاثين

(١) تقع هذه الجزيرة الضخمة ، وهى المسماة سوقوطورا فى خريطة لمانفيل وسقطرين عند الجغرافيين الانجليز ، قرب رأس غردفوى ، البوز الشمالى الشرقى لقارة افريقيا · ووردت فى نسخة راموسيو باسم صحيح هو سوقوتيرا ، ولكنها فى طبعة بال اسكويرا ، وفى اللاتينية الأقدم اسكويران وفى الخلاصات الايطالية الباكرة اسقرسيا : فما أشد عدم انتباه النساخ فى نقلهم أسماء الأعلام حتى أسماء الأماكن المشهورة !·

(٢) كثيرا ما ورد ذكر العنبر وأنه يوجد فى ساحل افريقيا المجاور ·

(٣) ان ذكر هذا الزيت المستخرج من رأس السمكة يدل على أنها هى الحوت العنبرى ، كما أنه دليل على صدق ما أورده المؤلف · ثم ان طريقة الرشق بالحربونة وصفت هنا وصفا صحيحا كذلك ·

(٤) هناك أدلة وفيرة على وجود المسيحية فى زمن مبكر بجزيرة سقطرى ·· يقول الثانى من الرحالتين العربيين فى القرن التاسع : « وفى هذا البحر ، توجد جزيرة سقطرى ، التى ينمو بها الصبر السقطرى ، وهى تقع قرب بلاد الزنج وبلاد العرب ، كما أن غالبية سكان تلك الجزيرة من المسيحيين الذين يذكر عنهم هذا السبب » · فأما الادريسى الذى صنف عمله قرب منتصف القرن الثانى عشر ، فانه ينقل عن هذا المصدر وهو الرحالة المسلم مرددا أقواله بالحرف تقريبا · على أن باربوزا : الذى تمت رحلاته قرب نهاية القرن الخامس عشر يتحدث باحتقار عن نوع المسيحية الذى وجده هناك أبناء وطنه البرتغاليون ، عند زيارتهم الأولى للجزيرة ،

ولكن لما كان السكان يعدون على أحسن الفروض أتباع شيعة مسيحية منشقة ، وجب أن تولى شعوره المتعصب شيئا من التسامح · ويقدم ج · ده باروس بيانا تفصيليا عن « سوقوطورا » ويقول عن الأهالى :

« Todos sao Christiaos Jacobitas da casta dos Abexijs (Habeshis or Abyssin ans), pero que muitas cousas neo guardao de seus costumes ». (Dec. 2, L, I Cap III).

(٥) من الواضح أن مؤلفنا ظن السكان من النساطرة ، حيث وردت Zatolia كغلطة مطبعية بدلا من Zatolic وهى فى حد ذاتها تصحيف

من البنادقة لكلمة الجاثليق ، Katholicos وهو اللقب الذى يتلقب به البطريرك النسطورى المقيم فى بغداد • على أن الأرجح أنهم كانوا من اليعاقبة (كما يؤكد ذلك البرتغاليون) ، ويخضعون للسيادة الروحية لبطريرك ، كان يقيم فى الأزمنة القديمة بانطاكية وبالاسكندرية ، ويقيم فيما بعد بمدينة ماردين بأرض الجزيرة بالعراق •

(٦) من المحتمل جدا أن هذه الجزيرة قبل استيلاء البرتغاليين عليها جعلت مستودعا للبضائع التى تنتهبها سفن القراصنة وان تبرير الأهالى المسيحيين المناقض للضمير شىء متوافق وطبائعهم كثيرا ، ولكن يبدو أن أبا الفداء يعد هؤلاء الأهالى طرفا رئيسيا فى عمليات السرقة حيث يقول: « Incolae eius sunt Christiani piratae ».

انظر : « Geographia » ، « تقويم البلدان » لوحة ١٦ ص ٢٧٨ •

(٧) كان الاعتقاد فى السحر وقدرة التعاويذ على تغيير خط السير العادى للطبيعة وبخاصة على التحكم فى الرياح ، شائعا فى تلك الأيام واستمر كذلك الى عهد متأخر عن ذلك كثيرا ، حتى فى اشد بلاد العالم تحضرا • واذن فلن ندهش اذ نجد ذلك الفن ينسبه الملاحون الى سكان جزيرة سحيقة ، كانت ، شأن « برمودة المنكودة الآن » ، توصف بأنها هدف لعواصف عنيفة • ويتحدث ده باروس وهو مؤرخ جاد فى القرن السادس عشر ، عن الشعوذة التى تمارسها نساء سقطرى قائلا عنهن :
« Por hoje serem ainda tao grandes feiticeiras, que fazem cousas maravilhosas. »

(الكتاب الأول ف ٣ Dec. II) • ويورد جامع رحلات أستلى Astley's Voyages بعض التفاصيل العجيبة عن فرط بساطة البرتغاليين وقابليتهم للتصديق ، فيما ، يتعلق بهذه الوساطة المزعومة الخارقة للطبيعة (مج ١ ص ٦٣ هـ) •

• هوامش الفصل السادس والثلاثين

(١) الحقيقة أن محيطها الواقعي يقارب الفي ميل لا ثلاثة آلاف •

(٢) الأهالي على الجملة ليسوا مسلمين ، على أنه سيتضح لنا أن العرب استقروا وتوطنوا ونشروا دينهم في مناطق كثيرة على امتداد الشاطيء ، ولم يقتصروا على ذلك ، بل انهم باختلاطهم بالأهالي الأصليين ، تكونت عدة أجناس من الناس يدينون بتلك العقيدة ، مهما تكن مراعاتهم لسننها بعيدة عن الكمال •

(٣) لكلمة « شيخ » العربية معنى مزدوج هو « الأسن أو الأكبر سنا » (كما يتضح من النص) ، وكبير القبيلة أو رئيسها • وبهذا المعنى الأخير ، نجدها عادة مستخدمة ، ومن المحتمل أن القبائل المذكورة في الهامشة السابقة ، كان يحكمها رؤساء يلقبون بالشيوخ ، كما هو معلوم من أن حكام شاطيء افريقيا المواجهة ، حيث وطن العرب انفسهم ـ كانوا بالمثل شيوخا •

(٤) ان الأفيال والعاج تكثر على الساحل الأفريقي (كما يلاحظ في الفصل التالي) ، ولكنها لا توجد بالتأكيد على جزيرة مدغشقر ، ومن ثم فلابد أن ماركو بولو تلقى هنا معلومات خاطئة ، أو لعله خلط بين ما وقع له من معلومات •

(٥) زعم بعضهم أن المقصود بالجمل هنا هو ثور مدغشقر أو البيزون ، وهو الشهير بالحدبة أو السنام الموجودة فوق كتفه • على أن من المحقق على ذلك ، أن العرب ، وربما المسلمين بصفة عامة ، يستحبون لحم الجمل •• حيثما استطاعوا الحصول عليه ـ على كل انواع اللحم الأخرى •

(٦) من الواضح هنا أيضا أن الظروف المذكورة تنطبق على الشاطيء الأفريقي المواجه ، وليس على الجزيرة ، التي لا يعرف أن أسودا ولا أي حيوان من الأسرة الببرية يوجد بها • والواقع ان جميع ما ورد من مدغشقر تقريبا ، يبدو انه معلومات التقطها مؤلفنا من البحارة العرب ، فيما يتعلق بالساحل الجنوبي من افريقيا ، وانها ادخلت من مذكراته في غير موضعها •

(٧) أن التيارات المتجهة جنوبيا من خلال مضيق موزمبيق ، ثم المتخذة بعد ذلك اتجاها غربيا ، مندفعة بقوة حول رأس الرجاء الصالح ، مصدر خشية جميع ملاحينا الى بلاد الهند الشرقية ؛ ومن هنا جاء أن لساناً يمتد من أرض أفريقيا ، الواقعة قبالة خليج القديس أوغسطين بجزيرة مدغشقر ، تحت مدار الجدى تقريبا ، سماه المكتشفون البرتغاليون رأس التيارات : Cabo des correntes غير أن ملحوظة مؤلفنا حول هـذا الظرف العجيب ، بمنطقة من الكرة الأرضية ، لم يزرها في ذلك الوقت أى أوربى جديرة حقا باشارة خاصة ·

(٨) ان كل من قرءوا قصص « الف ليلة وليلة » لابد انهم يعلمون حجم هذا الطائر العجيب وقوته ، المسمى فيها بالرخ ، على أن شهرته لا تقتصر على ذلك العمل · يقول القاموس العربى والفارسى : « ان الرخ هو اسـم طائر جبار ، يقال ان به من القوة والمنعة ما يكفيه لحمل كركدن حى » · والحق أن وجوده ، يبدو أنه كان موضع التصديق العام ببلاد الشرق ، ولم يكن الملاحون العرب الذين التقى بهم مؤلفنا ليترددوا فى تقرير حقيقة لها مثل تلك الشهرة ، ولكن لعلهم يجدون من المناسب – فى نفس الحين – أن يجعلوا مسرح ظهوره مكانا بعيدا غير مطروق هو الطـرف الجنوبى لمدغشقر ، حيث تقل فرص مناقضة هذا القول عن طريق المعرفة المحلية · ومع هـذا فإن ظرف لجوئه الى الجزيرة من المحيط الجنوبى ، يتيح المجال للظن بأن الحكاية وان بولغ فيها ، ربما لم تكن خيالية تماما ، وربما كان منشؤها رؤية طائر حقيقى ، بين حين وآخر ، أوتى أبعادا ضخمة وان لم تكن اعجازية وهذا الطائر اما أن يكون هو القطرس –(Demedia exulans) الذى ربما أمكن ، وان كان يقطن خطوط عرض جنوبية أكثر ، أن يزور بالصدفة شواطىء مدغشقر،واما أن يكون هو الكوندور الذى يقطن جنوب افريقيـا · والمعلوم أن بعض افراد القطرس يبلغ طول مابين الجناحين من طرفها الى طرفها الآخر مالا يقل عن خمسة عشر قدما مما يجعل الناظر اليها لأول مرة يخيل اليه أنه يرى ظاهرة خارقة · وقد أمكننـا بفضـل الوصف الذى قدمه الينا باور ، فى « Travels in S. Africa » أن نكون فكرة عن ضخامة وقوة الطائر الثانى · فهو يقول : « تكاد الغربان والحدأة والنسور أن تكون هى تقريبا الأنواع الوحيدة من الطيور التى يلتقى بها (فى منطقة روجفلد) · وتمكنت من كسر جناح أحد افراد النسر الذى يسميه علماء الطير باسم الكوندور وله ضخامة حجم مذهـلة فامتـداد جناحيه كان يبلغ عشرة أقدام وبوصة واحدة · وحدث ذات مرة أنه جعل ثلاثة كلاب فى وضع حرج تماما ، حتى اذا تمكن فى النهاية من امساك أحدها بمخالبه ، وانتزع قطعة كبيرة من لحم فخذه ، اضطرها جميعـا الى التراجع فورا » · (مج ١ ص ٣٥٨ ط ٢) · ان كان المقصود من لفظة

Passi الواردة فى النص هو الخطوات العـادية التى بعدها قدمان ونصف ، لكان معنى هذا أن الطول المعطى لجناحى الرخ هو أربعون قدما · والمبالغة فى وصف ريشة القوادم أعظم وأدهى ، وهنـا يكون ريش القطرس والكوندور تزما مصغراً بالموازنة ، ولكن ينبغى أن يلاحظ أنه بصدد العينة التى قيل ان رسل الخان الأعظم قدموها عندما أرسلهم لفحص عجائب الطبيعة ، ويذا دراسة الحالة السياسية للبلاد ، يعبر مؤلفنا عن نفسه بحذر ويستخدم عبارات ملطفة كقوله « Sicome intesi » و « Laqual li fu affermato » كأنما يريد أن يكون مفهوما انه لا يدعى أنه رأى الشىء رأى العين ، فأما اعتقاده بوجود الطائر نفسه فأمر لا يتطرق اليه شك ·

(٩) يقول كتاب The Hist. of Quadropeds ان الخنزير البرى الأفريقى أى — (sus Aethiopicus) له أربعة أنياب · منها اثنـان كبيران جـدا يبرزان من الفك الأعلى ويتجهان الى فوق كالقرن، وطولهما تسع بوصات ومحيطاهما عند القـاعدة خمس بوصات كاملة ، فأما النابان الآخران الناتئان من الفك الأسفل فلا يبرزان الا ثلاث بوصات من الفم · ويستخدم الحيوان هذه الأنياب أداة رهيبة لانتقـامه » · وبديهى أن أنياب الخنازير البرية ، شأن الفيلة على حد سواء ، لابد أن تختلف اختلافا بينا فى حجمها حسب السن وغيره من الظروف : وربما كان الناب الذى حمل الى الصين ويلغ وزنه أربعة عشر رطلا ، مأخوذا من حيوان غير عادى من هذا النوع ·

هوامش الفصل السابع والثلاثين

(١) ان هذا الاسم الذى ورد بنسخة راموسيو زنزيبار وبكل من النسختين اللاتينيتين زانزيبار ، وبالخلاصات الباكرة تانجيبار هو « زانجبار » فى الجغرافيا العصرية • ويطلق هذا الاسم بنوع خاص على جزيرة صغيرة قرب الشاطىء الأفريقى ، كما يطلق على شقة من الساحل داخل نطاق تلك الجزيرة ، تحدها فنلندا شمالا ، ورأس الجادا فى الجنوب ، ولكن يبدو محتملا أن الأشخاص الذين حصلوا منهم مؤلفنا على معلوماته ، اعتادوا على استخدام اللفظ بمعنى أكثر ايهاما (كشأن اسم أثيوبيا) ، وربما على اطلاقه على الشاطىء الأفريقى الجنوبى بأسره ، الذى يسكنه الشعب الذى يطلق عليه العرب جملة اسم الزنج ونطلق نحن عليه اسم النجرو أو الكفرى Cafrees وربما أمكن الذهاب أيضا على سبيل الظن أنه لما كانت كلمة « جزيرة » العربية معناها جزيرة أو شبه جزيرة ، فربما كان قصدهم مما سماه مؤلفنا جزيرة زنجبار الدلالة على جميع الطرف الجنوبى فى افريقيا أو شبه الجزيرة الأفريقية الذى يبلغ امتداده من جزئه الشمالى أو ما يمكن تسميته بزنجبار الأصلية ، ثلاثين درجة عرضية أى حوالى ألفى ميل وانا لنقرأ عند المؤلفين العربيين وغيرهما من الكتاب الشرقيين ، نفس الاسم (زنجبار) وقد أطلق على هذه الشقة ، مع اطلاق لقب الزنج على نحو عام على جميع سكان الشاطىء الشرقى لأفريقيا • يقول الرحالة المشار اليهم آنفا : « ان بلاد الزنج (أو النجرو) ، تمتد امتدادا عظيما » انظر (Anc. Relat. ص ١١١) • وكذلك ده باروس أيضا ، فانه يعطى اسم زنجبار مدى فسيحا يطلقه عليه ، كما انه لا يحتمل بناء على فحوى اسم مثل (بلاد الأثيوبيين أو الأحباش) ، انه كان فى الأصل قاصرا على بقعة صغيرة •

(٢) (هنا تضيف النسخة اللاتينية الباكرة ملحوظة معينة نتركها بلغتها الأصلية :

« Sed cooperiunt suam naturam ; et faciunt magnum sensum quando eam cooperiunt, eo quod ha bent eam multum magnum et turpem, et horribilem ad videndum ».

(٣) سيحكم القارىء بنفسه الى أى مدى يتطابق هذا الوصف للجنس الزنجى الذى يبدو انه شوه بسبب نقله عن طريق المسلمين وتحيزهم ــ مع مشاهداته هو الخاصة ــ على انه ينبغى الا يغيب عنه فى للحين نفسه ، انه

وان كان هناك من حيث فلطحة الأنف وانفطاسها وغلظ الشفتين ، وتفلفل الشعر ، اتساق وتطابق عام ، فانه من حيث الحجم والشكل وقتامة اللون ، وشراسة الهيئة ، يختلف اهالى صقع ما بين افريقيا اختلافا جوهريا عن اهالى اى صقع آخر ٠

(٤) الراجح أن البلح المذكور هنا ليس من النوع الحقيقى المعروف الذى تنتجه نخلة البلح : Phoenix or palma dactylifera ما لم يكن مستوردا كسلعة غذائية ٠ أجل أن ده باروس اذ يتحدث عن القطر المحيط بكويلوا « Ella he mui fertil de palmeiras » ولكن هذا ــ رغم لفظة بالميرا Palmeira تترجمها المعاجم بالنخلة أو البلح « يبدو أنه لا يعنى سوى نخلة الكافور (Palma Sylvestrier of Kampfer) واذ يسمى البرتغاليون هذا النوع باسم Palmeira brava أى النخل البرى او Braba كما تنطق الكلمة باللهجة العامية المحرفة لمستوطناتهم ببلاد الشرق ــ فانه اكتسب عند غيرهم من الأوربيين التسمية العامة وهى شجرة الأسل ٠

(٥) كل ما يمكن التماسه عذرا لهذه القصة التى لا أساس لها حول طريقة التزاوج بين هذه الحيوانات ، هو أن الغلطة قديما جداً وعامة ، وظلت قائمة لا يفندها أحد بسبب ندرة الفرصة اللازمة لدحضها ٠

(٦) لا شك أن الزرافة أو ما يسميه عالم الحيوان السويدى الشهير لينابوس cervus camelopardolis معروفة الآن تماما بانجلترا ٠

(٧) يقول هملتون متحدثا عن ساحل زيلا قرب رأس جاردافوى : « الغنم عندهم بيضاء الجسم كله من رءوس فاحمة السواد وآذان صغيرة ، وأجسامها ضخمة ولحمها رقيق وذيولها عريضة بقدر اليتيها » ٠ مج ١ ص ١٥ ٠

(٨) يقول هملتون : « ان لهم لأجساما وأطرافا ضخمة ومتينة ؛ كما انهم بالغو الجراة فى القتال » ٠ مج ١ ص ٨ ٠

(٩) من الصحيح ما ورد اعلاه من أن ساحل أفريقيا لا ينتج أى نوع من الخيل ، ولكن مع أن الفيلة المتوحشة تكثر بالبلاد ، فليس هناك أى سبب يدعو للاعتقاد بأن الأهالى متعودون فى أى مكان هناك فى الزمن الحاضر ، على استئناسها أو استخدامها فى حروبهم ، فأما انه لابد أن ذلك قد حدث فيما مضى فى الزمان ، فامر تناقشه بغاية البراعة رحلات المستر بارك الجدير بالثناء والسيىء الحظ حيث يلاحظ ما يلى : « قيل ان الفيل الأفريقى ذو طبيعة اقل وداعة من الآسيوى ، وانه غير قابل للاستئناس ٠ ومن المحقق أن الزنوج لا يرضونه فى الوقت الحاضر ، ولكن لو تذكرنا

أن القرطاجنيين كانت لديهم دوما فيلة مستأنسة في جيوشهم بل نقلوا بعضها الى ايطاليا فعلا ، فى أثنـاء الحروب البونية (التى دارت بين روما وقرطاجنة فى قديم الزمان) ، بدا محتملا اكثر انهم كان لديهم من ترويض فيلتهم ، اكثر من تحملهم نفقات استجلاب مثل هذا الحيوانات الضخام من آسيا » ٠ (ص ٣٠٧) ٠ ورغم هذا كله فانى أميل الى الظن بأن مؤلفنا اما أنه تلقي معلومات خاطئة حول هذه الحقيقة ، واما أن المقصود من ملحوظاته من استخدام الفيلة هو الحديث عن مكان آخر غير زنزيبار كالحبشة مثلا أو سيلان ٠

(١٠) ان البنج ، وهو عصير مخدر ، يستخـرج من أوراق القنب الهندى ، يقـال انه يعطى أحيانا للفيلة الهندية ، بقصـد بث الضراوة فيها وعدم الاحساس بالخطر وهى وسيلة لابد أن يصحبها قدر غير قليل من الخطر على الجانب الذى يلجأ الى استخدامها ٠ ويبدو أن المقدونيين السوريين Syro-Macedonians كانوا يستخدمون شرابا مثيراً آخر لانتاج نفس الأثر : « ورغبة فى اهاجة الفيلة للقتال ، كانوا يجعلونها ترى دم العنب والتوت » . (I. Macc. اصحاح ٦ : ٣٤) ٠

● هوامش الفصل الثامن والثلاثين

(١) من الواضح أن المقصود بكلمة « مجموعة الجزر الوفيرة » ببحر الهند هو الحشد الهائل المسمى بجزر مالديف بالاضافة الى الحشد الأقل عدداً المسمى جزر لكديف · فلو أن هناك مبالغة فى تقدير عددها باثنى عشر الفا وستمائة ، فلابد عندئذ من التماس العذر ، ليس فحسب لمؤلفنا ، بل ولهؤلاء الربابنة المجربين الذين أشار انه نقل عنهم ، وذلك لأنه سيتجلى ان الاعتقاد الشائع بكل أرجاء الهند ، وبتلك الجزر نفسها ، هو أن الجزر الأولى وحدها تتألف من أحد عشر أو اثنى عشر الفا ، من جميع الأوصاف والأحجام · يقول لنشوتن :

« Quid am harum isularum numerum », and 11,000 ferunt ; sed non est certa ratio. Innumberabiles enim sunt ».

(الفصل ١٣ ص ١٦) (وفى الامكان اضافة مصادر أخرى قديمة بنفس هذا النحو) وورد فى الفصل الثامن من هذا الكتاب فى موضوع لونتشاك ، التى يظن انها كمبوديا العبارة التالية : « من هنا تصدر جميع الأصداف الخزفية ، التى متى حملت الى اقاليم أخرى ، تبادلها الناس عملة متداولة » · وهذا التأكيد يمكن تطبيقه بدقة وبتخصيص يكاد يكون تاما على جزر ملديف وكان المقصود به عند مؤلفنا (كما انا مقتنع تمام الاقتناع) أن يوضع فى هذا المكان بالذات ·

(٢) لا يبدو ان هذا التقسيم للهند الى كبرى وصغرى ووسطى ، له أية علاقة لا بالموقع الجغرافى ولا بالأهمية النسبية · والمفهوم هنا من الهند الصغرى هو ما كان يسمى الهند خارج الجانج India extra Gangem او بعبارة أدق ، المسافة المحصورة بين الشاطىء الشرقى لشبه جزيرة الهند وساحل كوشين صين او تسيامبا · وجعلت الهند الكبرى محتوية بلاد الهندوستان الحقة بأكملها وشبه الجزيرة ، ممتدة غربا حتى ولاية مكران أو المنطقة الممتدة بين الجانج (الكنج) والسند بكل ما فيها · فاما اسم الهند الوسطى او الثانية فان مؤلفنا يطلقه على الحبشة قصداً · ولكنه يبدو كانما يعنى أن شاطىء بلاد العرب ايضا ، حتى الخليج الفارسى ينبغى أن يضم الى هذا القسم ·

• هوامش الفصل التاسع والثلاثين

(١) يقول لودولفوس :

« Uni tamen regi, Habessinia pareti qui ob subjectos quosdam regulos, regem regum Aethiopiae semet vocal ». (Hist. Aethiop. Prooem).

انظر (Hist. Aethiop. Prooem). يقول جيبون : « رفعت المسيحية هذه الأمة فوق مستوى البربرية (الهمجية) الأفريقية • كما أدى اختلاطهم بمصر وكذا بخلفاء قسطنطين الى نقل مبادىء الفنون والعلوم اليهم ؛ وكانت سفنهم تخرج للتجارة حتى جزيرة سيلان ، كما أن النجاشي (Negus) أو الأمير الأعلى للحبشة كانت تخضع لأمره سبع ممالك » • (مج ٤ ص ٢٦٧) على ان العدد لابد أنه تفاوت في أوقات مختلفة ، وطبقا لهذا نجد عند ب تللز ولودولفوس وغيرهما من الكتاب أعدادا تتراوح بين أربع عشرة ولاية وثلاثين ، يخفضها لودولفوس مع ذلك في تاريخه الى تسع رئيسية • ويورد دابر اسماء ممالك ، يعتبرها مكونة لممتلكات العاهل الحبشي في زمانه • ص ٣٢٠ •

(٢) الموقع المتوسط المشار اليه هنا هو موقع مدينة اكسو أو اكشوما ، العاصمة القديمة لبلاد الحبشة ومقر حكم الأمير الذي أطلق عليه الفارين باربوزا وغيره من الكتاب البرتغاليين الأوائل اسم بريسترجون الحبشي « Prete Joao » .

(٣) سيبدو فيما تعد محتملا اكثر أن الأقليم المتحدث عنه هنا يقصد به اقليم عدل وهي مملكة مجاورة للحبشة في الجانب الجنوبي اكثر منه عدم أو عدن ، التي يفصلها عنها البحر الأحمر أو الخليج العربي • على أن طبعة بال تقول بصورة أدق :

« Contingit hanc regionem (Abasiam) alia quaedam provincia Aden dicta ».

(٤) لدينا أسانيد وفيرة تؤيد وجود العداء المستحكم والحروب المستمرة بين ملوك الحبشة وملوك عدل (التي ميناؤها الرئيسي هو زيلع على الساحل الجنوبي الغربي من البحر الأحمر) ، وبخاصة كتابات اندريا كورسالي وهو رجل من فلورنسا وفرانسسكو الفارين وهو برتغالي ، (وهي توجد عند راموسيو مج ١ الورقات ١٧٦ــ٢٦٠) • وهنا يصح للقارىء أن يطبق هذه الحقائق التاريخية على الظن الذي أوردناه في

الهامشة السابقة من أن عدل وليس عدن هى المقصـودة بكلمـة الولاية المجاورة للحبشة .

(٥) فيما يتعلق بفتح ملك الحبشة ، سواء العاصمة سلطان عدل على الساحل الأفريقى ، أو عدن على الجانب العربى من البحر الأحمر ، ربما نبتت بعض الآمال فى الحصول على بعض الضوء من حوليـات بروس Brucés Annals عن تلك البلاد ، وبخاصة نظرا لأن الفصل الثانى يقرر أنه يروى الأحداث منذ ١٢٨٣ حتى ١٣١٢ ، بما فيها المدة التى يتحدث عنها مؤلفنا ، على أن المعلومات الموجودة بها ذات صبغة عامة ومع أنها تؤيد البيانات المنبئة بوجود ما لا نهاية له من الحروب والخلافات مع عدل الا أنها لا تسجل أية عملية بعينها .

(٦) « تسكن الفيلة والخراتيت والزرافة المناطق المنخفضة المسطحة ، وكذلك أيضا لا يشاهد الأسد ولا النمر ولا الفهد فى المناطق المرتفعـة والمزروعة . وليس ببلاد الحبشة ببر Tiger ، ولا فى أفريقيا كلها على حد علمى .. وتقوم قطعان لا حصر لعـددها من القردة والربـاح (البابون) ، من مختلف الأنواع بتدمير حقول الدخن بكل مكان » . انظر (بروس مج ٥ تذييل ص ٨٤) . « يفوق عدد الطيور بالحبشـة عـدد الحيوانات الأخـرى بصورة تتجاوز كل تناسب » . ص ١٤٩ .

(٧) مع أنه يقال ان الذهب يوجد بأنهارها ، فان أحدا من الكتـاب العصريين لا يتحدث عنه بأنه يكثر بتلك البلاد ، ومع هـذا فلمـا كانت شواطىء أفريقيا المجـاورة اشتهرت فى كل العصور بانتاج الذهب ، فان من المعقول الظن بأنه — فى أثناء أيام ازدهار الامبراطورية — ربما كان يجمع هناك من جهة الجنوب فى مقادير ضخمة ، ويسعر مجز يعود بمكسب ضخم ، متى بيع الى تجار بلاد العرب . يقول نيبور فى وصفه لبـلاد العرب : « يوجد الكثير من الذهب الوارد من الحبشـة بالمدن التجارية المهمة » ص ١٢٤ .

● هوامش الفصل الأربعين

(١) مهما يكن اسم المكان الذى وجهت عليه الحملة العربية لملك الحبشة (على ما ذكر فى الفصل السابق) ، فليس ثمة شك فى أن عدن هذه الموصوفة هنا ، إنما هى مدينة وميناء عدن الشهير الواقعة فى الطرف الجنوبى الشرقى لليمن أى بلاد العرب السعيدة ــ Arabia Felix والواقعة غير بعيد من مدخل البحر الأحمر · وحقا ليس من المدهش أن اسم مكانين متشابهين تماما (كعدل وعدن) ، وكانا موضوعى الحديث فى فصلين متعاقبين يختلطان على مترجمى هذا العمل ، فيظن خطأ أنهما لمكان واحد ، كما أنه ليس من المستبعد أن مؤلفنا نفسه ربما أساء فهم المعلومات التى تلقاها من الربابنة العرب ·

(٢) يتحدث ده جنى عن أمراء أسرة صلاح الدين ، الذين حكموا عدن من عام ١١٨٠ فيقول : « بعد وفاة هذا الأمير ، التى حدثت حوالى ٦٣٧ للهجرة ، (وللميلاد ١٢٣٩) ، استولى تركمانى يسمى نور الدين عمر على حكم البلاد ، وأرسل الى الخليفة المستنصر يطلب اليه براءة تنصيبه سلطانا على اليمن ، فمنحه الخليفة طلبته ، واستمرت هذه العائلة فى حكم اليمن الى ما بعد عام ٨٠٠ للهجرة (١٣٩٧ للميلاد) » · (انظر : Tab. Chronol. ك ٧ ص ٤٢٦) · ونتيجة لهذا يكون أحد هؤلاء السلاطين هو الذى كان متربعا فى الحكم فى المدة التى يعالجها مؤلفنا ·

(٣) هنا ورد بيان صحيح عن خط سير ما نسميه بالتجارة البرية من الهند · فالتجارة التى تجمع بميناء عدن ، عند أبواب البحر الأحمر تماما ، (كما يحدث فى الزمن الحاضر فى مخا Mokha الواقعة فى أول داخله تماما) كانت تنقل من هناك فى مواعين سهلة الجر فى الماء بسبب كثرة (المناطق الضحلة) · الى القصير ، وهى مكان على الشاطىء الغربى لذلك البحر ، يقع شمال محطة بيرينيس القديمة وهنا كانت البضائع تحمل على ظهور الابل ، فتنقل على هذه الشاكلة عبر الصحراء الى قوص ثم أخيرا الى قنا على النيل ، داخل بلاد مصر ، حيث كانت توضع فى قوارب اسمها الجرمات ، وهو اسم صحيح ، حتى يحملها التيار هابطا بها الى القاهرة ، ومنها بواسطة الخليج أو الترعة العظيمة الى

الاسكندرية ، المستودع التجارى الكبير الذى يزود أسواق أوربا بالسلع الشرقية ٠

(٤) سبق التحدث فى هوامش سابقة عن تصدير الخيول من بلاد العرب ، وخليج فارس الى بلاد الهند ، وبخاصة الولايات الجنوبية منها ٠

(٥) (أسلفنا اليك أن بابل هو الاسم الذى كان يطلقه أهل العصور الوسطى فى أوربا على القاهرة ، عاصمة مصر) ٠

• هوامش الفصل الحادى والأربعين

(١) مع أنه فيما يتعلق بموقع هذا المكان بالنسبة لعدن ، ينبغى لنا بالضرورة أن نقرأ الشمال الشرقى بدلاً من الجنوب الشرقى ، والمسافة تزيد كثيراً جداً عن أربعين ميلا ، فلا مجال للشك أن اسكيير هذه لابد أن تكون الشحر Schahhr عند نيبور (أو شحر Sheher فى كتابتنا الحديثة) ، وسحر Sahar عند دانفيل وسير Seer فى رحلة أوفنجتون • واذا هى نطقت بالطريقة العربية الشحر ، اقتربت كثيرا من النطق الايطالى لكلمة Escier الشيير •

(٢) يقول هاملتن : « ان محصول البلاد هو المر واللبان ، والناس يبادلون عليهما بالمبك (الدمور) الخشن الوارد من الهند ، ولكنهم لا يديرون تجارة ضخمة مع الأجانب » • (مج ١ ص ٥٥) • على أن التجارة الأهلية لذلك الجزء من العالم انحطت كثيرا فى أيامه ، عما كانت عليه فى الأيام التى كتب فيها باربوزا بعد الاستكشافات البرتغالية بقليل •

(٣) سبق الحديث عن طريقة الحصول على شراب مخمر مسكر من نقع البلح فى الماء الدافىء ، على ما يفعله الأهالى المقيمون بسواحل الخليج الفارسى • ويستقطر كذلك من البلح محلول كحولى •

(٤) نظرا لأن نيبور لم يزر هذه المنطقة من ساحل بلاد العرب ، فان معلوماتنا عنها ليست مباشرة تماما ولا تفصيلية بقدر ما كان ينبغى ، على أن عادة تجفيف السمك فى الشمس (وهى ليست بأية حال عادة شائعة) وان لم يلحظها فيما كتب بعنوان « غذاء العرب » ، لها ما يثبتها بالقدر الكافى فى مصادر أخرى •

(٥) تغيرت أهمية عدن بالنسبة للأقاليم المجاورة ، تغيرات جسيمة فى مختلف الآماد • فان سلطانها كان يمتد فى زمان مؤلفنا ، وفيما بعد تحت الحكم التركى ، ــ الى الشحر وكيشين ، وأماكن أخرى تقع على الشاطىء الجنوبى لليمن وشاطىء حضرموت • وكانت عدن تابعة فى القرن السابع عشر لامام اليمن أو صنعا • ثم استقلت فيما عقب ذلك من زمن وأصبحت غير ذات شأن •

● هوامش الفصل الثانى والأربعين

(١) ان دولفار نى نسختنا هى ظفار عند نيبور وفى خرائطنا ٠ واتجاهها من المكان المذكور أخيرا ، وفى تمشيه واتجاه الساحل اجمالا ، يكاد يكون شماليا شرقيا ، كما أن بعدها يتجاوز كثيرا ما هو وارد هنا ٠

(٢) خلعت هذه البلدة أيضا نير تبعيتها لسادة متعاقبين . ويقول الكاتب الأول (نيبور) : « لظفار شيخ ابن مستقل » ٠ ص ٢٤٨ على أن أوفنجتن يضيف قائلا : « يشتبك ملك ذلك المكان بين حين وآخر فى مناوشات ومنازعات حربية مع جيرانه من الأمراء ، ملوك شير (اسكيير أو شحر) وكامسين (كيشين) ٠ » ص ٤٥٢ ٠

● هوامش الفصل الثالث والأربعين

(١) من الواضح أن قلاياتى هى قلحة الواقعة على ساحل عمان وعن غير بعيد جنوبا من مسقط • وكتب الاسم فى خريطة دانفيل « قلحة او قلجة » ، ويتحدث عنها نيبور (فى ص ٢٥٧) بانها من اقدم مدن ذلك الساحل • على أن المسافة والموقع الواردين فى النص خاطئان تماما ، كما يحدث غالبا جدا •

(٢) الأصل فى هذا اللقب ان يطلق على الملوك ، ولكنه كثيراً ما يطلق على الأفراد التابعين وعلى حكام الولايات • وكان سلطان او ملك هرمز (المذكور فى الفصل الخامس عشر من الكتاب الأول) يعترف بأنه تابع لملك كرمان ، وان حدث انه كثيرا ما اشتبك معه فى الحروب •

(٣) توجد بين اسم قلحة واسم القلعة من المشابهة والقربى ، وهى المكان الحصين القائم بوجه خاص على قمة جبل ما يمكننا من أن نعتبر أن هذا المكان قد اشتق اسمه من الظروف المحيطة به ، وأنه سمى (شأن أماكن كثيرة بجهات مختلفة من العالم) باسم القلعة بالتخصيص •

(٤) من هذا البيان المشير لجودة المرفأ (وهى ميزة لا اخال قلحة نفسها تملكها) ، وربما جاز لنا الظن بأن المقصود هو أن يشمل الوصف ميناء مسقط الشهير ، الذى يقع الى جوار القلحة ، ولعله كان تابعا لها فى ذلك الوقت واذ أنه كان يقع فى قاعدة خليج أوجون ، فان مؤلفنا يسميه خليج قلاتو •

(٥) ينبغى أن يفهم من هذا أن موقع الحصن البارز فى البحر ؛ اذ يهيىء ملجأ للسفن المعدة للتطواف ويمكن حاميته من رؤية السفن التى تقترب من الشاطىء ، بينما هو بمأمن تام من كل هجوم ، كان يمنح الأمير الذى يملكه السيادة على تجار البحار ، فضلا عن الميناء التجارى العظيم الواقع الى جواره ، فأما أن من الأمور العادية أن تدرك السفن هذه

لنقطة فواضح من يوميات نيبور عن رحلته من بمباى الى مسقط • وقد
كان هذا النوع من الحروب الصغيرة التى تحدث عنها النص ، موجودا على
طول الزمان ، ولا يزال بتلك المنطقة •

(٦) يقول أوفنجتن : « ان السلعة الرئيسية فى هذه البلاد هى
البلح ، الذى توجد منه بساتين كاملة تمتد أميالا عديدة متتالية » •
« والبلح عندهم من الكثرة والالتذاذ به والاعجاب ، بحيث يخلطونه بكل
ما يتناولونه من أنواع الطعام الأخرى ، ويأكلونه مستعيضين به عن
الخبز ، بكل هذه الأرجاء من بلاد العرب ، ومعه ما تهيأ لهم من سمك
ولحوم » • انظر .Voy. if Surat ص ٤٢٣ ـ ٤٣٧ •

● هوامش الفصل الرابع والأربعين

(١) لما كانت مدينة هرمز وصفت آنفا فى الفصل ٥١ من الكتاب الأول فان ما ورد هنا عنها لا يكاد يتجاوز تكرارا لما قيل : ومع أن هذا ربما عد ناحية تكشف عن افتقار جميع منهج أو عن ارتباك فى خطة العمل (: الكتاب) ، فانه من الناحية الأخرى دليل على أصالته بل حتى على استقامته المنطقية ، ذلك أنه ربما يمكن ادراك أن هذه المدينة الشهيرة التى يبدو أن مؤلفنا أقام بها ردحا من الزمن،تؤلف نوعا من نقطة الارتكاز فى وصفه ، راح منها يترسم الأقاليم الداخلية العديدة والمدن الرئيسية الواقعة فى المسافة المتوسطة بين شطئان الخليج الفارسى وامبراطورية الصين ، وهى التى يعود فى النهاية ، فى دورة تخترق البحار الصينية والهندية والأثيوبية والعربية ، فيقتاد قراءه اليها ٠

(٢) نظرا لأنه فى أثناء الانقلاب الصيفى ، تكون الشمس عمودية تقريبا فوق بلاد العرب ، فان الجو يكون على الجملة هناكشديد الحر فى شهرى يوليو وأغسطس ، بحيث لا يجرؤ انسان على الخروج الى الطريق الا فى حالات الضرورة القصوى ، بين الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر ٠ وقلما اشتغل العرب أثناء هذه المدة ، والعادة أنهم يقضونها فى النوم فى بدروم (أو طابق تحت أرض يأتيه الهواء من أعلى ، بواسطة أنبوبة لتحريك الهواء ٠ وهذا هو ما يمارس فى بغداد وجزيرة شاردج (Chareds) وربما بمدن أخرى من نفس المنطقة » ٠ انظر (Descritpino de l'Arabie) ص ٦) ٠ ويقول الماجور رنل : « وصف لى المستر كالاندر المراوح المستخدمة فى طاطا باقليم سندى ، وهى أنابيب أو مواسير مثبتة فى الحيطان ، ومفتوحة لهواء أبرد قليلا ، وتقوم بنفس العمل الذى تقوم به أقماع التهوية فى السفن » ٠ وملاحظة هذه الطريقة العجيبة فى ادخال الهواء المنعش الى الطوابق السفلية من البيوت ، تعد برهانا غير عادى على أمانة مؤلفنا فى الملاحظة ٠ وحول موضوع هذه المراوح ، انظر أيضا « الافادة والاعتبار » (فى وصف مصر) تأليف عبد اللطيف موفق الدين عبد اللطيف البغدادى ، ترجمة سلفستر ده ساسى ص ٢٩٥ـ٣٠١ ٠

(٣) فيما يتعلق بكيسى أو كيسى ، وهى جزيرة بالخليج الفارسى كانت تجارة سيراف تنقل اليها ، انظر الهامشة ٢ ص ٤٣ ، فأما مملكة أو ولاية كرمان ، فانظر عنها الهامشة ١ ص ٥٦ ٠

(٤) زودنا المؤلف في الفصل الأول من الكتاب الثاني ببيـان تفصيلي عن التمرد الخطير ، الذي شق عصاه نايان بالاتفاق مع قايدو ، وهو أمير تترى قوى آخر ، على قبلاى قريبهما ومولاهما الأعلى ، وكيف تم القضاء على ذلك العصيان ، بهزيمة الأميرين المتحدين وموت الأول منهما فالى ذلك الفصل نحيل القارىء على انه يبدو مما قاله المؤرخون الصينيون أن قايدو (وهم يسمونه هايتو ، على طريقتهم من تعديل نطق الحروف) لم تضطره هذه الهزيمة الى الخضوع ، بل ظل يناصب الامبراطور عـداء متفاوت النشـاط أثناء البقية الباقية من حكم قبلاى ، وجزءا من حكم حفيده وخليفته فى العرش تيموخان ، حتى اضطر ، وقد شتت شمل جيشه على ضفاف نهر ارتش ، الى التخلى عن القتال ، ومات بعد ذلك بمدة وجيزة كمدا ويأسا ٠

(٥) عندما غادر مؤلفنا بلاط بكين حوالى عام ١٢٩١ ، كان قايدو ـ مهما يكن تابعا اقطاعيا بالاسم لقبلاى ـ مستقلا بالفعل ، ورغم بعض القيود المفروضة عليه ، كان مع ذلك أميرا قوى السلطان ٠ ويبدو ان الذى حدث بعد أن أتم قبلاى فتح الصين نهائيا ــ وبدلا من الاحتفاظ بها على انها ولاية من ولاياته ، والتربع على عرشها ، واختصاص نفسه بهوية سلسلة ملوكها ــ هو أن بقية أمراء أسرة جنجيز خان اعتبروه متخليا بالفعل عن امبراطورية المغول التترية ، التى أسسها جدهم المشترك ، واتخذوا ، أو حاولوا أن يتخذوا لأنفسهم ممـالك ذات سيادة من تلك الممتلكات المترامية التى لم تكن لهم فى الأصل الا اقطاعات وذلك هو فيما يبدو وضع الأمور ببلاد فارس ، وبلاد التتار الغربيـة وكذلـك الشمالية .

(٦) يقول تاريخ الحيوان « Hist. of Quadrupeds » ان الدب القطبى أو الدب الأبيض الضخم ، وهو (Ursas Albus) عند لينايوس يختلف اختلافا بالغا عن الدب العـادى فى طول الرأس والعنق ، ويكبر حتى يبلغ ضعف حجمه ٠ ويصل طول بعض افراده الى ثلاثـة عشر قدما ٠ وتتركنا المعاجم الايطالية فى حالة عدم تأكد من كلمة « بالمو Palmo » ، حيث يترجمها بعض المعـاجم بكلمة empan الفرنسية ومعناها الشبر ، وبعضها الآخر بكلمة « Pied » اى قدم ٠ وطبقا للاحتمال الأول (وهو يتمشى أكثر مع المعقول)، واعتبار الشبر فى الرجل المتوسط الحجم ثمانى بوصات ، فان القياسين يتطابقان فى حدود طفيفة ؛ حيث يكون عشرين شبرا معادلة لثلاثة عشر قدما وأربع بوصات ٠

(٧) يقول المرجع نفسه : « ان الثعلب الأسود يعد ثمينا جـدا من أجل فرائه ، ويعد فى روسيا افضل كثيراً من افخر انواع فراء السمور ، اذ يباع الجلد الواحد باربعمائة روبل » ٠ ويقول بل : « ان فراءها يعتبر

أجمل أنواع الفراء قاطبة ، بل انه ليفضل على السمور الأسود ، من حيث خفته ودفئه » • مج ١ ص ٢٢٢ •

(٨) « ان السمور الأسود الذى يسمى mustela Zibellina فى تصنيف لينايوس .Lin والذى يلقى تقديرا عاليا من أجل فرائه ، يعيش فى المناطق الثلجية الشمالية ، وهو يوجد فى سيبيريا بوجه خاص • وأقتم الفراء أغلاه ثمنا • وان جلدا واحدا لا يزيد عرضه عن أربع بوصات ، ليقدر ثمنه أحيانا بخمسة عشر جنيها . ويختلف السمور عن كل أنواع الفراء الأخرى فى أن شعره يميل بسهولة تامة فى الاتجاهين المتقابلين (Hist. of Quadrupeds) ورد اسم الروند ـ الذى يظن أنه كلمة مغولية ـ فى الفصل ١٦ من الكتاب الثانى ، ولكنه لم يفسر هناك على أن معناه السمور • (انظر هـ • ٢ ، ص ١٩٩) •

(٩) يتضح لنا بالاطلاع على الخريطة ، أن منابع عدد من الأنهار العظيمة ، التى تصب مياهها شمالا وشرقا ، توجد بالسهول المرتفعة بين خطى عرض ٤٥ و ٥٥ درجة ، وهى الأماكن الأصلية التى ترتادها هذه الجحافل الجوالة والتى يصح لنا تبعا لهذا أن نتوقع بها اقليما تغمره المياه كالذى يصفه هذا النص » • والحق أن اقليم بارابا (بين نهرى الأرتش والأوبى) ومعناها المنبسط المائى الفسيح اسم على مسمى بمعنى الكلمة • فهو مملوء على الجملة بالبحيرات وأراضى المستنقعات وهو مزدحم بغابات طويلة من أشجار الحور وجار الماء والصفصاف ونباتات مائية أخرى انظر « Bell's Travels » مج ١ ص ٢٠٥ •

(١٠) ان هذه المحطات ، مهما يلغ من ضآلة شأنها من حيث المبانى أو السكان ، هى من النوع المسمى بلغة الروس ، الذين تضم امبراطوريتهم الاقليم الجارى وصفه هنا ، باسم أوستروج Ostrogs أى القرى ، كما أن المنازل هى نفسها التى يسميها المسافرون من كمشتكا واليها باسم بالاجان Balagan لا الاسبا Isba أى بيوت الجزوع والعروق الخشبية • (ولعلها الأصل فيما نسميه العزبة) •

(١١) يقول الكابتن كنج : « يقارب طول الزلاقات أربعة أقدام ونصف ؛ وعرضها قدم واحد ؛ وهى مصنوعة على شكل هلال من خشب خفيف صلب وقد ربطت بعضها ببعض ربطا قويا بالأماليد المجدولة Wicker Work وتقوم على أربع أرجل ، ارتفاعها قدمان ، تستقر على قطعتين طويلتين مسطحتين من الخشب ، وعرضهما خمس أو ست بوصات وتمتدان قدما واحدا عند كل من طرفى الزلاقة ، وهما ترتفعان أماما ، على طريقة الزلاقة الرياضية كما أنها تكسى من الخارج (كحدوة الحصان) بعظام بعض

أنواع الحيوانات البحرية » • انظر : Cook's 3rd Voyage, Continuation
مج ٣ - ص ٢٠٢ •

(١٢) من المعروف الآن جيدا أن الكلاب تستخدم للجر بالأقاليم الشمالية الشرقية من بلاد التتر ، أجل انه يبدو هناك بعض المبالغة حول حجمها ، وان جاز أن السلالة انحطت فى مدى الأعوام الخمسمائة التى انصرمت • يقول الكابتن كنج : « ان هذه الكلاب تشبه فى شكلها الى حد ما السلالة البوميرانية ، وان كانت أكبر منها كثيرا » • ص ٢٠٤ •

(١٣) يقول الكابتن : « ان الزلاقة قلما استخدمت لحمل أكثر من شخص واحد فى وقت واحد ، فيجلس جانبا مركزا قدميه على الجزء السفلى من الزلاقة ، وحاملا مئونته ولوازمه الأخرى ملفوفة فى ربطة خلفه • والعادة أن تكون الكلاب خمسة ، مقرونة كل زوجين معا مع دليل لها فى المقدمة » •• « ولأننا لم نرد أن نعتمد على مهارتنا ، فان كل واحد منا كان معه رجل ليسوق الزلاجة ويوجهها ، وهى عملية ظهر أنها شاقة جدا نتيجة لسوء أحوال الطرق •• وذلك لأن الذوبان كان تقدم تقدما ضخما جدا » • (ص ص ٢٠٣-٢٠٥) يقول ليسبيس : « يتوقف عدد الكلاب التى يلزم ربطها بالزلاقة على مقدار الحمولة ، فعندما تكون أكثر قليلا من وزن الشخص الذى يركب الزلاقة ، يتكون فريق الكلاب فى أربعة أو خمسة •• فأما زلاقات العفش أو الأمتعة فتجرها عشرة كلاب » • ص ١١٨ •

● هوامش الفصل الخامس والأربعين

(١) هذا وصف صحيح للظاهرة التى تشاهد حول الدائرة القطبية الشمالية والمناطق القطبية ، حيث يحدث ، أثناء فصل الشتاء أو الفصل الذى تكون فيه الشمس دون الأفق أثناء دورة الأرض اليومية بكاملها ، أن تمنع قوة السحر ـ رغم ذلك ـ وجود الظلمة التامة ·

(٢) يلوح أن الشعب المشار اليها هنا هو التونجوزى أو جيرانهم الساموييد من جهة أو من جهة أخرى الياكوت الذين يسكنون الاقليم المجاور لنهر لينا · يقول بل : « ان التونجوزى ، الذين يسمون بهذا الاسم نسبة الى نهر (تونجوسكا) ، الذى يعيشون على امتداد جانبيه ، هم سلالة سكان سيبريا القدامى ، ويختلفون لغة وعادات وملبسا ، بل حتى فى أشخاصهم وقامتهم ، عن كل القبائل الأخرى من هذه الشعوب التى أتيح لى رؤيتها . وهم قوم ليست لديهم بيوت يقيمون بها أية فترة من الزمن ، بل يتجولون على هواهم خلال الغابات أو على امتداد الأنهار » (مج ١ ص ٢٢٥) والرجال طوال القامة متينو الأجسام كما أنهم شجعان شديدو الأمانة · وينبغى أن يلاحظ أنه ابتداء من هذا النهر وشمالا حتى المحيط المتجمد ، لا يوجد أى سكان ، الا قلة من التونجوزيين Tongusians الضاربين على ضفاف الأنهار الكبرى ، اذ يغطى كل هذا الاقليم المترامى الأطراف غابات مظلمة كثيفة لا يمكن اختراقها» · ويقول الرحالة نفسه : « قبل أن أغادر اليمسكى ، سأورد بيانا موجزا عن بعض الأماكن المجاورة ، وبخاصة تلك الواقعة الى الشمال الشرقى بازاء نهر لينا وياكوتسكى ، وذلك طبقا لما سمعته من رحالة ، أستطيع أن أعتمد اعتمادا تاما على صدقهم · فمن سافر شتاء من هنا الى هذه الأماكن ، جعل سفره على الجملة فى يناير أو فبراير · وهى رحلة بالغة الطول والمشقة ، وليس لاحد القدرة على القيام بها الا التونجوزيين أو أمثالهم من الأقوام الأشداء » · (ص ٢٣٤) · ويختلف الياكوت اختلافا قليلا عن التونجوزيين ، فى كل من تكوينهم الجسمى وطريقة عيشهم ، فهم يشتغلون مثل غيرهم من الأهالى بصيد السمك واقتناص الحيوان » · (ص ٢٤٠) ·

(٣) ان أسماء الحيوان التى تعقب فى نسخة راموسيو اسم « القائم Armellini هى فارى واركولينى » · والأول منهما هو Vares sen varii المذكورة فى المسارد Glossaries (أى الشروح الختامية

اللاتينية ومن كلمة (Vairs) التى تـدل على نوع من الدلق أو ابن عرس ، ذى اللون الرمادى المبيض • فاما الاســم الآخر الوارد فى نسخة بال « Herculini » و « Erculini» فلم أوفق فى العثور عليه لا فى المعاجم ولا فى التاريخ الطبيعى ، على أنى وجدت فى القائمــة الفخـمة الفروات (Furs) التى وضعها البروفسور بالاس باعتبارها تؤلف جزءا رئيسيا من التجارة الصينية مع الروس على التخوم ، اسم جلد حيوان صغير واسماه الفرنسيون « Vielfrass » واسماه الألمان « فييلفراس » goulu أو Glouton بمعنى المنهوم أو الأكول ، واسماه الايطاليون Adeigoloso وهى الكلمة التى ربما صحفت الى Bell ويلاحظ بل Arcolino هذا الحيوان نفسه ببلاد المغول •

(٤) من المعروف تماما لدى من يتجرون فى الفراء • ان اثمنها هى ما يحصل عليه من ابرد الأجواء ، وهو أمر يتوافق مع اقتصاد الطبيعة المالوفة •

(٥) من المحتمل انه فى المدة التى كانت سيبريا فيها مستقلة ، كان الفراء الذى يرام بيعه فى الأسواق الأوربية ينقل بأجمعه الى مكان يسمى فرشاتوريا ، فى الجانب الروسى من توبولسكى ، وقرب سلسلة الجبال المسماة فرشاتورسكى جورى . يقول بل : « ان هذه الجبال تفصــل روسيا عن سيبيريا • وهى تجـرى مكونة سلسلة جبليــة من الشــمال الى الجنوب » • « والشىء الذى يجعـل لفرشاتوريا اهميتهــا هو وقوعها على التخــوم ، وتحكمها فى المدخل الوحيد من روســيا الى سيبيريا » • مج ١ ص ١٧٢ •

● هوامش الفصل السادس والأربعين

(١) قيل هنا عن الروسيا انها ولاية لأن التتار اجتازوها وأخضعوها لسلطانهم مع شطر ضخم من مملكتى بولندة والمجر بقيادة باتوخان حفيد جنجيزخان حوالى عام ١٢٤٠ ، وظلت تئن تحت نــير هؤلاء البرابرة الهمج ، حتى الأوان الذى كتب فيه مؤلفنا ، والى ما بعد ذلــك بعدة سنوات .

(٢) ان هذا ينطبق مباشرة على بلاد الساموييديين ، الذين ، كمــا يلاحظ بنكرتن : « يظهرون لأول مرة خارج نهر ميزان ، على بعد حوالى ثلاثمائة ميل داخل الدائرة القطبية » ·

(٣) المقصود بالتتار الغربيين هنا هو رعايا باتوخان وخلفاؤه الذين ورثوا نصيبه من امبراطورية جنجيز خان ، وهو اقاليم « الكبشاك والآلان والروس والبلجار » وفى تمييز عن هؤلاء التتــار الغربيين ، يطلق اسم التتــار الشرقيين – فى مواطن أخرى – على اتباع هولاكو وسلالته الذين استقروا بخراسان وفارس ·

(٤) بطبيعة الحال كان عدد الحيوانات البرية ، التى يشكل فراؤها سلعا تجارية ، اكبر كثيرا بالروسيا يوم كانت البلاد اقل سكانا واضيق رقعة زراعية مما هى فى الوقت الحاضر . فأما الآن فان أكثر الفروات التى تصدر عددا وأغلاها ثمنا هى ما تنتجه مناطقها السيبيرية ، وهى التى تجمع بوصفها جزءا من جــزية الدولة أو ايراداتهــا . ولكن حتى قبل اكتشاف ذلك القطر وفتحه عسكريا ، كان الفراء يحصل عليه بسعر معتدل عن طريق المقايضة على الحدود . ويصدر الشمع بمقادير كبيرة وبخاصة الى انجلترا ·

(٥) لا يبدو فى اى بيان حديث عن تلك البلاد ، أن مناجم الفضة تستغل الآن بروسيا الأوربية ، ولكن ربما كان ذلك موجودا فيما سلف واستنفد ما فيه · على أن الولايات السيبيرية يوجد بها الذهب والفضة كلاهما · (ويذكر ابن بطوطة مناجم الفضة الروسية) ·

● هوامش الفصل السابع والأربعين

(١) ورد هذا الفصل والفصول التى تليه حتى ف ٦٣ ، فى النسخة الاصلية بين منتصف الفصل ٤٤ في ترجمة مارسدن ، وفصله الخامس والأربعين ، ولكنها ألغيت فى النسخ التى ترجم عنها مارسدن ٠

(٢) توضيحا للمسائل التاريخية التى تحتويها هـذه الفصول الاضافية ، نرجع القارىء الى النص والهوامش صص ٠ (٢٧ الى ٣٠) من هذا الكتاب ٠

(٣) هو نهر جيحون ، أو اكسوس Oxus عند الأقدمين ، أمودا ديا الآن ٠

(٤) النقرزان Nacar أو Nacaire ، كان نوعا من الطبول ، أو صنجا ، يستخدم فى الشرق فى الموسيقا العسكرية ، ولا تجهله بلاد الغـــرب ٠

● هوامش الفصل التاسع والأربعين

(١) فى النسخة اللاتينية التى نشرتها الجمعية الجغرافية بباريس ، كتب اسم السيدة أرجيلا لكوكور أو أرجيا لتشوكور ٠ وهى فى النسخة الايطالية ايجيارن ٠

(٢) ان هذا الاسم ، الذى حذف من النسخة الفرنسـية ، مأخوذ من الايطالية وورد فى احدى المخطوطات الايطالية : بيومر ٠

(٣) عن التتار الشرقية أى تتار فارس وخراسان ٠ انظر الهامشة ١ ص ١٢ ٠

● هوامش الفصل الخمسين

(١) كان كتاب العجائب التى شاهدها الاسكندر فى فتوحه الشرقية ، الذى يدعى أن مؤلفه هو أرسطو طاليس ، موضع المحبة الشديدة من الناس ابان العصور الوسطى ، كما أنه اتخذ أساسا لكثير من الآراء المنتشرة الشيوع بين الناس فى كل من علمى الجغرافيا والتاريخ الطبيعى ٠ وعن الشجرة الجافة انظر ص ٧٢ من كتابنا هذا ٠

● هوامش الفصل الرابع والستين

(١) تعقب الفصول التالية ، الفصل الأخير فى ترجمة مارسدن .

هوامش الفصل التاسع والستين

(١) اعنى أنه فتى لم يصل بعد الى مستوى الفارس • وبديهى أن منكوتيمور وتوتامنكو ، هى نفسها الأسماء التى كتبت فى الفصل ٦٤ منجلتيمور وتوتا مونجور •

(٢) فى النسخة المطبوعة ، التى ترجمنا عنها ، فى هــذا الفصــل والفصول التالية ، يكتب توتامنكو خطأ بدلا من تولوبغا ، كما يحدث العكس، مما يترتب عليه حدوث ارتباك كبير فى القصة : ورأينا الأوفق أن نصحح هذا الخطأ اثناء الترجمة •

اقـرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطـة مقابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغــرافيا فى مائة عـام	ت · و · فريمـان
الثقــافة والمجتمــع	رايموند وليــامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغــامضة	ليسـترديل راى
الرواية الانجليــزية	والتــر الـن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهــة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د · قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقــود	ديفيد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطـق	عزيز الشــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديـلان تومـاس	اشراف س · بى · كوكس
الانســان ذلك الكائن الفـريد	جــون ويســت
الرواية الحــديثة	بول لوييس
المسرح المصرى المعـاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	انــور المعــداوى
القــوة النفسـية للأهرام	بيـل شول وادبنيت
فـن الترجمــة	د · صـفاء خـلوصى
تولســتوى	رالف ئى ماتلــو
ســتندال	فيكتور برومبير

رسـائل وأحاديث من المنفى	فيكتـور هـوجو
الجزء والكل (محـاورات فى مضمـار الفيـزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سـدنى هـوك
فن الأدب الروائى عند تولسـتوى	ف · ع · أدنيكوف
أدب الأطفـال	هادى نعمـان الهيتى
أحمـد حسـن الزيات	د · نعمة رحيم العـزاوى
أعـلام العـرب فى الكيميـاء	د · فاضل أحمـد الطائى
فـكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيـم	هنرى باربوس
صنع القـرار السـياسى	السـيد عليـوة
التطور الحضارى للانسـان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفـال	د · روجـر ستروجان
تربيـة الدواجـن	كـاتى ثيـر
الموتى وعالمهم فى مصر القـديمة	ا · سـبنسر
النحـل والطب	د · ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جـوزيف داهمـوس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د · لينـورا تشامبوز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السـنة	د · جـون شـندلر
الصـحافة	بييـر البيـر
اثر الكـوميديا الالهيـة لدانتى فى الفـن التشـكيلى	الدكتـور غبـريال وهبـه
الأدب الروسى قبـل الثـورة البلشـفية وبعـدها	د· رمسيس عـوض
حركة عـدم الانحيـاز فى عـالم متغير	د· محمد نعمان جـلال
الفكر الأوروبى الحـديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين أحمد حسين

نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج. دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد؟	د. جوهان دورشنر
حرب الفضاء	مجموعة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د. مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوروبى الحديث (٣ ج)	فرانكلين ل. باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف. س
اجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س. م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون ونورمان د. اندرسون
الشارع المصرى والفكر	د. أنور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكيمياء	فرد. س. هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	آلان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما سينج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس
الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ عل الشاشة	هاشم النحاس

العنوان	المؤلف
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د٠ محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية أسماك الزينة	ديفيد الدرتون
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد محمد الشنوانى
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر٠ بورر وميلتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د ٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م٠هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه أبو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	أريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جون بورد
الأساطير الاغريقية والرومانية	ب٠ كوملان
تاريخ العلم والتكنولوجيا	ر٠ج٠ فوربس
التوافق النفسى	توماس ا ٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشاهنامة (٢ جـ)	الفردوسى الطوسى
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى

عن النقد السينمائي الأمريكي — ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت — اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربيـة — اعداد / مونى براخ وآخرون
دليـل تنظيـم المتـاحف — آدمز فيليب
سقوط المطر وقصص اخـرى — نادين جورديمر وآخرون
جماليـات فن الاخـــراج — زيجموند هبنر
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج — ستيفن أوزمنت ،
الحملة الصليبية الأولى — جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون — تونى بار
العثمانيون فى اوربا — بول كـولنز
الكنائس القبطية القديمة فى مصر ٢ ج — الفريد ج. بتلر
رحلات فارتيما — رودريجو فارتيمـا
انهم يصنعون البشر — فانس بكارد
فى النقد السينمائى الفرنسى — اختيار / د. رفيق الصبان
السـينما الخيالية — بيتـر نيكوللز
السـلطة والفرد — بوتراند راسل
الأزهر فى ألف عام — بينـارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة — ريتشارد شاخت
سفر نامه — ناصر خسرو علوى
مصر الرومانيـة — نفتالى لويس
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩ — جاك كرابس جونيـور
الاتصال والهيمنة الثقافية — هربرت شيلر
مختارات من الآداب الأسيوية — اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانسانى ٣ ج — أحمد محمد الشنوانى
الشموس المتفجرة — اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة — لوريتو تود
حديث النهر — اعداد / سوريال عبد الملك
من هم التتـار — د. ابرار كريم الله
ماستريخت — جابر محمد الجزار
معـالم تاريخ الانسانية ٤ ج — هـ . ج ولز
حضارة الاسلام — جوستاف جرونيباوم
الحملات الصليبية — ستيفن رانسيمان

الطفل ٢ جـ	أرنولد جزل وآخرون
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيود
السحر والعلم والدين	برنسلاو مالينوفسكى
الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ	ادمز متز
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
كونتا المتمدد	ايفر شاتزمان
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
رحلة فاسكو دا جاما	فاسكو داجاما
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندراى
الأعلام التطبيقى	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج كارفيل
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
رحلة جوزيف بتسى	جوزيف بتسى
الفيلم التسجيلى	محمود سامى عطا الله
بين تولستوى ودوستويفسكى	جورج ستايز
المرأة الفرعونية	كريستيان دى روش
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف · م· بوجز
ما هى الجيولوجيا	ويليام ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستانلى جيه صولومون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/٢٠١٠

ISBN — 977 — 01 — 4668 — 4

في عام ١٢٧١ خرج ماركوبولو، وكان آنذاك في السابعة عشر من عمره، مع أبيه وعمه في رحلة عجيبة انطلقت بهم من مدينة البندقية في ايطاليا وحملتهم عبر قفار وجبال وسهول آسيا الشاسعة حتي أرض الصين في عصر الأمبراطور المغولي العظيم قبلاي خان الذي احتفي بهم وضمهم إلي حاشيته فعاشوا هناك سنوات طويلة... .

وقد دون ماركوبولو اخبار رحلته هذه في ذلك الكتاب الذي يعد أشهر وأهم كتب الرحلات قاطبة، فهو سجل في نادر لحياة الكثير من الشعوب والحضارات القديمة التي إندثرت اليوم ولم تبق منها سوي تلك الصور التي التقطها ماركوبولو بقلمه عنها، فهو علي طرافته مرجع علمي عظيم عن تاريخ آسيا والصين في العصور الوسطي..

وقد ترجم هذا الكتاب إلي العربية مترجم قدير هو الأستاذ عبدالعزيز توفيق جويد ضمن إسهاماته المتعددة في إثراء المكتبة العربية بالنفيس والهام من الكتب..

وفي الجزء الثالث من الرحلة نتنقل مع رحالتنا عبر أراضي الهند، جزيرة جاوه، جزيرتي صوندور وكوندور، جزيرة بنتان، جزيرة نوكويران، جزيرة أنجامان، جزيرة زيلان، جزيرة سقطري، جزيرة مدغشقر، جزيرة زنزيبار وتركيا.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب